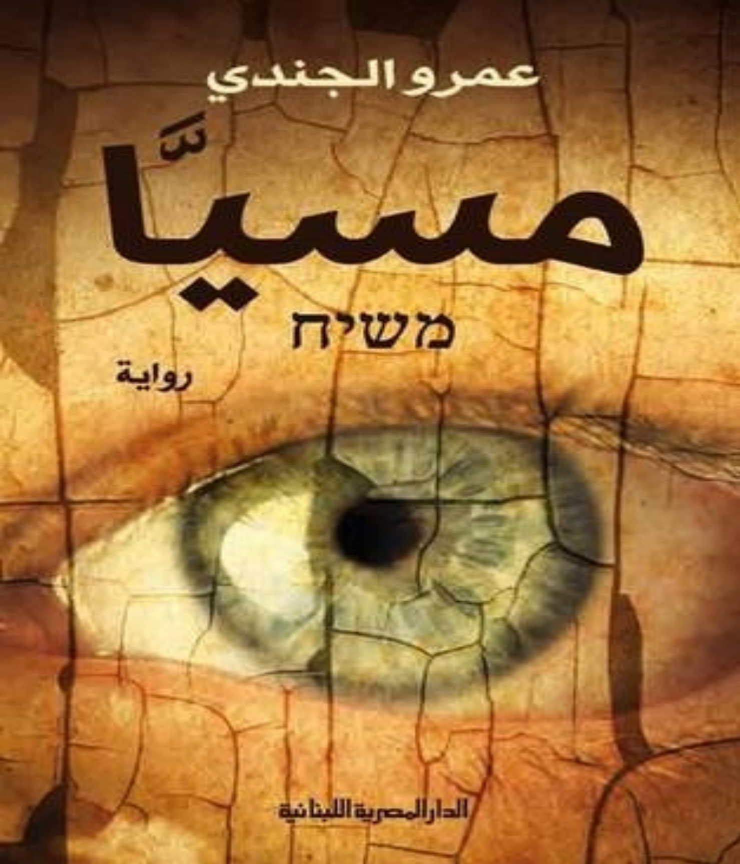

عمرو الجندي
مسيَّا
משיח
رواية
الدار المصرية اللبنانية

الجندي، عمرو.
مسيا: رواية / عمرو الجندي .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
368 ص؛ 20 سم.
تدمك: 7 - 931 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 19126 /2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: محرم 1436 هـ - نوفمبر 2014م

عمرو الجندي



رواية

الدار المصرية اللبنانية

الإهـــداء

عن كل تلك الأوقات التي جمعتنا، عن النظرة الأولى التي نسيت فيها مَن أكون وعن خطواتك المتلهفة المحبة العائدة للوراء حين النظر في عيني لأول مرة، عن جروبي وعن ريش والبستان، عن سيتي ستارز، عن معرض الكتاب، وعن تلك الكتب التي تسامرنا حولها، عن كل ابتسامة سعادة أراحت قلبي وكل دمعة خرجت لتروي حبي، عن الأماكن والبيوت التي مررنا بها، عن المترو وزحامه، عن تجبري وعندي وغيرتي، عن تلك الرعشة التي أصابت روحينا، عن أنوثتك وخفتك بين يدي، عن مذاق الطعام من يدك، من بين أصابعك، عن كل تلك الهموم التي أكدت لي حبي، عن كبريائك وتعنتك وغضبك وترددك، عن ثقافتك، عن ابتساماتك الخمس التي أحفرها دوما بين ملامحي لتدوم ابتسامتي المبللة، عن لون عينيكِ في الصباح، عن كل تلك الأشياء التي لم ولن يعرفها غيري عنك، عن كل هؤلاء الذين أذاقونا الألم وأسامحهم كما سامحت نفسي، عن العصيان ولحظات الوداع التي لم تأتِ رغم مرورها بنا، عن تلك الرسائل الإلكترونية التي تحمي الجزء المهترئ من ذاكرتنا، عن كل نقاط الخلاف واللقاء، عن الحب الذي لا يموت .. عنكِ وحدكِ

«ابتسام» لكِ هذه، ولكِ وحدكِ .

الجنة نعيم أبدي، أعتقد أن هذا أيضًا جزء من الجحيم.

سيناء

«إن الموت يعيش داخلنا كما الحياة»

الفصل الأول

في البدء اعتقدت أنها رواية مخيفة؛ لأن ذلك كان باديًا على ملامحها التي تقلَّصت واستسلمت لتلك السطور المريبة، ولكنها بعد فترةٍ لا تتعدَّى سبع ساعات ابتسمت مع الفصل الأخير الذي خلا تمامًا من الرعب النفسي الذي تعوَّدت عليه؛ فروايات أدهم في السنوات الأخيرة كانت تحمل عبقًا تاريخيًا مُثمرًا، أبرز أنه ما زال يحمل جانبًا لم يتصوَّر أحد وجوده فيه، أيقنت في نفسها أن زوجها ليس مجرد كاتب روائي مشهور، وصلت كلماته إلى العالمية، حصد كل أنواع الجوائز وتربَّع على عرش الأدب كما لم يفعل أحد من قبل، بل إنه شخص ذكي، يدرك تمامًا كيف يُدير معاركه، يعلم أيضًا الطريق الأمثل للنجاح، بل الطريق الأمثل للتفوق، رغم أنه لا يُطلع أحدًا على ما يكتب، إلَّا أنها الوحيدة التي تقرأ كل شيء بمجرد انتهائه منه وقبل الشروع في نشره، كل كلمة، كل حرف، كل إحساس ذكي ينقشه على السطور بمهنيةٍ وموهبةٍ لا مثيل لهما، الشغف الذي ملأها لمعرفة سر عقله المتَّقد جعلها دومًا إلى جواره منذ ذلك اليوم التي وطَّدت فيه علاقتها به منذ عشر سنوات، حينما كان يجلس في إحدى كافيهات الشانزلزيه بباريس عاصمة النور، يتناول

قهوته بهدوء، عشقها اللا محدود له كرجل يحمل من السمات ما تتمناه أي امرأة قبل كل شيء أسرها، إنها ابنة الوزير، ليلى مصطفى الحسيني.

لم تدهشها كثيرًا الرواية، ولكن أدهشها ذكاؤه في اختيار موضوعاته، وحرفيته وتناوله لها بشكلٍ أشبه ما يكون بالكمال، نزعت نظارتها عن وجهها وابتسمت ابتسامة هادئة رقيقة وهي تنظر أمامها، حيث تستطيع عيناها أن تتجاوزا المسبح الصغير في خلفية المنزل الكبير في المنصورية، والذي يملكه أدهم طلال الكاتب الشهير، نهضت من مجلسها بهدوءٍ بعد أن وضعت حجرًا فرعونيًّا اشترته خصيصا لولعها بتاريخ الفراعنة فوق الأوراق المكتوبة، ذلك الحجر الصغير الثقيل الذي لا يفارقها كان كافيًا لتثبيت أوراق الرواية حتى لا تطير من على المنضدة الصغيرة التي توجد بجوار الكرسي الوثير القابع أمام المسبح، دخلت إلى المنزل من خلال باب زجاجي، كان الهدوء الذي يعُم المنزل ثقيلًا، مُقبضًا، يكاد المنزل يكون خاليًا من الأوكسجين، تستطيع وسط كل ذلك أن تسمع حفيف قدميها الحافيتين، خطواتها ثابتة واثقة كعارضة أزياء محترفة تعلم جيدًا مواضع قدميها، نظرت حولها نظرة سريعة وكأنها تتفقَّد المكان، صعدت السلم البني القاتم الذي يأخذ شكلًا دائريًا والمصنوع من الخشب الزان المصقول، تفقدت اللوحات الموضوعة على الحائط الموازي للسلم بلمسة كلاسيكية، يمكنها أن ترى بعينيها نماذج رائعة للوحات خالدة، فقد كانت هناك لوحات متنوعة لتيتان ورامبرانت فان رين ومونيه –كلود أوسكا وأيضا كانت هناك لوحة رائعة شهيرة «The virgin and the child»

لدافنشي، ولكن مَنْ هو ذلك المجنون الذي يستطيع الجزم بأنها أصلية؟! صعدت إلى الطابق الثاني ومشت بأنوثة طاغية في الرواق الطويل المؤدي إلى غرف النوم، وكذلك مكتب زوجها الروائي الشهير.

دلفت إلى الغرفة فوجدته قابعًا على كرسي خلف مكتبه يتفحَّص بعض الأوراق أمامه، ابتسمت له دون أن تتفوَّه بكلمةٍ، ثم انتزعت الروب الذي يغطي جسدها العاري إلَّا من لباسها الصغير الذي لا يغطي شيئًا على الإطلاق، كانت ليلى الحسيني ثلاثينية العمر، صاحبة بشرة بيضاء مميزة، تملك شعرًا طويلًا أسود مصبوغًا بلونٍ بنيٍّ فاتحٍ، لها عينان لوزتان مثيرتان، وأنف مدبب صغير لا تحمله العديد من النساء، تملك جسدًا أميل إلى النحافة، وصدرًا مشدودًا بارزًا يميز جزءها العلوي، وبطنًا مشدودًا أيضًا لمواظبتها على التمارين الرياضية، وساقين طويلتين مصقولتين بشكلٍ مثيرٍ.

نظرت له نظرة طويلة، لمحها أدهم رغم أفكاره المتلاطمة في عالمه المجهول، لم يكن يدري تحديدًا ما تنويه ليلى في هذه اللحظات، لكنه عاد إلى الأوراق مرةً أخرى يتفحَّصها بهدوءٍ بعد أن أزال تمامًا سحرها من عقله، لديه قدرة غريبة ومخيفة أيضًا على مقاومة ذلك رغم ولعه بالنساء الذي لم ينتهِ منذ أن عرف معنى كلمة رجل، منذ سنوات طويلة، سنوات تكفي لتشهد له بأنه زير نساء آخر يكتب أحرفًا مختلفة على صفحات التاريخ المعربدة.

لكنه كان يستطيع أن يستمتع بالرباط الطويل المتدلي على جانبها من لباسها الداخلي الصغير وهي تنحني لتجلب كتابًا من أسفل مكتبته لتبرز مؤخرتها المستديرة فتواجه عينيه بشراسةٍ وتحدٍّ في هذه اللحظات، هزَّ رأسه وكأنه ينفض كل تلك الرغبات التي تنحيه عن أفكاره، لكن بقيت فكرة واحدة غريبة، أتت من منطقة لا يعرفها، أتت دون سابق إنذار، حينما كان بتركيا وتذكر آسيل، تلك الفتاة التي أسرته وقضى معها أوقاتًا متفرقة بين ربوع إسطنبول يلهوان، صوتها الرقيق وهي تحاول نطق اسمه الصعب كان يُثيره بشكلٍ محمومٍ، «نمت معها خمس مرات في يومين.. بل سبعًا على ما أعتقد»، فكَّر في نفسه وابتسم ابتسامة غامضة تحمل لمحة من الذكريات، لا يذكر تحديدًا هل كان متزوجًا في هذا التوقيت أم لا؟! لم يعنِهِ كثيرًا ذلك، فهو يعرف آسيل منذ فترةٍ طويلةٍ، طويلةٍ للغاية، فقد قطفها عشرينية كما قطف ليلى تمامًا، ولكن لا يستطيع أن ينكر أن آسيل التركية لها سحر خاص مميز انتزع منه كبرياءه وغطرسته المعهودة، وذلك لأنها اخترقت أفكاره الآن، ذلك الأمر الأخير هو أمر لا يحدث معه بسهولة ولكنه أخيرًا يحدث، لم يكن يدري هل رغبته المحمومة في التغيير هي السبب، أم رغبته في الهروب إلى شيءٍ ما؟! في النهاية بَدَا له الأمر غامضًا وغريبًا رغم منطقيته في جزء ما من تفكيره.

«لقد قرأت الرواية». قالت ليلى بصوتٍ رقيقٍ وهي تواجهه بصدرها العاري، «لا أعلم حقًّا كيف استطعتَ أن تُنجزها بهذه السرعة وبهذه العبقرية أيضًا، أنا مندهشة تمامًا»، وصفَّقت بيديها، ابتسم لها ابتسامة

خفيفة، ليس لرأيها في الرواية ولكن لصدرها الذي يهتز ليتخبّط بعنفٍ بين ذراعيها، يكفي هذا المشهد لأن يُلهمه بأكثر المشاهد الروائية إثارة في هذه اللحظات، لم يكن يعنيه تمامًا رأي ليلى، يُدرك جيدًا مدى تفوق موهبته، في الحقيقة لم يعنِهِ رأي أي شخص على هذه الأرض أيًا كانت موهبته ونبوغه الأدبي، يُدرك جيدًا إحساسه بأعماله ويُدرك أيضًا أنها ستحصد ما يريد وأكثر، فقد وصل إلى مرحلةٍ لا يمكن لقلمٍ فيها أن يُنافسه، رغم أن ذلك التفكير هو تفكير مرفوض إلا أنه تفكير يفرض نفسه كواقع، والواقع يفوق المنطق ويتفوَّق عليه؛ لأنه ببساطة شديدة الشيء الوحيد الذي يحدث في النهاية.

في المقابل لم ينكر أدهم يومًا معاونة ليلى له منذ أن اقتحم عالم التاريخ في رواياته، ليلى باحثة تاريخية رائعة وعميقة، مجنونة أيضًا إن صحَّ القول، تفانيها وولعها بالتاريخ جعلاها تحصد الماجستير من جامعة كامبردج، ذلك الأمر جعله سعيدًا، أيضًا جعله يرتكز عليها في جمع معلوماته من أجل أعماله الروائية التي اتَّسمت بسمة تاريخية مميزة.

سرت مرارة مفاجئة في نفسه وهو ينظر إلى ليلى التي غابت فجأة من أمام عينيه، شعر بألم في رأسه، ببرودة ثقيلة تسري في أنامله، أصبحت ثقيلة، أطرق برأسه وهو يُفكر، وقف فجأة وعقد رباط الروب الذي يرتديه، ما زال الشرود يستحوذ عليه، أعطى ظهره لليلى، ونظر من خلال الجدار الزجاجي، يستطيع أن يرى المسبح في الخارج مرورًا بسور الفيلَّا الكبيرة ومن خلفها الصحراء وانتهاءً باللا شيء، احتضنته

ليلى من الخلف برقَّةٍ وظلَّت هكذا ولم تنبس بكلمة، استطاع أن يسمع صوت هاتفه في هذه اللحظات، استطاع أيضًا أن يسمع صوت أفكاره الرتيبة، غير المرتبة، المشوشة بشكل كبير، لم تكن مشوشة فقط الآن ولكنها هكذا منذ مدة طويلة حتى في المرحلة الأخيرة من كتابة روايته، ولكن هذا الأمر لم يؤثر بأي شكل على عمله الأدبي، في الحقيقة أنه من ذلك النوع الذي يكتب تحت أي ضغط وأي نوع من الظروف، شعر بأن الهاتف يدق من خلف الباب، يأتي صوته الرتيب من منطقة بعيدة، من مكان آخر لا يوجد فيه، لكنه يُدرك جيدًا أنه هاتفه، تلك الرنة المميزة هي رنَّته، لم ينتزع يدي ليلى من على خصره، لم يفعل ذلك لأنه اتجه إلى الهاتف خلفه على المكتب مباشرة، فاضطرت ليلى لإفلات يديها وبعد أن ردَّ ظل صامتًا للحظات يستمع إلى الطرف المتحدث على الجانب الآخر، كانت القوة والحزم باديين عليه، الصلابة والعند أيضًا، «لقد اتخذت قراري». قال أدهم بصوته الجهوري الفاتن والغاضب، «لن أفعل شيئًا بشأن ذلك الأمر.. لقد انتهى الموضوع بالنسبة لي.. ليكن ما يكون.. لم أعد أكترث». وأغلق الهاتف.

ألقى نظرة أخيرة على هاتفه الأسود وهو ما زال يقبض عليه، يستطيع أن يشعر بنبضات قلبه البطيئة، «أدهم»، قالت ليلى بقلقٍ واضحٍ، «هل كل شيء على ما يرام؟!»، يستطيع أدهم أن يسمعها ولكنه لم ينظر لها، أعطى أمرًا ذهنيًّا ليده بترك التليفون ولكن يده لم تفعل، لم تستجب، شيء غريب أو فكرة غريبة ما زالت متمسكة به، عالقة في منطقة بعيدة وغامضة، تلك الفكرة هي ما كانت تستحوذ عليه في هذه اللحظات، بدأ باستيعاب ما

يجري الآن، عاد من تلك المنطقة، من جوف تلك الفكرة العميقة كبئرٍ سارحة نحو الأراضي الخفية، أطلّت على رأسه ذكرى واضحة، غرفة في عيادة طبية في إنجلترا، ما زالت ليلى تنظر إليه قلقة ومندهشة، نادت عليه مرة أخرى لأنها تدري تمامًا أنه يفكر بأمرٍ مزعجٍ، فهي تعرفه بشكل كبير، تُدرك أنها لا تعرفه بشكلٍ كاملٍ رغم عشر سنوات من الزواج، من العِشرة، من تبادل الأسرار، من تلك الأمور البسيطة التي تبرز أمورًا أكثر أهمية، تُدرك أنه من تلك الشخصيات التي كلما اقتربت منها كلما ازداد جهلها بها، ربما ذلك ما كان يأسرها فيه، كانت محبطة بشكل كبير في هذه اللحظات، سهل جدًّا أن تُصاب بالإحباط أمام غموضه المنعكس في كل تصرفاته وأعماله الأدبية أيضًا، حتى غموضه وطريقته المجنونة في ممارسة الحب معها التي كانت تثيرها بشكل يفوق قوتها وأنوثتها، كانت تكرهه أحيانًا لجهلها به في كثير من الأوقات التي كانت تحتاج فيها للفهم كأي امرأة، ولكن سرعان ما يختفي ذلك الشعور أمام رغبتها المحمومة فيه، الرغبة التي لا تنتهي، شعرت أن دمها أصبح ثقيلًا وغريبًا وهي تنظر كالطفلة الجاهلة لأبٍ عارفٍ مجنونٍ، لأديبٍ ذكيٍّ مُتمكنٍ ومتهورٍ أيضًا، أرادت أن تعرف ما يشغل ذهنه، لكنها تدرك جيدًا أنها لن تعرف إلا ما يريد هو أن يُطلعها عليه.

رفع أدهم عينيه ببطءٍ وهو ينظر إلى الفراغ، اللا شيء، ابتسم ابتسامة باهتة، أجبر نفسه عليها؛ لأن ذلك بدا عليه حينما تحوّلت تلك الابتسامة إلى جمود بوجهه إلى الشحوب، ثم قال في نفسه هامسًا بإصرار: «لم أعد أكترث. لم أعد أكترث على الإطلاق».

الفصل الثاني

في الليل كان أدهم يجلس وحيدًا في غرفة مكتبه، يلف سيجارة معبأة بالحشيش، ليست عادة اكتسبها خلال المدة الأخيرة المشوشة ولكنها عادة تلازمه منذ فترة صباه، لم تكن الخمر شيئًا يجذبه - إلا في أوقات خلُّوه من الحشيش - بقدر هذه المادة الغريبة التي تصحبه إلى عالم مثالي من وجهة نظره، تُجرِّده من همومه، تجعل عقله خاليًا من أي أمور تُعكِّر صفوه، تذكَّر في هذه اللحظات المرة الأولى التي تناول فيها تلك المادة الغريبة وهو في السابعة عشر من عمره، برفقة بعض أصدقائه القدامى، منهم مَنْ يُحافظ على صداقته حتى هذه اللحظة رغم تحول حياته بعد أن أصبح كاتبًا مشهورًا، شخصية عامة يعرفها الجميع جيدًا .

لم يكتب أدهم كلمة يومًا وهو تحت تأثير ذلك المخدر الغريب، فهو أذكى من أن تخرج كلماته بلا وعي، يُدرك أن التركيز مع كل سطر، بل كل كلمة، مطلوب، والحشيش لا يُحقق ذلك، ابتسم ابتسامة عريضة مع ذكرياته وهو يتذكر ضحكته الصافية، تلك الابتسامة التي كتب لها أن تموت.

يُميت الزمن كل يوم شيئًا قديمًا طاهرًا فينا؛ ليزرع مكانه رقعة مدنسة سوداء منهكة، هكذا كان يؤمن وهكذا أيضًا الحياة.

أخذ نفسًا عميقًا ولم يُخرجه إلا بعد لحظات، يستطيع أن يشعر برائحة الحشيش المميزة والنفاذة وهي تغزو صدره وتخرج بهدوءٍ من منخريه، ابتسم راضيًا ونظر إلى النار في السيجارة ونفخ فيها الدخان المتبقي داخل صدره فتوهَّجت، فتح جهاز الكمبيوتر المحمول «اللابتوب» الخاص به، نقر على ملف، ظهرت له نافذة تطلب منه إدخال الرقم السري للسماح بالولوج، أدخل الرقم المكون من سبعة أرقام.

1541972

شرع في القراءة بهدوء، ابتسم ابتسامة ساخرة، ليكن ما يكون، فلن أموت وهذا شيء يُدركه الجميع، لن يموت أدهم طلال أيتها الأرض، لن يختفي اسمي، سأكون يومًا مثل شكسبير وفان جوخ وبوسان وذاك العبقري الذي آلمني دان براون، الذي اقتحم التاريخ بصورة جعلت منه منارة للجدل في جميع أنحاء العالم، ستقام لي تماثيل في كل مكان، سينتهي كل شيء ولكنني لن أنتهي، وقف مرة أخرى وهو يهذي بهذه الكلمات بلكنة ساخرة من كل شيء، حتى من نفسه، أطرق رأسه فجأة حزينًا، أخذ نفسًا آخر من السيجارة التي اخترق صوت احتراقها الفراغ والهدوء المميتين فأصدر صوتًا مميزًا يعرفه جيدًا، رفعها أمام عينيه، ثبَّت نظره عليها، العالم كله سيجارة من الحشيش، عالم مسطول محترق من داخله، أي وجه قبيح يحمله هذا العالم باسم الطهر؟! أناسه مخربون،

أفكارهم لا تقل في سوداويتها عن سواد ليله، أطفأ سيجارته بنوع من التهكم ونفاد الصبر، كانت أفكاره ساخرة متمردة في هذه اللحظات، لم تكن الغرفة مضاءة، الغرفة تتكون من مكتبة صغيرة تحوي بعض الكتب والمراجع الهامة، وثلاجة صغيرة تقع على يمين المكتب الكبير الموضوع فوقه أباجورة كلاسيكية الطراز لها لون بني قاتم كلون المكتب، كما أن اللوحة الوحيدة في الغرفة تقع على يسار المكتب، وهي نموذج للوحة الفتاة الحافية للعبقري بيكاسو، كما يوجد اللابتوب الخاص به، وسجادة عاجية مستديرة صغيرة في منتصف الغرفة بينما الستائر تعكس من الخارج لون القمر الذي يضيء السماء وينسل في غموض لينير جزءًا من الغرفة، كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا حينما دقَّ هاتفه. تساءل في نفسه عن هوية الوقح الذي قرَّر أن يتصل به في هذا التوقيت المتأخر، لم يكن يدري تحديدًا مَنْ سيكون لأن الرقم الظاهر على الشاشة مجهول لا يحمل اسمًا، ردَّ والحيرة تتملَّكه ولكن لم يسمع في النهاية سوى صوته، صدى صوته يأتيه بنغمة عميقة. أغلق الهاتف ولعن شركة الاتصالات.

أفزعته الفكرة كامنة بألَّا يحمل اسمه الصدى الذي تمنَّاه طوال حياته، يعلم تمامًا أن المرض سيجعله يعاني بالقدر الذي يجعله يتمنَّى الموت في النهاية. سيتألم، سيخوض صراعًا نهايته مقررة منذ البداية، ربما سيموت وحيدًا، سيخونه كل مَنْ حوله كما خانه المرض واقتحمه خُلسة كلصٍّ جريء متهور، لا أحد على وجه الأرض يعلم بأنه سيموت قريبًا، حتى

زوجته، فقد أكد له الأطباء بعد فحوصات كثيرة في فرنسا وإنجلترا أنه مصاب بسرطان المخ، وأن الموت لم يعد بعيدًا عنه، توسّلوا إليه لكي يبدأ العلاج قبل أن يتمكّن المرض اللعين منه، لكنه رفض رفضًا قاطعًا، فإن العظماء ماتوا في مثل عمره الأربعيني، وهو كذلك أيضًا، سيموت مثلهم، سيموت سعيدًا لأنه تلقّى نفس المصير الغامض، وهذه إشارة إلهية من وجهة نظره تُثبت له إيمانه بما سعى إليه، بما سعى إلى تحقيقه، طبيبه في مصر اتصل به محاولًا استمالته للعلاج ولكنه أخبره بأن الأمر قد انتهى تمامًا، لن يفكر فيه، إنه ميت خالد الآن، يعيش اللحظات الأخيرة من تلك الحياة البائسة، رغم أن أدهم كان يعشق الحياة إلا أنه كان عقلانيًا بالشكل الكافي الذي يجعله يؤمن بأن لا شيء سيُعيق الحقيقة، لا شيء سيُوقف الواقع القاسي، بأنه سيموت، سيموت تمامًا.

سيموت ولكن سيبقى ما يُخلّده، ثروته الأدبية، لم يرزقه الله بأبناء، في الحقيقة لم يُحزنه ذلك يومًا، ولو كنا أكثر واقعية فإن أدهم لم يتمنَّ يومًا الحصول على طفل، يراهم دومًا شياطين مُزعجة لا تتوقف عن الثرثرة، وفي عالمه الثرثرة هي الشيء الوحيد الذي يقتله، كيف يقبل العلاج بمادة ستجعل ذاكرته معرضة للانهيار؟! لن يقبل ذلك، لن يقبل نظرات التعاطف التي لن يفهم مغزاها، لن يقبل تحت أي سبب أن يفقد موهبته، ربما لن يفقدها، لكن الأكيد أنه سيفقد الذكريات والخبرات، النزوات والمعارك الحياتية، الأحلام والمخاوف، وكل ذلك يمثل جزءًا كبيرًا من أعماله.

اختفى كل شيء من أمام ناظريه، انتهى إلى نقطة الصفر مرة أخرى، نظر إلى الحاسوب نظرة طويلة متأملة، في الحقيقة لم يكن ينظر إليه، ولكنه كان ينظر إلى نفسه في الصورة الباهتة المنعكسة عليه خلف الأيقونات، وراء تلك الخلفية العريضة على شاشة حاسوبه التي يرتسم في وسطها كاهن لا تظهر ملامحه، شعر بألم في بطنه ورأسه، فتح درج مكتبه وتناول قُرصًا مُسكنًا قويًا للغاية، يصيبه ببعض الهلاوس أحيانًا، قرص من نوعية «تامول»، أحب ذلك القرص لأنه يسبب له بجانب الحشيش سعادة مختلفة، نشوة تعَجَّب من أنه لم يحصل عليها يومًا حتى وهو بين ذراعي أجمل النساء، تذكَّر الإنجليزية إليسا التي ضاجعته في حديقة منزلها، إليسا المسئولة عن ترجمة أعماله وتتحدث العربية بشكلٍ مُضحك ولكنه مثير.

ماذا يمكن للعالم أن يجلب له أكثر من ذلك؟! شهرة، ونساء، ونفوذ، خلود سيتحقق، المعطيات كلها تُبشر بذلك، تهديدات بالقتل، أسرار دفينة لا يعرفها أحد سواه، أسرار جرى خلفها، أسرار أخرى جاءت له بمحض المصادفة لتكشف الحجاب عن وجهها ولتصافحه وراء الشوارع الخلفية للبيوت المغلقة، يعلم أسرارًا عن المراكز المرموقة في بلدان كثيرة، عن شخصيات لو خرجت حقيقتها لكانت أغرب من الخيال، ضحك بهستيريا وهو يفكر في كل تلك الأفكار الغريبة والمتداخلة.

نهض من مجلسه ووقف حزينًا، أدرك في جزء منه بأنه لم يُقدِّم ما أراده، صال وجال بأفكاره داخل التاريخ المشمر، يعلم ويدرك جيدًا أنه

ليس هناك ما هو أكثر خداعًا من كتب التاريخ، لكن التاريخ نفسه لا ذنب له أنه وقع تحت أيدي الضالين والمنتصرين الوقحين الذين زيَّفوه بأيديهم، التاريخ كذبة كبيرة اتفق الجميع على إتقانها حتى أصبحت صدقًا مؤلمًا، خرجت أفكاره تلك جلية ساطعة، متمردة بشكلٍ لا يقبل الشك، تذكَّر أعمال دان براون وجرأته في تحدي الفاتيكان بحقائق قد تكون صحيحة وقد لا تكون، ولكنه يحمل بين طياتها جزءًا كبيرًا من المصداقية، لقد فتح الأبواب المغلقة بعبقرية جعلته مبهرًا.

في لحظة خاطفة مسروقة من تفكيره، أتته فكرة من الظلام، من منطقة مجهولة من عقله الثائر، ما هي القضية الحقيقية التي قدمها في أعماله؟! مذبحة الأندلس، فتح مصر المعقد بتفاصيله وتاريخه المغلوط، حرائق ومذابح الحروب العالمية، ما هي القضية الحقيقية التي ستخلده؟! لم يكن يحمل أي إجابة، ولكنه كان ثائرًا في نفسه، ممتعضًا، يشعر بالخزي، الأدباء مجانين لا يرضيهم شيء، مهما بلغت أعمالهم من درجات النجاح والمجد الشخصي، دائمًا يرون أن ثمة شيئًا لم يُقدَّم، درجة من المجد لم يصعدها أحد بعد، فكرة مخيفة لم يخترقها أحد ولا بد من اختراقها، ذلك هو الدافع الأهم والأقوى، حتى وإن أنكروا ذلك أمام الجميع، لكنها تبقى الحقيقة.

طبقًا لتقاريره الطبية لم يبقَ أمامه سوى سنةٍ واحدةٍ وسيفارق هذه الحياة، دون أن يترك خلفه ما يريد، انتابته موجة من التهكم والحزن، لماذا لا يظهر ما نريده حقًّا إلا في اللحظات الأخيرة؟! لماذا تبدو

الحياة معقدة إلى هذه الدرجة؟! ولِمَ تبدو الأشياء واضحة مؤلمة حين الرحيل؟! حدَّث نفسه في صمت مؤلم.

المشكلة تكمن في أن الجميع يعتقدون أنهم المُخلِّصون، لولاهم لتوقَّف العالم، لتحرَّكت إنجلترا من مكانها وتخبَّطت في آسيا وسقطت مصر في المحيط، لولاهم لنهض الميتون لينتقموا من دمامة الأحياء، الجميع سيدخلون الجنة؟! في العهود القديمة كان المحاربون هم رجال الإله، وفي العهد الحالي المتدينون هم رجال الإله، وأصحاب النفوذ الفوضويون أيضًا يعتبرون أنفسهم رجال الإله، تكمُن المشكلة في السلطة، فالمحاربون والمتدينون يمتلكون السلطة والفوضويون أيضًا، أعتقد أن الله لا يملك الرجال لأنه لا يحتاج لهم، ولكنه يملك الحكمة الكافية ليجعل هؤلاء يعتقدون أنهم رجاله لسببٍ ما، ربما أكون أنا أيضًا رجل من هؤلاء الرجال، ولكن هل يمكن تهديد رجل الإله؟!

سخر من نفسه ومن أفكاره، تبًّا للفلسفة، إنها الدين الوحيد على هذه الأرض، نعم، نعم، فلا يوجد دين بلا فلسفة.

قرَّر في النهاية بعد معارك فكرية وثورة نفسية لا تهدأ أن يخوض المعركة الأخيرة، الرحلة الأخيرة، أن يكون مُخلِّصًا لنفسه ولكل شيء حوله، إن كان مَنْ سبقوه من العظماء فعلوها، فسيكون هو أيضًا الفاعل القادم، لكنه لم يكن يعرف طرف الخيط الذي يمكن البدء من خلاله، لم يكن يدري ما هو الممكن! لكن الممكن لا مكان له في الأيام الأخيرة، المستحيل والمستحيل فقط سيكون رفيق رحلته..

لتكُن الأيام الأخيرة مستحيلًا، لتكُن أيامًا ذات قيمة.

الفصل الثالث

دخل أدهم غرفته بهدوءٍ على أطراف أصابعه وهو يشعر بصداعٍ رهيبٍ يدك رأسه، كانت ليلى نائمة في السرير، صدرها العاري ظاهر له، يظهر جزء من ساقيها أيضًا حتى منتصف فخذيها، بينما بقية جسدها مغطًى ببطانية أتى بها من تركيا في رحلته الأخيرة، كان منقوشًا عليها نمر، في الحقيقة بدت له ليلى قطة تحتمي في ذلك النمر، ولكنه أيضًا يكره القطط، نظر إليها وسط العتمة في الغرفة على شعاع الشمس الناعس الرقيق الذي تسلَّل من بين الستائر مُتذكرًا رحلته معها، لم تضايقه يومًا، لم تعرف يومًا عن نزواته شيئًا سوى نزوة واحدة أو ربما اثنتين، لكنها في النهاية سامحته، أومأ برأسه وهو يشعر بالأسى، لم يعلم حقًّا لماذا لم يحاول أن يحبها حتى هذه اللحظة! ولماذا لم يفكر في ذلك إلا الآن! ربما لاقتراب نهايته! ربما لأن النهاية لها سحر خاص ومخيف أيضًا، تشعرنا بأننا لم نكن أكثر من عميان في عالم أعمى عن حقائق واضحة، والمؤلم أن البصيرة تعود دومًا في اللحظات الأخيرة، لم تفعل ليلى يومًا شيئًا يغضبه أو يحول دون إتمام أعماله، غيرتها الرقيقة كانت دافعًا كافيًا ليطارحها الغرام مرتين في ليلة واحدة، كما أنها تفعل كل ما يطلبه منها

رغم أنه أحيانًا يطلب بعض الأمور الوقحة والتي لم ترفضها يومًا من أجل إسعاده، شعر بقرفٍ من نفسه جرَّاء معاملته لها أحيانًا كأي امرأة قابلها في طريقه، كمومس إن صح القول، فالجنس بالنسبة له ملهم لا يمكن الاستغناء عنه، وامرأة واحدة لا تكفي، فالإلهام كذبة وهو يعرف ذلك جيدًا، ولكنه يُجدِّد طاقته، وطاقته متقلبة المزاج.

قبَّلها بهدوءٍ ورِقَّةٍ على جبينها، ارتدى ملابسه في الخارج واتجه نحو المطبخ بعد أن أخذ حقيبته وهاتفه، كان جميع العاملين بالمنزل في إجازة، تناول قهوته بسرعة مع مُسكِّنٍ خفيفٍ، لم يتناول أي نوع من الأطعمة، اتجه نحو الجراج في أسفل الفيلَّا وركب سيارته، نظر لنفسه نظرة طويلة في مرآة السيارة، لم يكن يفكر في شيء، لكنه كان شاردًا في شيء لا يعلمه وكأنه مُغيَّب عن هذا العالم، حينما استفاق اتجه في طريقه إلى وسط البلد للقاءٍ مهم في مكتبه القابع في شارع عبد الخالق ثروت، كان أدهم طوال حياته يعشق وسط البلد ويعتبره المكان الوحيد الذي ما زال يُعبر عن وجود شيء اسمه القاهرة بعد أن أصيبت المدينة العجوز بالقرف والزحام والذوق المتدني، امتلأت أيضًا بالفساد الذي طال كل شبر فيها، هو بنفسه وبعيدًا عن أعماله كان يعتبر نفسه جزءًا من هذا الفساد، فالعملية برمتها لعبة متقنة، ليست أكثر من ذلك، فالشيء الوحيد الذي يحترمه في نفسه، كان الكتابة، الشيء النقي الوحيد الذي حافظ عليه وسط كل ذلك، لم يكن أدهم بمثل هذا السوء، فهو في الحقيقة رجل كريم مع الجميع، لم يُقصِّر يومًا مع أحد، لم يتأخَّر يومًا عن نجدة

صديق أو مساعدة شخص من معارفه ولم يكن يعرف الدافع الحقيقي وراء ذلك لكنه كان يشعر بالسعادة إذا فعل شيئًا شكره أحدهم عليه، رغم غطرسته وتكبُّره في سنواته الأخيرة إلا أنه حافظ على كل ذلك وسط الظلمة التي غلَّفت كل جزء فيه.

وصل إلى مكتبه وكان الموظفون جميعًا في استقباله، رحَّبوا به لأنه لا يأتي كثيرًا لانشغاله في أعماله وكتاباته، فهو يملك شركة أخرى كبيرة للاستيراد والتصدير يديرها صديق له اسمه حسن عبد الرحمن، لا يعرف الشيء الكثير عن إدارتها، لكنه كان يعقد صفقاتٍ مهمةً لها من مُنطلق علاقاته المهمة في دول مختلفة. في النهاية لا يطَّلع سوى على المستندات المهمة الواجب توقيعها أو الجلوس معه للمناقشة في بعض الأمور، جلس في غرفة مكتبه الواسعة الأنيقة وفتح الشباك المطل على الشارع ليسمع صخب القاهرة الذي اشتاق إليه، لم يأتِ إلى المكتب منذ أسبوعين، لم يأتِ إلى الحياة - إن كان ذلك التعبير دقيقًا - منذ أسبوعين، وجد مظروفًا على مكتبه، مظروفًا أصفر صغيرًا، نظر إليه بريبةٍ نظرةً طويلةً، بهدوء التقطه وقلَّبه بين يديه، فتحه فوجد دعوة إلى إحدى الأمسيات الثقافية لكاتب مشهور يعرفه معرفة شخصية ولكنه في الحقيقة لم يحبه يومًا، فرمى المظروف والدعوة في سلة القمامة القريبة منه، شرد طويلًا وهو ينظر عبر الزجاج أمامه إلى العمارة العتيقة التي تواجهه كسيدةٍ عجوزٍ وقورٍ لم يُغادرها بعد وقعها الأرستقراطي النبيل المميز، ابتسم ابتسامة طويلة وهو يسترجع تاريخ القاهرة قبل أن تعود

مصر لأبنائها، في الحقيقة كان أدهم ميالًا أكثر لكون مصر ملكية، فقد أقر التاريخ بأنها كانت أفضل دومًا حينما يحكمها الغرباء، لم يكن يعلم سر ذلك الأمر، في الحقيقة وفي جزء آخر منه كان ذلك الأمر يُؤلمه ويجعله متعجبًا من أمر هذا الشعب المتناقض، ولكنه في النهاية أحدهم، ما كان معجبًا به بصدقٍ، الحياة البسيطة التي اتسمت بالرقي قبل كل شيء في الثلاثينيات والأربعينيات، لم تكن هناك تلك النزعة الطائفية التي تُثير كل المشاكل والمعضلات الآن، لم تكن مشكلة الأخلاق حاضرة كما هي الآن، فالمسلمون والمسيحيون واليهود كانوا هنا، في هذا البلد، هرب اليهود وعانى المسلمون والمسيحيون معًا، اليهود! لمعت عيناه فجأة وهو يردد تلك الكلمة في جوفه، لم تكن مجرد كلمة، إنها إشارة ما أتته دون سابق إنذار من داخل أفكاره، شيء ما بدأ في الظهور بشكلٍ ملفتٍ، إنها الفكرة التي تختار صاحبها، فالاعتقاد المنتشر بأن الكاتب يختار فكرته هي فكرة مجحفة ومسيئة للغاية، فالأفكار هي ما تختار كاتبها، هذا ما يحدث الآن، يبدو الأمر واضحًا مع ضربات أصابعه على لوحة المفاتيح، لم يكن يكتب شيئًا واضحًا أو فكرة بعينها ولكنه يلتقط ما يمكن التقاطه من الإشارات الأولية المرسلة إليه من هذا الكون الواسع المبهم، الأفكار الإبداعية هشّة تتمزّق في ثوانٍ معدودةٍ إن لم يتم ترجمتها في الحال، كان أدهم يعلم ذلك جيدًا، ولذلك شرع في الكتابة.

حينما انتهى من كتابة ما أُرسل إليه، ابتسم ابتسامة عريضة لكنها بدت مجنونة لأن السكرتيرة التي اقتحمت مكتبه الآن شعرت بشيء

من الخوف وهي تنظر إليه، لم يشعر بطرقات الباب حين استئذانها، لم يشعر بدخولها، هناك في العالم الآخر يسبح، ذلك العالم المجنون بتفاصيله الذي قرَّر أن يخوضه بمحض إرادته، في الحقيقة العالم موجود الآن ولكن كانت المشكلة كلها تكمن في الباب، أدرك أدهم جيدًا أنه كالأعمى الذي خضع لعملية استثنائية وفي انتظار فك الشاش من على عينيه ليرى النور، لن يسمح بشيء آخر سوى النور لأنه وحده ما سيمنح أيامه الأخيرة خلودًا.

لأنه وحده سيمنحه الخلاص الذي بدوره سيمنحه الراحة الأبدية.

الفصل الرابع

كان أدهم في هذه اللحظات يجلس على أرضية غرفة مكتبه وسط
العديد من المراجع والكتب القديمة التي اشتراها خصيصًا بعد أن كتب
...نه التي أتته من منطقة مجهولة ككل الأفكار المجنونة التي تطيح بحياة
...صهم أحيانًا في أوقات مفاجئة بلا بداية وبلا نهاية مفهومة، كانت إضاءة
الـ...جفة الكبيرة في وسط مكتبه تسطع بأشعتها البرتقالية المميزة فتضيء
العديد من الأوراق المتناثرة حوله وعلى مكتبه، بينما كانت هناك بعض
الكتب المفتوحة ملقاة في جميع أنحاء الغرفة. لم يكن هناك شيء بعينه
...حث عنه ولكن هناك جزء ما يسعى إليه، إنه الباب الخفي الذي سيعيده
إلى الحياة حتى وإن كان الموت هو النهاية، فالنهاية لا تعني الانتهاء.

قرأ بعض الأشياء عن الحياة اليهودية وبعض التفاصيل عن تاريخهم الطويل القديم فيما قبل ظهور السيد المسيح، كانت عيناه تلمعان وهو يُدوِّن ملاحظاته في مفكرته المميزة بُنِّية اللون ذات الورق الأصفر المميز، ملاحظة تلو الأخرى، عكف في مكتبه في المنزل ساعات طويلة، بدا المكتب في هذه اللحظات وكأن أحدهم قد انفجر غضبًا فأطاح بكل شيء فيه؛ لأن ذلك كان باديًا على ملامح ليلى التي بدت

مذعورة حينما رأته، وقفت مُتسمِّرة في مكانها، ليس من عادات أده
الفوضوية، جلست على الأرض بجواره وهي تنظر إليه نظرة طويلة، كا
أدهم ببنيته الطويلة الممشوقة، وشعره الأسود الطويل الذي يربطه برباه
أسود خلف رأسه إلى الأسفل، وعينيه الحادَّتين السوداوين، وجبه
البارزة، وأنفه الذي يُشبه أنف الصقر، ولحيته متوسطة الطول غ
المنتظمة دائمًا، وطريقته المبهرة في اختيار ملابسه؛ يُعطي وقعًا مُره
وعميقًا في النفس لكل مَنْ تقع عيناه عليه، لكنه في هذه الأثناء بَدَا كطفل
ضاع وسط أشيائه، ابتلعه اللهو فلم يعد يكترث لأي شيء سوى المتعة
نظر لها بطرف عينه ثم عاد إلى ما كان يفعل، لم يكترث في هذه الأثنا
لها، أمسكت بأحد المراجع التي توجد بجواره وألقت نظرة طويلة عليها
رمشت بعينها كثيرًا مُتحيرة، محاولة فهم ما يجري، هل يبحث أدهم عز
فكرة جديدة؟ لم تكن لديها إجابة أخرى، لم تكن تدري أنه يبحث عر
الفكرة الأخيرة، الفكرة الخالدة، أتاها صوته مُتحشرجًا، ثم تنحنح مُتردد
وذلك لم يكن يومًا من صفاته، فهو لم يَبدُ يومًا مترددًا أو غير متأكد مم
يريد، هذا الأمر جعلها تشعر بمزيجٍ من الدهشة والتساؤل.

«إنني أبحث عن فكرةٍ ما»، نهض أدهم من على الأرض وأشعل
سيجارة، «لكنني لا أعرف في الحقيقة من أين أبدأ! لقد مكثت هن
لساعاتٍ طويلةٍ، أشعر بأنني مُنهك للغاية، لست منهكًا من البحث
ولكنني منهك من عودتي خالي الوفاض كل مرة».

«لماذا لم تخبرني يا أدهم من البداية؟!»، قالت ليلى متسائلة بتعجب وهي تنهض من مكانها، «فأنا أستطيع مساعدتك كما أفعل كل مرة منذ أن اخترقت عالم التاريخ، أعتقد أنك بحاجة للراحة أولًا، ثم لماذا التاريخ اليهودي تحديدًا؟! لماذا تبحث في تاريخهم؟! إنه تاريخ معقد وزاخر بالتفاصيل المبهمة إن سألتني عن رأيي، العديد من الأمور تم طمسها على مر التاريخ، الكثير من الجرائم التي ارتكبوها والكثير من المذابح أيضًا التي تمت بحقهم، لا أستطيع أن أنكر هذه الأخيرة أيضًا، في النهاية أنا باحثة تاريخية ويومًا ما سأكون مؤرخة ولا بد أن ألتزم بالحياد».

نظر أدهم إليها طويلًا بشرود، لم يكن يعرف ما الذي يمكن قوله، كان هناك هدوء ثقيل يسيطر عليه، يشعر بأن كل لحظة تمر به هي بمثابة وقت يخرج عن قضبان عمره؛ لأنه يدرك في النهاية بأن قطار العمر سينقلب، سينقلب تمامًا، لن يعود. «أبحث عن.. أبحث عن..»، بدا أدهم مترددًا وهو يواجه ليلى بعينيه الزائغتين، «أبحث عن شيءٍ لا أعرفه، لكنني أبحث عن أمرٍ جدلي لم يكتب عنه أحد من قبل، فكرة قد تكون صغيرة، لكنها لو كُتبت لأصبحت عظيمة».

نظرت ليلى إليه نظرة طويلة محاولة استيعاب ما يقوله، لم تكن تفهم تحديدًا ما يرمي إليه، تركته وذهبت دون أن تنبس بكلمة واحدة، تعجَّب أدهم من تصرفها، شعر بندمٍ، لم يكن عليه أن يُخبرها بكل شيء، لعن نفسه كثيرًا، لقد تركته وحده وسط بحثه المجهول عن هويته، لم تُعره انتباهًا، ماذا بك يا أدهم؟! ليلى لا تفعل ذلك، بالتأكيد ذهبت لغرض ما،

وسط أفكاره المتلاطمة، وجد ليلى في مواجهته وهي تمسك بمرجعٍ قديمٍ باللغة الإنجليزية، «إنه أحد أهم المراجع النادرة التي تتحدث عن الرموز اليهودية، إنه مرجع نادر وجدته بالمصادفة في إحدى أسواق الكتب القديمة بلندن»، قالت ليلى وهي تعطيه المرجع، «إنه يتحدث عن قصصهم وأساطيرهم واعتقاداتهم المختلفة في أمور تكاد تكون مستحيلة أو خيالية، قد لا تفهم معظمها، أنا نفسي لا أفهم العديد من تلك الألغاز، لكن ربما تجد به ضالتك»، وابتسمت.

أمسك أدهم المرجع شاردًا وهو يُلقي نظرة عليه، ظل ساكنًا في مكانه، «ليست المشكلة في البحث»، قالت ليلى، «المشكلة تكمن في إيجاد المكان المناسب للبحث، حاول أن تستريح»، نظر مرة أخرى إلى المرجع نظرة شاردة، حين رفع بصره، لم يجد ليلى، لثوانٍ ظنَّ أنها لم تكن هنا، لم يكن يتحدث لأي شخص، إنه فقط خياله المرهق الذي صنع كل ذلك، فأفكاره المتلاطمة والمشوشة هي ما تفعل، تلهو به، لم يَدْرِ ماذا عليه أن يفعل في هذه اللحظات، ولكنَّ شيئًا واحدًا كان مقررًا بلا إرادة منه، مقررًا مُسبقًا، بأن البحث سيبدأ الآن.

لأنه لا يملك الوقت، لا يملكه على الإطلاق.

الفصل الخامس

كان الهدوء الثقيل والإنهاك يحويان غرفة المكتب التي تسلَّلت إليها أشعة الشمس الناعسة في هذه الأثناء، كان خيطًا من تلك الأشعة يُظلِّل عيني أدهم، أخذ نفسًا طويلًا وهو يُشعل سيجارة حشيش، صوت احتراقها قطع الصمت المريب والثقيل الذي غلَّف الغرفة، لم يكن يفهم العديد من الأشياء التي قرأها في هذا المرجع النادر، المشكلة تكمن في أنه يبحث عن شيء مجهول حتى بالنسبة له، شعر بأنه مجرد مجنون، أو ربما رجل آلمه خبر اقتراب موته فخرج عن قضبان المنطق، الاصطدام بالنهاية وشيك وهو يكره النهايات التي لا تعطي لحنًا مميزًا لا يزول.

نظر إلى المرجع شبه المتهالك أمامه مرة أخرى، قلَّب في صفحاته بلا هدف، اليأس بدأ يسيطر عليه، لم ينم طوال الليل، نظر إلى الساعة فوجدها تدق السادسة وعشر دقائق صباحًا، أخذ نفسًا طويلًا وألقى نظرة جانبية على الكتاب الذي لم ينفك عن تقليب صفحاته، وقعت عيناه على صفحة لم يكن بها سوى كلمات قليلة في المنتصف.

«أربعة أبناء، كل ابن يوجد ببلد، الأب ينتظرهم بجانب المعلم الكبير، لن يُفتح الباب إلَّا باتحاد الأبناء الأربعة، حينها، وحينها فقط سيسمح

الجد بمرور الجميع، حينما يحدث كل ذلك سيكون العبور من الجهل إلى النور، ومن الموت إلى الحياة أمرًا سهلًا، لكنه النور الذي سيُلطِّخ الشوارع بالدماء، سيُرمِّل النساء، سيُيتِّم الأبناء، سيجعل الكره والحقد شعارًا لا استغناء عنه، إنه الميثاق الوحيد على الجريمة التي جعلت من البشر آلهة».

أعاد قراءة الكلمات مرة ثانية وثالثة، وربما عاشرة، كانت حدقتاه الناعستان المنهكتان تتسعان كلما قرأ، لم يكن يفهم أي شيء مما يقرأ، لكنه في جزء منه كان يشعر بأن هناك شيئًا مريبًا وعميقًا يرتبط بما يقرأه، حدسه أخبره بذلك وحدسه لم يكذب عليه يومًا، قلب الصفحة التالية فوجد شيئًا مكتوبًا بخط اليد بلغة لا يعرفها، ربما تكون العبرية، كان مكتوبًا بخط مائل واضح غير منسق.

לכ ןודאה ןקז - ינים

نظر إلى الكلمات وتمنَّى لو يُدرك ما معناها، لم تكن لوحة المفاتيح تحمل هذه اللغة حتى يتسنَّى له ترجمتها، ولكنه لم يأبه لأن ذلك الأمر لن يكون صعبًا على الإطلاق، ولكنه خشي أن تكون ترجمة الكلمات شيئًا قد يجعل المترجم مُتشككًا فيه، لم يخف يومًا، فلماذا الخوف حين النهاية؟! ابتسم ساخرًا من نفسه، شعر بأنه وجد ضالته بشكلٍ ما، في الحقيقة كان متأكدًا وواثقًا من ذلك، فإيمانه الداخلي بأن الإيمان بالأشياء يُحققها كان أقوى من إيمانه بالمعتقدات الدينية التي ظلَّت في حياته صراعًا لم ولن ينتهي حتى الآن، ظلَّت عيناه ثابتتان دون وعي على

الكلمات الأولى محاولًا فكَّ طلاسمها، إنه لغز ما، لغز يحمل في جوفه سرًّا تم إخفاؤه، أغلق الكتاب وهو ينظر إلى العنوان الذي يحمله، «The Salvation»، بما يعني «الخلاص»، لم ينتبه إلى العنوان إلَّا الآن، تعجَّب كثيرًا في نفسه، إنها رسالة مؤكدة من السماء تؤكد له الحقيقة التي يسعى خلفها، الحقيقة التي ستقوده إلى ما يسعى إليه، تؤكد له اعتقاده بالإيمان الذاتي، فقد تحقق حلمه من خلال إيمانه الصلب والعنيد بهذا المبدأ الذي لم ينكسر يومًا، ولم ينكسر حتى في أيامه الأخيرة.

دخلت ليلى المكتب في هذه الأثناء، بشعرها الطويل، ترتدي قميصًا واسعًا من قمصانه الخاصة فقط، حيث ظهرت له رجلاها الطويلتان المصقولتان العاريتان، بدت مثيرة للغاية بعينيها شبه المغلقتين وهي تنظر إليه نظرة ناعسة قلقة، «من أين حصلتِ على هذا الكتاب؟!»، سأل أدهم مبتسمًا، اقتربت منه بهدوء وهي تجمع شعرها الطويل خلف رأسها، «لقد كان مرميًا في وسط العديد من الكتب القديمة، كان حاله يُرثى له كما ترى، استطعت إنقاذه بأعجوبة، في الحقيقة كان البائع سعيدًا بالخلاص منه، أنت تعلم أن إنجلترا تعجُّ بالعديد من باعة الكتب، لقد استوقفني هذا الرجل تحديدًا؛ لأن كل الكتب التي يملكها كانت قديمة، قديمة جدًّا، كما أنني لا أستطيع نسيان هذا البائع بالتحديد، لقد كان يرتدي زي حاخام لجلب النظر، إنها طريقة مجنونة لكنها آتت ثمارها، أعتقد أيضًا أن كل الكتب التي كان يبيعها تتحدث عن اليهود، المذابح التي تمت بحقهم وتاريخهم وما إلى ذلك، لقد استوقفني عنوان هذا

الكتاب تحديدًا، إنه الخلاص، وفكرة الخلاص هي نَسَرة يهودية الأصل إن كنت تبحث عن أصلها التاريخي».

غادرت ليلى الغرفة في هذه الأثناء بعد أن اطمأنت عليه، ابتسم أدهم في نفسه ثم شرد بعيدًا وهو يفكر، لم يكن يدري تحديدًا، مَنْ سيجلب لمن الخلاص؟! هل الكتاب ما سيجلب له الخلاص، أم أنه هو مَنْ سيُخلِّص الكتاب من طلاسمه ليعرضها يومًا ما في رواية لن ينساها أحد، كانت الأفكار الحماسية والخيالات الإبداعية تدب في عقله بشكلٍ يُشبه تدفق المعلومات على جهاز الحاسوب، لم يُعِق الورم حتى الآن ذكاءه، هناك بعض الأورام تزيد من حاسة الذكاء، في الحقيقة تمنَّى أدهم ذلك، تمنَّاه بشدةٍ، لا يهم أن يأتي الموت، المهم أن يأتي عذبًا مُنصفًا.

والأهم من كل ذلك ألَّا يأتي قبل انقضاء المهمة، المهمة الأخيرة.

الفصل السادس

لم يكن أدهم ليُجازف بما يحمله الكتاب، ولكنه أخذ صورة من الصفحة التي كُتب عليها باللغة العبرية كما اعتقد، لم ينم، لم يحاول التفكير في ذلك الأمر، فالنوم الأبدي قادم لا محالة، في الحقيقة لو أخذ الكتاب معه لما تعجّب أحد؛ لأن الموضوع لا يمثل شيئًا لأحد، الموضوع مهم وخطير حقًّا، لكنه كذلك بالنسبة لأدهم فقط، وهذا ما جعله يأخذ هذا الاحتياط الغريب في شيء لا يُدرك أحد كنهه، فحقيقته تكمن في الإيمان الذي بزغ كالفجر مشرقًا في نفس أدهم المظلمة والمتألمة، يرى أن الحياة المنتظرة تكمن في الخلاص الذي عثر عليه، في بارقة الأمل التي تدفعه للحياة، فإن الحياة برمتها تساوي كل شيء حينما يتعلّق الأمر بهدف نرنو إليه، إن لم يكن سيكون الموت شيئًا يستحقنا بكل تأكيد.

وقف على عتبة غرفة مكتب الدكتور أحمد عبد الجواد أستاذ اللغة العبرية في كلية الآداب بجامعة القاهرة، يعرفه حقّ المعرفة، إنه أحد الناقدين اللاذعين لروايته الأخيرة، ولأن الرجل يحمل شيئًا من النرجسية قرّر أن يسأله هو بالذات لأنه في الحقيقة الشخص الوحيد

الذي سيستعرض معلوماته ليبدو كالطاووس المتصر في بيت الدجاج، وأدهم لا يريد أكثر من ذلك.

بعد أن سلَّم عليه وتبادلا التحية وأتى له الدكتور أحمد بالقهوة، شرع أدهم في الحديث عن نيته في اقتحام الحياة والمعتقدات اليهودية في روايته الأخيرة، كان دكتور أحمد مشدوهًا بالحماس الذي يتحدث به أدهم، تعجب قليلًا في البداية ولكنه يعرف جيدًا أنها طبيعة الأدباء المجانين، أما ما جعله مندهشًا بشدة حتى إن ذلك كان باديًا عليه بشكلٍ ملحوظٍ أن أدهم بنفسه هنا، أدهم طلال الذي تبقى أعماله في سرية تامة حتى اللحظة التي يتم نشرها فيها يتحدث بلا أي تحفُّظ عن عمل له ينوي كتابته، ذلك الكاتب الذي وصلت أعماله إلى العالمية وحصد بها العديد من الجوائز المرموقة، يجلس هنا ويتحدث بطلاقة وكأنهما صديقان حميمان منذ فترة طويلة.

وسط أفكار الدكتور أحمد وضع أدهم الورقة المصورة أمامه بشكل جيد حيث تحمل جملته الغامضة:

לכ וודאה וקז - יניס

ارتدى نظارته السميكة ونظر إلى المكتوب، بعد صمت طويل يملؤه التعجب، لم يكن عليه أن يسأل أدهم؛ لأن السؤال كان واضحًا في عينيه اللامعتين رغم الإرهاق البادي عليه بشدة في هذه اللحظات، «إنها لغة عبرية»، قال الدكتور أحمد وهو يفحص الورقة، «ولكنها مكتوبة بطريقة قديمة، ترجمتها: الرجل العجوز- سيناء. ليس أكثر من ذلك».

«هذا كل ما في الأمر؟!»، قال أدهم مندهشًا، «الرجل العجوز - سيناء؟!»، ثم شرد قليلًا حيث كان يتوقع أكثر من ذلك، يمكن أن تكون تلك إشارة لأي شيء آخر لا يتعلّق باللغز الذي قرأه هذا الصباح، أفكار متلاطمة مرت بمخيلته وهو ينظر في الفراغ أمامه، لم يكن يعرف ما عليه فعله، الأحداث هي ما تُحرِّكه الآن وليس هو مَنْ يُحرك الأحداث كما تعود خلال حياته، بدا الأمر له لوهلة منفرًا ومؤلمًا، فدور القائد الذي عاشه طوال حياته شرع في الاختفاء أمام ذلك الشيء غير المفهوم، «هل هناك خطب ما بأمر هذه الورقة؟!»، سأل دكتور أحمد وهو يخلع نظارته، «أعتقد أن الأمر يهمك بدرجة كبيرة، يبدو ذلك عليك، اعذرني على تدخلي ولكن بصراحة الأمر يدفع للفضول».

«لا»، قال أدهم شاردًا، «لا شيء ولكنني وجدت تلك الجملة كما ترى مكتوبة بخط اليد في كتاب يتحدث عن اليهودية وأنا ببساطة لا أطيق المجهول»، لم تكن كلماته مقنعة، هزَّ دكتور أحمد رأسه دون أن ينبس بكلمة، حينها علم أن أدهم لا يود إخباره بأي شيء، «لكن ماذا تعرف عن التاريخ اليهودي؟!»، قال أدهم بطريقة مفاجئة.

«التاريخ اليهودي زاخر بالتفاصيل، ممتلئ بالأسرار»، قال دكتور أحمد بعد ثوانٍ وهو يعود بخيلاء مُتكئًا على كرسيه، «البحث فيه متعة، مثلًا لو تطرَّقنا للأساطير اليهودية، ستجدها بشكلٍ عامٍّ عبارة عن قصص مقدسة وتقليدية تساعد على التفسير وترمز إلى الدين اليهودي، بينما الفُلكلور اليهودي يتكون من الروايات الشعبية والأساطير الموجودة

في الثقافة اليهودية بشكلٍ عام. وهناك القليل جدًّا من الفلكلور الشعبي الذي يتميز عن أدب الآقداة، أي قصص الإسرائيليات، والذي يتضمَّن مواضيع كثيرة، بدءًا من القصص العامة وقصص المدح والكمال، وانتقاء الكلمات والحكمة والأخلاق، وبالرغم من ذلك، بقيت الأساطير والفلكلور الشعبي، وانتشروا بين الشعب اليهودي في كل عصور تاريخه، هناك العديد من الأشياء التي ستأخذك للا شيء، فأساطيرهم واعتقاداتهم الغريبة لا تنتهي، ستجدها منشورة في العديد من الكتب المفسرة بطرق مختلفة؛ لذلك وُجد علماء الرموز والمحللين الذين يملأون العالم الآن للبحث في تاريخهم الممتلئ بالدماء والخيانة قبل أي شيء ولكن دعنا لا ننكر أيضًا (التناخ) - الكتاب المقدس اليهودي- هي النصوص التأسيسية اليهودية، وتحتوي على كل المعلومات اليهودية المقدسة منذ الخلق إلى الاستقلال وضياع السيادة، بما في ذلك التدخل المباشر للرب، طقوسه، قوانينه، متطلبات الطقوس، المعجزات الموجودة في التوراة، وقيمة التاريخ الكبير والجلي للشعب الإسرائيلي الذي تعقَّب تواريخ اثنتي عشرة قبيلة إسرائيلية حتى آدم وحواء. وفي حين أن الغالبية العظمى من الأساطير العالمية حدثت قبل بداية تدوين التاريخ للمجتمعات، فإن الجزء الأكبر من تناخ هو سجل مكتوب مزعوم من التاريخ اليهودي، مع جزء صغير فقط مخصص لفترة ما قبل التاريخ اليهودي»، أخذ نفسًا طويلًا ثم أشعل سيجارة، «وحيث إن التناخ لا يحتوي على كمية مهمة وعظيمة من المعلومات التي يمكن أن يُقال عنها إنها روايات مقدسة، إلا أنه يحتوي على كمية كبيرة من المعرفة ذات القيمة العملية في التطبيق

الصارم مثل: قوانين البناء، وتعليمات عن النظافة والنظام الغذائي، والمالية، ومعايير القياس، وغيرها، على سبيل المثال سِفر إكسوديس 1:21-19:23. سِفر اللاويين 1:6-7; فصول 11-5; 10:17-16; 1:18-27:20; فصل 25; فصل 27. أرقام فصل 30. سِفر التثنية فصول 14-15 و 17 و 19-25. 1 صاموئيل 18:30-25. كتاب الأمثال. سِفر حزقيال 1:45-17. سِفر ملاخي 13:2-16. ولا يمكننا أيضًا أن ننكر أن جرائمهم جعلتهم ضحايا في وقتٍ من الأوقات، لكن لا يمكنني أن أجيب عن سؤالك لأنه سؤال عام، عليك أن تسألني عن رمز معين أو حقبة معينة من تاريخهم حتى يمكنني الإجابة».

أومأ أدهم برأسه محاولًا بقدر الإمكان احتواء هذا الكم من المعلومات، وبعد قليل انطلق في طريقه وهو لا يدرك ماذا عليه أن يفعل، لم يحاول أن يتطرق إلى الموضوع بشكل أكبر من ذلك، شعر بالإحباط الشديد لأنه لم يجد ضالته بين كلمات المُعلم النرجسي ولكنه في جزء منه كان يحمي الأمل المتبقي.

لم تعلم ليلى حقيقة تحول زوجها في هذه اللحظة وهو يجلس شاردًا أمام نفس الكتاب التي أعطته له، لم يكن هناك شيء واضح على ملامحه تستطيع من خلاله أن تصل إلى ما يفكر فيه أو يجعله مهتما بالموضوع إلى هذا الحد، شيء ما في جوفها أخبرها بأن الموضوع لا يتعلق بمجرد رواية ستضيف له على المستوى الأدبي، وقفت في مواجهته وهي ترتدي قميص نومٍ قصيرٍ أسود، أضفى عليها أنوثة طاغية، مع نهديها العاريين

تقريبًا والبارزين أمامه، كانت هناك رغبة جموح تهاجم جسده كجيش همجي ولكن لم يستسلم لها؛ لأن الاستسلام في هذه اللحظات سيُعيق الطريق المؤدي إلى الهدف، إلى الخلود المنتظر، إلى رحلة ربما ستنتهي بما يريد وربما لا، وتلك الأخيرة لم يحاول لمرة التفكير بها، نظرت إليه نظرة طويلة وهي تحاول إثارته بطريقتها الفاتنة وحديثها الرقيق الملتهب عن وحشتها له، رفع رأسه، «ماذا تعرفين عن الأساطير اليهودية؟!»، قال أدهم بطريقة مفاجئة، «أحاول الوصول إلى شيء ما»، أومأت ليلى برأسها مبتسمة ثم اتجهت إلى الكرسي خلف المكتب الذي يجلس عليه، وجلست على حجره وهي تضع يدها خلف رأسه وتُقبّله قبلة قصيرة رقيقة على شفتيه، «هناك العديد من الأساطير.. مثلي أنا مثلًا»، وابتسمت ابتسامة عذبة، «لكن دعني أقل لك إن هناك العديد من الأساطير مثل أسطورة اليهودي التائه مثلًا»، فتح أدهم عينيه بطريقة تعكس عدم فهمه، ابتسمت مرة أخرى «كثيرون هم أولئك الذين يقولون إن اليهودي التائه بطل أسطورة من الأساطير، ولكن المؤرخين والكتاب أجمعوا على أن قصته ليست خيالًا قط، بل هي حقيقة واقعة، وإن اختلفوا في مدى حياته وعذابه وتشرُّده والأيام والأعوام والأجيال التي عاشها، وهل قضت عليه الأقدار حقًّا بالحياة الدائمة المتجددة يقضيها مشردًا ضالًّا بين مشارق الأرض ومغاربها رمزًا للَّعنة الأبدية؟! ذكر المؤرخون تاريخه وقصته ووُجدت سجلات في بلدان كثيرة أثبتت أنه ظهر فيها بعض الوقت في أجيال وصور متباينة.

تبدأ الحكاية تحديدًا حين قالوا إن جبل الزيتون المُطل على القدس كان يموج بزرافات من القوم كلهم يحيطون برجلٍ ترتفع فوقه هالة من النور، وكان الضجيج والصخب والصراخ يملأ المكان ويتحرَّك مع حركة ذلك الموج الزاخر المنطلق في طريقه إلى أورشليم، وبلغ القوم قاعة المحكمة حيث أرادوا أن ينتهوا من الأمر الذي بيَّتوا النية عليه سريعًا، وفي داخل القاعة نصبوا قضاتهم، قضاة رتَّبوا أمورهم وحددوا حكمهم قبل سماع أي شيء داخل المحكمة، ولم يكن ثمة دفاع، فقد كان كل ما يريدونه أن يصلبوا السيد المسيح لينتهوا من أمره. ومضت ساعة، وانتهت القصة التي أرادوها وحاكوا خيوطها، واجتمع اليهود الذين ملأوا القاعة وراحوا يجرون السيد المسيح من قاعة المحكمة ليسوقوه إلى نهاية القصة التي تمنَّوها منذ البداية، وبينما هم يمرون من باب القاعة تعثَّر السيد المسيح على عتبتها حيث وقف «كارتا فيلوس» اليهودي حارس الباب، وبكل وقاحة انحنى ودفع السيد المسيح ولَكَمَه على ظهره بقبضة يده وهتف ساخرًا: أسرع، لماذا تتمهل؟ فالتفت له السيد المسيح ونظر إليه نظرة قاسية وقال في هدوء: «سأذهب سريعًا، أما أنت فستبقى»، ومنذ تلك اللحظة انصبَّت اللعنة على كارتا فيلوس، فقد ارتفع السيد المسيح سريعًا، أما هو فبقي طويلًا، وطويلًا جدًّا؛ ليكون رمزًا للإثم الأكبر الذي ارتكبه اليهود في ذلك اليوم وما تلاه من أيام، إنها إحدى الأساطير الشهيرة التي أؤمن بها».

صمت أدهم للحظات وهو مستمتع بما تقوله ليلى، فقد كان يحب طريقتها في عرض المعلومات التاريخية، «كنت أعتقد أن الفترة التاريخية لصلب المسيح لم تكن مؤرخة».

ضحكت ليلى وهي تنهض من مكانها، «هل تعتقد يا أدهم أن فترة كتلك لم تُؤرَّخ؟ بالتأكيد تم تأريخها ولكن لا أحد يعلم الحقيقة كاملة، بمعنى أدق الحقيقة القاطعة لهذه الجريمة البشعة التي تحوّل على إثرها شكل العالم، فبدلًا من أن يصبح السيد المسيح خلاصًا لبني إسرائيل، أصبح خلاصًا للبشرية، بفضل جريمتهم التي هي في الأساس من أجل محو سيرة السيد المسيح»، صمتت للحظة وهي تفكر، حيث جاءت بمرطِّب بشرة كان موضوعًا على أحد الأرفف في غرفة المكتب، ووضعت رجلها اليمنى فوق الأريكة المقابلة للمكتب، ثم شرعت في تدليكها بالكريم، «التاريخ مغلوط، الحقيقة القاطعة كما ذكرت لك، لا أحد يعرفها تحديدًا، لكنني واثقة من أن التاريخ الحقيقي في مكانٍ ما، دومًا ابحث عن المستفيد من إخفائه، كأي تاريخ دموي، ستجد أن المنتصر دومًا حوَّله لصالحه، فكما يقولون، إن التاريخ كذبة اتفق الجميع عليها، لكن السؤال: ما الذي تبحث عنه داخل الأساطير؟!»

صمت أدهم شاردًا فيما تقوله، «هل قرأتِ الكتاب؟!»، قال أدهم بفضولٍ، «ألم تلاحظي شيئًا غريبًا فيه؟!»

«الكتاب ممتلئ بالغرائب والأساطير، لم يدهشني في الحقيقة شيء، إنه يحتاج إلى بحثٍ طويلٍ خلف كل أسطورة، والتي بدورها ممتلئة

بالألغاز، أعتقد أن من كتبه يحاول اللعب بعقولنا مستخدمًا الفضول الذي لا غنى لنا عنه، فالفضول دومًا إما يؤدي إلى الجنون أو إلى المجد، وفي النهاية أستطيع أن أقول إن هذا الكتاب مادة خصبة للأعمال الأدبية، ولذلك استعنت به حينما سألتني عن نيتك للبحث عن شيء لم يكتب أحد عنه من قبل».

فتح أدهم الكتاب ووضعه في مواجهتها، اقتربت منه وقرأت المكتوب، ثم ابتسمت وهي تميل برأسها على الكلمة المكتوبة بالعبرية وهي تترجمها له، تيبَّست عين أدهم تجاه ليلى وأشعل سيجارة وزفر دخانها بقوة، كيف ينسى أنها تدرس العبرية من أجل أبحاثها؟! «إنها أسطورة تحكي عن شيء عظيم»، قالت ليلى مفكرة، «ولا أعلم تحديدًا عن ماذا تتحدث! لكنني أؤكد لك أن الخيط يبدأ من سيناء، ولكنك للأسف لم تنتبه، فجملة الرجل العجوز - سيناء تعني هنا، شيخ القبيلة، مَنْ كتبها أظن أنه ترجمها ترجمة حرفية، يبدو أن المترجم غير عربي، أجنبي بمعنى أدق، إن أردت أن تتبنى تجربة مجنونة فيمكنك أن تبحث خلف أكبر رجل في قبيلة داخل سيناء، هناك ربما تجد الإجابة وربما لا نجد شيئًا، لكن لا يوجد أمامك خيار آخر، هذه نصيحتي لك».

مشت ليلى تجاه باب الغرفة ثم استدارت له فجأة وهي تقول: «أدهم، البحث خلف المجهول يقود إما للجنون أو للموت، كُن حذرًا، لا أنوي خسارتك الآن».

ابتسم ابتسامة غامضة مؤلمة وهو ينظر لها نظرة طويلة غامضة أيضًا، نهض من مكانه واقترب منها، لم ينتظر، لم يتودَّد، قطع قميصها بقوةٍ وقبَّلها بغضبٍ وشهوةٍ متملكةٍ منه وكأنه ينتقم من شيء ما، أو كأنه توصَّل لشيءٍ ما والفضل يعود لها، كانت قوته في تطويق جسدها لها أثر قوي ما جعلها تئن بين يديه من فرط المتعة والألم، مارس معها الحب على المكتب الذي أزاح من عليه كل شيء حتى الكتاب، كانت رعشته الأخيرة تثبت له تشبُّعه بالحياة التي ما زالت تنبض فيه، لم يكن حاضرًا في ذهنه شيء سوى رمال سيناء وعرق جسد ليلى العاري الذي أشعره بالبرودة الممتعة التي سرت في أنحاء جسده.

الفصل السابع

بعد يومين من البحث عن أكبر رجل في قبائل سيناء بمساعدة المقربين من أدهم وبمساعدة والد ليلى الوزير مصطفى الحسيني توصَّل أدهم إلى مكانه، كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يذهب إليه، لم يكن يعرف ما عليه أن يفعل، أن يقول، هل يقف في مواجهته ويبدأ في عرض حياته وما توصَّل إليه؟! بالطبع سيعتبره الرجل مجنونًا، يتميز هؤلاء الرجال في الصحراء بالحكمة التي اكتسبوها من حرارة الشمس الحارقة والطقوس التي طالما حافظوا عليها رغم اختلاف وتطور كل شيء في وقتنا الحالي، حاول تصور المشهد مرات كثيرة، ما سيقوله وعليه أن يختاره بعناية ليصل إلى مراده الذي لا يعرفه.

انطلق في رحلته إلى شمال سيناء حيث الوصف الذي حصل عليه، استعان بسيارته ذات الدفع الرباعي الفارهة في رحلة طويلة عبر رمال الصحراء، كانت المناظر التي تقابله تدفعه دفعًا للأمام، الصحراء لا توحي بشيء سوى المجهول، المجهول دائمًا مخيف ومنفر، الشمس الساطعة المطلة بتحدٍّ أمامه تقوده نحو الجنون مع أفكاره التي لم تكن في الحقيقة أفكارًا، بل مجرد «هلاوس»، لم يتوانَ عن شرب الحشيش

الذي لعب برأسه خلال الرحلة، عن وقوفه في بعض الأحيان ونزوله من سيارته على جانب الطريق وهو يتأمل المساحات الشاسعة من الرمال الذهبية التي تحتضنها الصحراء، فكر في كل كلمة قالتها ليلى له، عن الأسرار، عن ذلك اليهودي التائه، شعر في جزء منه بأنه لا يقل عن ذلك اليهودي في شيء، فهو تائه داخل نفسه، تيهة مؤلمة أفقدته الحياة، ربما سيظل تائهًا في العالم السفلي بين الأموات يبحث عن هويته الحقيقية رغم ما وصل إليه، سينقلب من على حافة العالم ليسقط في الجحيم كما سقط غيره ممن بحثوا ولم يجدوا شيئًا، ممن فعلوا وفي النهاية اكتشفوا أنهم لم يفعلوا شيئًا، بمعنى أدق لم يقوموا بمهمتهم التي جاءوا من الأساس بسببها إلى هذه الحياة، يؤمن تمامًا بأن لكل فرد في هذا العالم مهمة معينة عليه تنفيذها، وإن لم يفعل، سيقف مواجهًا لرمال الصحراء وشمسها الحارقة كما يقف الآن، ينتظر في صمت الجحيم، أو ربما ينتظر في ثورة الجحيم، لا يهم، في النهاية لا يهم شكل الانتظار فهو أمر مرير مؤلم، ستكون الأنفاس الباقية له مجرد ألم متكرر ظالم، ستكون الأنفاس بطيئة من فرط خيبة الأمل، لكن هناك دومًا ما اسمه الفرصة التي تعقب الفرصة الأخيرة، ما بعد الأخيرة، إنها الفرصة التي يمنحها لنا القدر، يمنحها لسببٍ ما، يدرك جيدًا أن المسألة كلها ليست مجرد صدفة، فالموت الذي يدق الباب لا يدقه لغيره، الموت لا يستأذن، لا يعطي إنذارًا قبل وصوله إلى محطته، إنه المقتحم الغازي الذي لم يخسر أبدًا معركة طول حياته الأبدية، لكنه في هذه الحالة أرسل له مذكرة بسيطة، «سيد أدهم، أنا قادم إليك خلال سنة، أرجوك نفذ المهمة؛ لأنني

ببساطة تامة لا أنتظر، لا أعطي فرصًا بديلة، كن على يقين من ذلك»، لقد وصلت الرسالة وفهمها أدهم، وقليل هم مَنْ يفهمونها، لكن بقي السؤال المؤلم، ماذا على المرء أن يفعل بعد وصول هذه الرسالة المرعبة؟!

كان هناك طفل صغير يقف في مواجهته بعد مرور ساعات طويلة من السفر، لم يتوقف أدهم سوى للتأمل أو من أثر التعب، أحيانًا أخرى كان يتوقف من أجل الحشيش أو تناول بعض المسكِّنات، في الحقيقة كان مُسكنًا واحدًا ما يمنحه الهدوء، «تامول»، نظر إلى الطفل الذي يلوح في عينيه لون الشمس وفي بشرته سمرتها، كان أثر الحشيش والتامول يعملان برأسه بشكلٍ كبيرٍ، كانت قدماه شبه مخدرتين، ينظر من آنٍ لآخر بعيونٍ زائغةٍ حول الطفل ليتفقَّد المكان القاحل المترامي على أطراف الصحراء المحافظة بدقة متناهية على الصورة البدوية القديمة، أمسكه الطفل الذي لا يتعدَّى عمره سبعة أعوام - بجلبابه الأبيض المميز ذي الأكمام الواسعة - من يده ومشى به دون أن يتحدث إليه، ترك أدهم نفسه للطفل، تجمع العديد من الأطفال حولهما وهم ينظرون إلى الغريب نظرات فضولية يتبادلون الابتسامات والحركات الشقية، ابتسم أدهم لهم ابتسامةً بلهاء، بطبعه كما ذكرنا لا يحب الأطفال، لكنه مع الانتشاء الذي يسيطر عليه لم يكن يفكر في هذا الأمر على الإطلاق، ظهر رجل طويل، نحيل، ذو ملامح حادة، يرتدي سترة سوداء فوق جلبابه الأزرق الداكن، نظر إلى أدهم نظرة طويلة متفحصة من رأسه حتى أخمص قدمه، اقترب منه ثم نظر للأطفال نظرة ذات معنى، تفرَّق الأطفال وابتعدوا بسرعة،

«أهلًا وسهلًا بالضيف»، قال الرجل بصوته العميق الذي يشبه صوت الصحراء الغامض المخيف، أومأ أدهم برأسه دون أن يجيب وقد اعتراه بعض القلق، «اسمي خلفان، خادم الشيخ غانم كرَّم الله رأسه وأطال عمره»، قال الرجل وهو يشير إلى خيمة كبيرة تبعد خمسين خطوة وسط خيام متعددة، كان المكان مكتظًا بالعديد من الماشية كالأغنام والبقر وكذلك الماعز والجِمال، ولفت انتباهه وجود بعض الجياد العربية التي لم يشك للحظة بأنها جياد أصيلة، كانت النساء موشَّحات ومتدثرات في ملابسهن البدوية لا يظهر منهن سوى القسوة في ملامحهن رغم جمالهن النادر الذي لم يتذوقه لمرة في حياته، أطاح بتلك الفكرة من رأسه في هدوء وهو ينظر إلى أحد الشباب الذي كان ينظر له في هذه اللحظة بقسوة لم يعرف سرَّها، نظر أمامه مرة أخرى وهو يسير خلف خلفان ثم نظر بلا إرادة مرة أخرى بنظرة جانبية تجاه الشاب الذي وجده مُسمرًا عينيه عليه بشكل يجلب الدهشة والخوف معًا .

حينما وصلا إلى باب الخيمة، توقف خلفان ثم استدار إلى أدهم، «الشيخ غانم»، قال خلفان بنبرة تحذيرية، «انحنِ له بمجرد دخولك، لقد أخبرنا بأنك قادم اليوم، لا تتحدث إلا عندما يتحدث، وإن أردت أن تُدخِّن فلا تدخن إلا عندما يأمرك بذلك».

نظر له أدهم نظرة طويلة ممتلئة بالدهشة لم تكتمل لأنه غاب عن عينيه ودخل الخيمة حيث أشار له بالانتظار، «يعرف بأنني قادم اليوم؟ مَنْ أخبره؟!»، ولم تكتمل أفكار أدهم حتى خرج خلفان من الخيمة وهو

يشير له بالدخول، وقف أدهم على عتبة الخيمة وكأنه يستجمع أنفاسه، لم يعلم سر الرهبة التي تملَّكته في هذه اللحظة، أخذ نفسًا عميقًا بعد ثوانٍ قليلةٍ من التفكير، ثم دلف إلى الخيمة، لم يكن أدهم على علم تمامًا بأنه، وفي مكان آخر، كان هناك شيء يتم إعداده، شيء ربما سيغير مجرى كل شيء.

الفصل الثامن

كان الماء المنصب يبدو للناظر بلون أحمر، في الحقيقة لم يكن كذلك ولكنها أشعة الشمس المنعكسة على الزجاج الأرجواني المميز الذي بدوره انعكس على لون المياه المستقر في كوب الماء الكبير الذي يشبه الكأس، كانت عينا الرجل العجوز معلقة عليه بشرودٍ غريبٍ، لم يكن في الحقيقة مجرد رجل عجوز، هو العبد العظيم، الحكيم، حامل الأسرار، الصدر الذي يفر له الجميع، حامل التاريخ حتى وإن كان ذلك التاريخ مزيفًا، الأفكار السوداوية تحوم بعقله، ترتكز وتضغط عليه بشدة، تجعل لتنهيداته صوتًا مُقلقًا وأليمًا ولحركة عينيه أسئلة لا تنتهي.

كان الرجل قصير القامة، حليق اللحية، ذا عينين زرقاوين غائرتين، أصلع تمامًا، يبدو رأسه لامعًا بشكلٍ مثيرٍ مع انعكاس أشعة الشمس عليه، مقوسًا قليلًا، له بشرة خمرية تضفي عليه نوعًا من الرهبة الغريبة، يرتدي بدلة صوفية قديمة تعود إلى خمسينيات القرن، يلف حول رقبته سلسلة ذهبية وقد عُلِّق بها مفتاح على شكل شمعدان سباعي ولكن جزءه السفلي أطول من العلوي بينما يتساوى جانباه الأيمن والأيسر، لم يكن من عاداته أن يرتدي على مثل هذه الصورة وخصوصًا في هذا المكان،

المكان المقدس للجميع الذي طالما لمَّ شمل مجموعته القديمة منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، التطور الذي نشأ على المكان لم يفقده هيبته ولا مكانته، لكن مجموعة صغيرة جدًا من ضمن الجميع هي فقط التي تعرف سر وتاريخ هذا المكان الذي يوجد في الطرف البعيد من وسط إنجلترا، تحديدًا في لندن عاصمة الضباب، الحضارة القديمة، الحروب والصراعات، الأساطير والأمنيات والحكايات في أقصى سفوح الجبال وحول المدفأة في ليالي الشتاء الكئيبة الزائرة على الدوام، الآلام واللهو والعبث، كل ذلك يجتمع في هذه المدينة الشمطاء، المدينة التي لم ولن تنتهي الحكايات عنها.

دخل عليه رجل أربعيني يرتدي زيًّا أشبه بزي الرهبان، أسود طويلًا يغطيه من رأسه حتى أخمص قدمه، لا يظهر من وجهه شيء سوى الجزء السفلي من وجهه بداية من أنفه لأنه غطَّى رأسه بنفس الطريقة التي يغطي بها الرهبان رؤوسهم، كان طويل القامة، نحيلًا بشكلٍ مثير، وكان القلق والألم في نفس الوقت باديين عليه، لم يتفوَّه بكلمةٍ لكنه وقف في مواجهة الحكيم العجوز دون أن ينبس بكلمة، يُدرك تمامًا أن العبد العظيم يعلم ما يجول في رأسه، ما يعتمل في صدره من ألمٍ وخوفٍ لا ينتهيان.

نظر إليه الحكيم نظرة خاطفة أدرك من خلالها كل شيء، لكنه على الجانب الآخر لم يكن يدري تحديدًا ماذا عليه أن يقول، جماعة مسالمة ماذا عليها أن تفعل أمام ما يحدث؟! إلى أين يتجه العالم بتقلُّباته المجنونة والسريعة كقطارٍ سريعٍ مات سائقه؟! لم يتوقَّف ولن يتوقف إلا

في وسط كارثة سيضيع جراءها الكثير والكثير من الضحايا، التاريخ لا يتحمَّل المزيد من الضحايا، يكفي التاريخ ما امتلكه على صفحاته من دماء، ليته ذكر الحقيقة، فالحقيقة مؤلمة لتلك الدرجة التي لا يمكن أن يتحملها أقوى قلب لشخص على ظهر هذه الأرض، فليس هناك ما هو أكثر سفالة من كتب التاريخ، في الحقيقة ليس هناك ما هو أكثر قبحًا من الماضي البغيض الذي يُبرر جرائمه باسم المستقبل.

«الله وحده يعلم إلى أين ستؤول الأمور أيها الواعظ»، قال الحكيم برنة صوته الضعيفة المميزة والحكيمة أيضًا، يملك صوتًا له رهبة تدعمها الحكمة، «الله وحده عليه أن يتصرف بحكمته، لا نعرف شيئًا وكل الجهود التي بذلناها خلال الفترة الأخيرة لم تصل بنا لأي شيء، نحن مجرد جماعة مسالمة، لا أعرف كيف استطاع أحدهم أن يصل إلى كل ذلك؟! كيف استطاع أحدهم أن يخترق هذا السر الذي يعود إلى مئات ومئات من السنين، فالحكمة التي يريدها الله هي أبلغ وأعمق مما نتصور، أعلم ما يدور في ذهنك، لكن الوصول إلى الأبناء ليس بتلك السهولة التي تتخيلها، أنا بنفسي لا أعرف السر كاملًا، ربما أعلم الطريقة، أعلم ما يؤول عنها، لكن هناك شيء لا يستطيع إنسان أن يعرفه، لماذا ظل السر سرًّا حتى هذه اللحظة؟! أظن أيضًا أننا لا يجب أن نولي الموضوع كل هذه الأهمية، فالعالم لم يكن كالسابق، لن تحركه الحقيقة كثيرًا، فإن البشر بطبعهم يكذِّبون كل شيء يعارض إيمانهم حتى وإن كان ذلك الشيء بيِّنًا واضحًا وجليًّا كالشمس، الخوف وحده هو من يملك هؤلاء وأعتقد أن لدينا معنًى آخر للخوف».

ذُهل الواعظ مما سمعه، «إن هذا السر ليس مجرد شيءٍ حافظنا عليه طوال هذه السنوات»، قال الواعظ بصوتٍ بدا عصبيًا: «أجيال آمنت به حتى هذه اللحظة، توارثته في صمت واحترام حتى جاء إلينا، إنها مسألة حياة أو موت، أنت تدرك ذلك جيدًا، تُدرك أن ظهور تلك الحقيقة سيودي بكثيرين إلى الهلاك، سيقلب العديد من الأمور على عكسها، سيضيع إيمان جماعتنا لمجرد أن هناك مجنونًا يجول في هذا العالم».

أشار الحكيم بيديه أن يهدأ، «عليك أن تعلم أن الله يختار ما يختار، يقرر ما يقرر، علينا فقط أن نمتثل لأمره، فكر أولًا لماذا يحدث ذلك حتى نستطيع أن نصل لإجابةٍ قبل فوات الأوان، أخبر الجميع بالتجمُّع هنا، لقد أخبرني الشيخ بشيء جعلني مُتحيرًا، يعتقد أنه المنتظر»، أشار الحكيم بيده بإيماءةٍ تأمر الواعظ بالصمت حينما حاول الاعتراض، «علينا أن نضعه صوب الاختبار لنتأكد، عليه أن يتخلَّص من خطاياه وعلينا مساعدته، فوحده فقط مَنْ يحمل النور في جوفه هو مَنْ سيصل إلى فكِّ اللُّغز ومعرفة كل شيء، لقد خُدعنا من قبل في رجل آخر، لم أنسَ ذلك، لكن أنت تعلم أن النبوءة تقول»..

«لا يهم ما تقوله النبوءة»، قال الواعظ مُعترضًا.

نظر الحكيم نظرة طويلة هادئة في عيني الراهب فأومأ برأسه احترامًا وانصرف بخطواتٍ وئيدةٍ وكأنه يجرُّ قدميه، نظر الحكيم من خلال الزجاج نحو الشمس، شرب جرعة من الماء ثم ابتسم ابتسامة باهتة..

«الله وحده يعلم الحقيقة، إن كان علينا أن نعرفها فسنعرفها».

الفصل التاسع

جلس أدهم حيث أشار إليه الشيخ غانم بعد أن انحنى له، كان يجلس في مواجهة باب الخيمة، في الركن البعيد منها على الأرض فوق وسادةٍ كبيرةٍ بلون مُقلَّم ما بين البني والأحمر الغامق، له لحية طويلة ناصعة البياض، ووجه أبيض مستدير، وعينان سوداوان حادَّتان تُشبهان عيني الصقر، وضح من جلسته أنه صاحب بنية قوية رغم عمره الذي يزيد ربما على ثمانين عامًا، يرتدي شالًا صوفيًا حول عنقه وعمامة صغيرة فوق رأسه، الغموض يلفع وجهه مع تلك التجاعيد التي رسمها الزمن بحرفية على ملامحه، كل ذلك أضفى عليه نوعًا من الرهبة الغريبة، لم تكن رهبة ناشئة فقط من شكل الشيخ المميز، ولكن من تلك النظرات التي تحمل العديد من المعاني، تلك المعاني التي لم يفهمها أدهم رغم معاشرته طول حياته للعديد من الشخصيات الغريبة، ورغم البلدان والأماكن العديدة التي مرَّ بها وتعلَّم منها أشياء لم ينسها ما دام حيًا، حاول أدهم بقدر الإمكان تجنُّب النظر في عيني الرجل الحادتين اللتين شعر للحظة بأنهما تنقبان في داخله بلا أدنى تردد أو عائق.

«أهلا بك يا بني»، قال الشيخ غانم بهدوء، كانت نبرة صوته العجوز هادئة مميزة تجلب الطمأنينة في النفس، «لقد كنت أعلم بقدومك، لا تسأل إلا الأسئلة الواجب سؤالها، أعلم أنك ذكي كفاية لتتفهَّم قصدي؛ لذلك لن أشعر بالإرهاق معك كهؤلاء الذين يُشبهون البهائم ويجوبون العالم تحت أسماءٍ آدمية».

شعر أدهم لوهلة بالتعجب وهو ينظر إلى الرجل ويتابع كلماته، «لا أدري كيف علمت بقدومي»، قال أدهم وهو يشير بيده، «لقد بحثت عن قبيلتكم لمدة طويلة، أعتقد أنكم تعيشون في منأى عن العالم كله، لكن كل ذلك لا يهمني، لقد جئتك من أجل أمر مهم»..

رفع الشيخ رأسه حيث كانت هناك في وسط الخيمة مبخرة كبيرة تفصل بينهما، لم يكن هناك أيضًا سوى فرشة من جلد الأغنام على جانب الخيمة الكبيرة، ويبدو أنها فراش الشيخ، وبعض الوسائد التي يمكن الجلوس عليها في المكان الذي يجلس فيه حيث كان يجلس هو بنفسه على إحداها، بينما فرشت الخيمة بالكامل بنوع من أنواع السجاد اليدوي المعروف باسم «الكِلِيم» المصنوع من صوف الماعز الطبيعي، والمُطعَّم بوبر بطن الجمل في بعض القطع، والمُقلَّم بألوان مختلفة، نظر إلى أدهم وابتسم ابتسامة خفيفة، «إن التسرعِ ليس مطلوبًا في مهمتك هذه، هناك العديد من الأشياء التي يجب التخلُّص منها، إنها نفسك أولًا يا بني، نفسك التي تزمجر كحيوانٍ، وتتأوَّه كفريسةٍ، وتثور بلا رادعٍ أو وازعٍ لها، رحلتك تحتاج للتهذيب أولًا، أعتقد أنك ستتعب كثيرًا إنْ لم

تفعل ذلك، ستتعب حد الموت الذي ينتظر بالقرب منك، قريب بشكل مدهش لا تتخيله».

اندهش أدهم من كلمات الشيخ وقد جحظت عيناه، لا يوجد شخص في هذا العالم يعرف حقيقة موته سواه، فكَّر في العديد من الأشياء، لم يكن يدري ماذا عليه أن يقول، ابتسم الشيخ وهو ينهض من مجلسه ثم سار خطوتين ثابتتين متوسطًا الخيمة، «الموت ليس كما تعتقد يا بني»، قال الشيخ وهو ينظر له، «إن الموت يعيش داخلنا كالحياة، لكنه رهن الانتظار حتى يأتي موعده ليمنح أجسادنا النوم الأخير، إنه يتغذَّى على كرهك لنفسك، على كل خطيئةٍ ترتكبها، على كل غضبٍ يخرج منك، الموتى كثيرون في هذا العالم، ربما أكثر من الأحياء، أتعرف عددهم؟!»، وابتسم.

لم ينطق أدهم، «إنك أحدهم وهذا كل ما أعرفه»، قال الشيخ وهو ينظر له متحديًا، «هناك أيضًا الأحياء الذين ماتوا، لكنهم بصدقٍ ما زالوا أحياء، بكل حكمة تركوها وكل إرث غيَّر شكل العالم ونظرته السوداوية، هؤلاء قليلون، أما البقية ففانون بكل أسف، إنك تبحث وهذا شيء جيد، الأهم من كل ذلك، لماذا تبحث؟! إن كنت تريد ذلك من أجل مجد شخصي فهذا لا يهم، بصدق لا يهمني، واجبي هنا هو الوعظ، أن ترى شيئًا فيك لم تره من قبل، أتمنى ذلك»، صمت الشيخ قليلًا وهو يجلس مرة أخرى، «لماذا أنت هنا يا بني؟!»

أخرج صفحة الكتاب من جيب سترته بهدوءٍ بعد أن ألقى نظرة طويلة شاردة على الشيخ، وأعطاه الورقة، ابتسم الشيخ، لم يمد يده ليلتقط الورقة، «لم أكن أدري أنك أعمى»، قال الشيخ مبتسمًا، «إنني أعمى، ألم تلاحظ ذلك؟!»، اندهش أدهم وهو يعود بجسده قليلًا إلى الوراء، لم يلاحظ أنه أعمى! لم تبدُ عليه طريقة العميان حينما يتحدثون وهم ينظرون أمامهم بطريقتهم المعتادة، لم يتعثَّر أو يتحسس طريقه، عيناه ثابتتان عليه أينما تحرك، «يمكنني أن أقرأ لك الورقة»، قال أدهم بهدوء.

«لا أريد أن تقرأ أية أوراق»، قال الرجل معترضًا بابتسامة، «الأوراق لا تهم، الأهم أن تقرأ ما في قلبك، قلبك هو الشيء الوحيد الذي يجب قراءته، هو الدليل الوحيد والانعكاس المقبول لما يدور في عقلك، لأفكارك الحقيقية التي لا تستطيع رؤيتها».

«أيها الشيخ»، قال أدهم حيث شعر بالإرهاق والسأم، «لقد جئتك هنا لأن اسمك أو علامة ما قادتني إليك، لا أعلم عمًّا أبحث ولكن هناك شيء يجب أن تُطلعني عليه، لا أعرف حقيقة عن هذا الأمر شيئًا سوى ورقة وجدتها في كتاب، ربما مرَّت على آلاف مثلي قبل ذلك ولم يتنبهوا لها، وربما انتبهوا ولكنهم لم يعيروا الأمر أهمية، كل ذلك لا يهمني، ما يهمني بصدق هو أن أعرف».

«والمعرفة مكلفة»، قال الشيخ، «إن كل شيء في هذا العالم مرتبط ببعضه ارتباطًا لا يستطيع عقل إدراكه، كل شيء حدث لك في حياتك ستجده مرتبطًا بخيطٍ خفيٍّ، هذا الخيط هو القدر الذي يرسم ملامح

حياتك، أنت تختار الألوان التي ترسم بها لتُكوِّن في النهاية الثوب، الثوب الذي ترتديه ليمثل لك في النهاية شكلك الداخلي، طبيعتك الإنسانية، أستطيع أن أشم هنا فيك الغضب، الغضب شيء قاتل يا بني، وكذلك الخطيئة التي تفوح رائحتها من روحك، لقد تعلَّمت العديد من الأشياء، لا تتعجب من وقع كلماتي، أنت تبحث عن شيء ثمين وهذا الشيء سيُكلفك، وعليك أن تتذكر كل ما قلته لك حتى لا تنتهي الحياة بك وأنت تتمنى أن يستفيق الموت من غفوته لينال منك».

«يا شيخ غانم»، قال أدهم وقد تملك منه الضجر، «أنا لا أفهم شيئًا مما تقول».

«تقصد أنك لا تريد سماعه لأن عقلك يريد أن يسمع شيئًا واحدًا جاء من أجله».

صمت أدهم وهو يتنفس بصعوبة، ساد الصمت للحظات بينما نهض الشيخ من مكانه، ثم مشى تجاه مكان نومه ودسَّ يده تحت فراشه وأخرج لفافة قديمة مصنوعة من الصوف، «أنت جئت هنا من أجل هذا»، قال الشيخ بعد أن جلس ونظر طويلًا بعينيه الكفيفتين إلى القطعة الصوفية، «لكن قل لي ماذا ستفعل بعد أن تعرف الحقيقة؟! ماذا إن كانت الحقيقة مؤلمة وموجعة؟! ماذا ستختار؟! ستختار ما جئت من أجله أم ستختار ما يجب فعله؟! هذا السؤال الأخير لا تُجِبْ عليه الآن؛ لأن الوقت كافٍ لأن يعلمك».

نهض أدهم من مجلسه بحزن وأعطى ظهره للشيخ، «لا يوجد وقت أيها الشيخ، لا يوجد صدقني، أنا سأموت وأنت تعلم ذلك كما أخبرتني»، ثم التفت إليه مرة أخرى وهو ينظر إلى اللفافة في يده، «ما هذا يا شيخ غانم؟»

ابتسم الشيخ، «لم ترد على أسئلتي يا بني»، نظر أدهم إليه طويلًا، لم يكن يدري بماذا عليه أن يجيب لكنه جلس بهدوء، «اسمعني أيها الشيخ، شيء في صدري يقول إن ما أرنو إليه شيء عظيم، في الحقيقة لم تكن حياتي سوى مسرحية بالية كنت فيها ممثلًا بارعًا، حينما أدركت النهاية اكتشفت ذلك ومع النهايات تبدو كل الحقائق جلية واضحة، ومخيفة أيضًا، إن قلت لك ماذا سأفعل بعد أن أعرف الحقيقة فسأكون كاذبًا؛ لأنني بصدقٍ بالغٍ لا أعرف، كما أنك قلت بنفسك إن الأحداث هي ما تصنع صاحبها، إذن عليَّ الاختيار حين الوصول للنهاية، لا يمكن تقرير النهايات مع بزوغ البدايات لأنني سأكون مجنونًا أو متشائمًا وربما أيضًا متكبرًا، والموت حقيقة أمامي لا يمكنني إنكارها، لا أعلم أي قَدَرٍ ساقني إليك ولكنني على يقين من أنني لم آتِ إلى هنا بمحض المصادفة، يبدو لي أنك أيضًا لا تؤمن بالمصادفات».

صمت الرجل العجوز لبرهة وهو ينظر طويلًا إلى عيني أدهم، وابتسم. مد يده وفتح اللفافة، أخرج منها قطعة وأعطاها لأدهم، كانت القطعة على شكل مثلثٍ متساوي الأضلاع، وقد حُفر عليها في المنتصف حرف بَدَا أنه ينتمي إلى اللغة العبرية، كانت مصقولة من جوانبها الثلاثة،

اتَّضح أن هناك جانبين غائرين بحيث يمكن إدخال شيء فيهما، أو يمكن تركيب تلك القطعة بأسلوب التعشيق في شيء ما، نظر أدهم مرة أخرى إلى الشيخ متعجبًا، لم يكن يفهم ما يحمله في يده وإلى ماذا يرمز؟! وماذا عليه أن يفعل به؟!

«أنت تبحث عن الأبناء الأربعة»، قال الشيخ بنبرة جادة محذرة، «هذا أحدهم، بقية الأبناء سيبحثون عنك، لا تُرهق نفسك بالتفكير واسترح، أنت تحتاج إلى ذهنٍ صافٍ في الفترة القادمة، أتمنى أن تتذكر كلماتي دومًا لانك ستحتاج إليها طوال طريقك، يمكنك الانصراف».

أعطى الشيخ ظهره لأدهم وكأنه يؤكد انتهاء المقابلة، حاول أدهم أن يتكلم ولكنه لم يعرف ماذا عليه أن يقول! نقل بصره بين القطعة وبين الشيخ في حيرة، وضع القطعة داخل اللفة الصوفية، دسها في جيبه، أومأ برأسه وانحنى للشيخ، وحين مغادرته بأرجل مثقلة.

«أدهم»، قال الشيخ بهدوء دون أن يدير ظهره فالتفت إليه أدهم، «من اليوم ستكون الأحداث هي بطل حياتك وليس أنت بطلها ولكن في النهاية سيتحول كل شيء، أنا مؤمن بأنه أنت؛ لذلك أعطيتك سرًّا حافظ عليه أجدادي منذ قرون طويلة، أرجوك لا تُضيع ما لا يجب أن يضيع، وانتظر حينما يكون ذلك ضروريًّا وتألم أيضًا حينما يجب أن تتألم حتى يمكنك الخلاص»، صمت قليلًا ثم ابتسم بعذوبة، «حينما تُدرك الحقيقة ستأتي إلى هنا، تذكَّر ذلك جيدًا».

نظر إليه أدهم بعينين متسائلتين ومتعجبتين، لم يكن يدري ماذا عليه أن يقول ولكنه في النهاية انصرف، غادر الخيمة التي لم تغادره طوال الأيام القادمة.

الفصل العاشر

مرَّ أسبوعان على أدهم وهو يجلس حائرًا ممتلًا لكلمات الشيخ غانم التي قالها له في النهاية، تمنَّى لو يفعل شيئًا لكنه لم يكن يدري ما عليه فعله، فكَّر كثيرًا، قرأ كثيرًا، أدار محرك الذكريات بكامل قوته ليستنبط معلومة؛ ليثير فكرة نائمة فيوقظها، استعان بليلى ولكنه في النهاية كان يعود ضجرًا غاضبًا من كل شيء، لم يتَّصل بأي امرأة ساقطة يعرفها كما يفعل في مثل هذه الظروف؛ لتأخذه بعيدًا عن حالته النفسية التي تسوء يومًا تلو الآخر، ولو كان الموت بعيدًا لاقترب منه جرَّاء ما يُعانيه، شعوره بالحزن من اقتراب النهاية كان مميتًا، لكن لم يكن ذلك هو السبب الوحيد؛ فاقتراب النهاية دون بلوغ مبتغاه كان له أثر قوي على نفسه الهشة، حاول تهدئة نفسه بكلمات الشيخ غانم الحكيم، هدأ قليلًا ولكن سرعان ما عاد إلى ما هو أسوأ وانتهى به الحال مُدمنًا على الحشيش والمسكنات التي تجعله يعلو في سماء بعيدة وهمية، أرض بعيدة لكنها في النهاية لم تكن الحقيقة، نشوة مزيفة مصنوعة من مواد كيميائية وظيفتها الوحيدة الإسراع في موته المحتوم.

دقّ جرس هاتفه حينما كانت الساعة تدق الثالثة فجرًا، انتبه للهاتف وتعجب قليلًا، مَن الوقح الذي أخذ قرار الاتصال به في هذا الوقت المتأخر؟! أم أنه نفس الخيال السابق الذي راوده في توقيت مماثل، فكر قليلًا قبل أن يرد على الرقم المجهول، لكن فضوله كان أسرع مما يتخيل، لم ينطق بكلمة؛ لأنه لم يكن هناك وقت كافٍ لذلك، لقد أغلق المتحدث الهاتف بعد أن ترك أثرًا مُقلقًا ومخيفًا في نفس أدهم، نعم لقد أدى مهمته بنجاح، كان أدهم طلال مُتسمرًا في مكانه، تحولت ملامحه إلى الاصفرار وشعر بألم في بطنه، نسي السيجارة التي تحرق نفسها في يده، شعر بغضبٍ ثقيلٍ يسري في أحشائه، شعر بأن دمه ثقيل عليه، لا يستطيع حمله داخل جسده، جلس على كرسي مكتبه وانحنى للأمام، بلا إرادة ترك السيجارة في المطفأة دون أن يطفئها، شرد طويلًا وهو يفكر بالكلمات القليلة التي تركها المتحدث له: «أدهم بيك، 1541972، نعرف كل شيء، نعرف أيضًا أنك لن تعيش كثيرًا، ولكن كن متأكدًا أنك ستموت، ستموت تمامًا، أعتقد أنك تفهمني، تفهمني بشكلٍ لا يقبل الشك».

كلمات قليلة أطلقها المتحدث، لكنها كانت كافية لتبعثر كل شيء كطفل قرر القضاء على كل شيء بحركة متهورة، ترددت كلمات ذاك المتحدث المجهول بأشكال متعددة في مخيلته، مرة بطريقة بطيئة ومرة ثانية بطريقة آلية كصوت المتحدث، ومرة ثالثة بصوت شيطاني كصوت الشيطان في إحدى الروايات الإنجليزية التي يكرهها بشدة، أسئلة كثيرة

مرت بخياله في هذه اللحظات، أسئلة لا تحمل أي إجابات، لا تحمل شيئًا على الإطلاق سوى القلق والحيرة، لا يمكن أيضًا أن ننسى الخوف الذي تسلل إليه، كيف عرفوا رقمه السري الذي يستخدمه على حاسوبه؟! ولكن السؤال الحقيقي: لماذا؟! خرج السؤال ثقيلًا وصعبًا، تذكر فجأة التهديد الأول من إحدى المعجبات بقتله، لم يكترث لأنه كان يحمل مسدسًا محشورًا دائمًا بين حزام سرواله وخصره، رغم أن الأمر برمته يدعو للسخرية إلا أنه كان يخاف على حياته كخوف الأم على رضيعها، فالخلود بالنسبة له كان أملًا يتحقق مع كل عمل يصدر له ويحقق له ما يريد، والأعمال تحتاج لوقت والقتل يعيق كل ذلك، مَن ذلك المتحذلق المتهور الذي يتحدى ذكاءه؟! أسئلة كثيرة مرت به، لكن باغته سؤال: «أيكون المتصل له علاقة بما توصل إليه، بما يحمله معه؟! بالطبع هو كذلك ولا شيء آخر»، لا يمكن ترجمة الأحداث بشكل ساخر أو بطريقة أخرى، فهو لا ينتظر شيئًا سوى الإشارة بانطلاق البداية.

فتح درج مكتبه وأخرج اللفافة الصوفية وفتحها، نظر طويلًا إليها دون أن يلمسها ثم نظر إلى هاتفه، فتح قائمة الاتصال، لم يكن هناك شيء مكتوب سوى «رقم خاص»، مَنْ يكون صاحب الرقم الخاص، تذكر كلمات الشيخ غانم بأن الأحداث هي ما ستحرك رحلته وليس هو، أيقن في نفسه أن عليه أن يعتاد ذلك، ولكنَّ الغموض والمجهول مخيفان بشدة.. لكن أي خوف الآن وهو من النهاية يقترب؟!

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارة الحشيش التي تحترق في المطفأة، ثم تناول قرصين من التامول دفعة واحدة، شعر بدوار عنيف وسرعان ما ذهب في نوم عميق يشبه ربما الموت، غيبوبة، استيقظ أدهم على صوت هاتفه، كانت الشمس تخترق الستائر المغلقة، شعر بألم في رأسه وتثاقل وهو يحاول تكوين صورة مفهومة لما يجري، لقد نام دون أن يشعر، نام تحت تأثير الحشيش والأقراص المسكنة، المخدر، ربما نام تحت تأثير السخرية، وضع يده على الهاتف، أغلق عينيه لبرهة، توقف الهاتف عن الرنين، ولكن بعد ثوانٍ عاد الهاتف ليرن مرة أخرى، إنه نفس الرقم، ابتسم، لقد عادت اللعبة تلهو، أعطى أمرًا ذهنيًا بالرد، لم يفعل، لم يعرف لماذا لم يفعل؟! ربما الخوف، ربما أيضًا اللا مبالاة، لا ليست تلك الحقيقة، فالخوف وحده هو ما كان يعتصره، يدرك ذلك ولكنه لن يعترف به، ترك الهاتف ونهض من مجلسه، فجأة أتته رسالة بمجرد انتهاء الرنين، أمسك الهاتف وقرأها:

1541972

انحنى على المكتب متكئًا عليه براحتي يده، لم يكن يدري بأي الخيوط سيبدأ وأين ستبدأ هذه اللعبة السخيفة! في الحقيقة إنها بدأت بالفعل، السؤال الحقيقي الذي أصابه بالرعب في هذه اللحظة:

«إلى أين ستنتهي؟!»

الفصل الحادي عشر

اعتدل أدهم في جلسته بعد أن وصل إلى مكتبه الذي لم يدخله منذ أن عاد من عند الشيخ غانم، لم يكن هناك بدافع الاشتياق لوسط القاهرة أو للصخب الذي يمنحه الإحساس بالحياة، لكنه الهروب من انتظاره المرير، كان يعلم أن مكالمة أمس والرسالة الصباحية سيكون لهما أثر سيقلب حياته في القريب، لم يكن منتبهًا للمظروف الأصفر على مكتبه؛ لأنه بعد ذلك نظر نظرة طويلة متشككة، فتح المظروف ووجد به ورقة ومفتاحًا صغيرًا يصلح لصندوق أو خزانة صغيرة، وضع المفتاح في المظروف مرة أخرى متعجبًا ثم فتح الورقة التي كتبت كلماتها على الآلة الكاتبة، وقرأ: «سيد أدهم.. نحن لا نريد شيئًا منك، أنت مَن تريد، سيثبت لك الوقت كل شيء، ننتظرك في تركيا خلال يومين، التأخير في حالتك يُكلف الكثير، ربما الموت وربما ما هو أسوأ، إن تعقدت الأمور تذكر صوفيا، إنها دائمًا في انتظارك».

كان مكتوب أيضًا في نهاية الورقة عنوان لشقة ما في مدينة إسطنبول، كان العنوان تفصيليًّا ودقيقًا.

استشاط غضبًا واتجه بسرعة تجاه الباب وفتحه بعنف ثم صاح بصوتٍ عالٍ على السكرتيرة ياسمين، فأتت مسرعة تشعر بالخوف، لا تفهم شيئًا، حينما دخلت أمرها بإغلاق الباب خلفها، رفع المظروف بحدة في وجهها، «مَنْ أرسل هذا المظروف؟!»، نظرت ياسمين للمظروف لثوانٍ، «لقد وجدناه حينما فتحنا اليوم في الصباح أسفل الباب»، قالت ياسمين بقلق وهلع، «قلنا بالتأكيد هو لك ولم أحاول فتحه، بالتأكيد لاحظت ذلك»، نظر إليها وهو يفكر وما زالت عيناه تواجهان عينيها وكأنه يستخلص الحقيقة ولكنه لم يجد شيئًا يؤكد له ما يفكر فيه، كان أدهم ببنيته الطويلة الممشوقة وشعره الأسود الطويل الذي يربطه برباط أسود خلف رأسه إلى الأسفل وعينيه الحادتين اللتين كان ينظر بهما بحدة في هذه الأثناء مع أنفه القوقازي ولحيته التي طالت بشكل غير منتظم وطريقته المبهرة في اختيار ملابسه التي اختلفت تمامًا من عدم اهتمامه بنفسه، حيث كان يرتدي الجينز الإنجليزي وقميصًا مفتوحًا حتى آخر صدره الذي يزينه بسلسلةٍ تحمل مفتاح الحياة الفرعوني تُضفي عليه نوعًا من الرهبة، أشار لها بيديه أن تذهب وبالفعل ذهبت مسرعة، مرتبكة مع شعورها بالراحة وكأنها حصلت على البراءة توًّا من تهمة بشعة.

وضع رأسه بين يديه، أيقن أنه لم يعد هناك مجال للتجاهل، لم يعد هناك أمل في ادعاء اللا مبالاة، لم يعد يجدي ذلك نفعًا، فمَن يحاول العبث به ليس مجرد مجنون أو شخص يقتله الفراغ فقرر التلاعب بشخصٍ شهيرٍ مثله، مَنْ ذلك المتحذلق الذي يتلاعب به؟! وماذا يريد؟! أسئلة كثيرة

مرَّت بمخيلته، حاول أن يرتب الأمور ويحللها بشكل منطقي، أخرج تليفونه من جيب سترته وبلا تفكير اتصل بالرقم الذي هدده، وبالتأكيد هو مَن أرسل له الرسالة الصباحية، كما توقع، لا يوجد هاتف بهذا الرقم، بالطبع هو ليس مجنونًا ويتوهم كل ذلك، الرسالة موجودة، المظروف أيضًا موجود، لم يتملك المرض منه حتى هذه اللحظة، لم يشرب حشيشًا في الصباح، لم يتناول «تامول»، إنه أدهم طلال بكامل قواه العقلية حتى هذه اللحظة، لماذا تركيا بالتحديد؟! لماذا يريد هذا الشخص أن يرسله إلى تركيا تحديدًا؟! حاول أن يتذكر أي شيء غريب حدث له هناك في المرة الأخيرة، لكنه لم يتذكر سوى آسيل، تذكر مجونها، الليلة الحمراء الأخيرة حينما ضاجعها مرتين في فندق Four Seasons في إسطنبول الذي يقع في مكان مميز للغاية بين مسجد السلطان أحمد، في مواجهة متحف أيا صوفيا الشهير الذي يعتبر من أهم المتاحف العالمية لقيمته التاريخية، لكنه في مرته الأخيرة هناك لم يقم بأي نوع من الأعمال؛ لأنه لم يكن هناك وقت للعمل، فاللهو يحتاج لاحترام مقدس كجسد المرأة التي تجلب له الحياة والإلهام معًا.

رنَّ هاتفه مرة أخرى فرد بسرعة دون أن ينظر فيه، كان على وشك أن يتكلم ولكن فاجأه صوت ليلى على الهاتف «أدهم، لقد وصلك طرد منذ دقائق وقمت بفتحه، أعتقد أنه شيء مهم يجب أن تراه، أرجوك تعالَ بسرعة».

فكّر أدهم خلال طريقه بسرعته الجنونية في كل شيء دار في الفترة القصيرة الأخيرة، ربط كل الأحداث ببعضها، لم يكن لديه أدنى شك في أن ما يسعى إليه وينتظره قد تم تفعيله الآن ولكن بطريقة تبدو مخيفة وغامضة، المكالمات، الرسائل، الهويات المجهولة، الرسالة الأخيرة تحديدًا تبدو ممتلئة بالألغاز التي لو فكر فيها طويلًا لأُصيب بالرعب وتراجع ولكن في جزء منه كان هناك شيء يدفعه دفعًا على الطريق متجهًا إلى المنصورية بأقصى سرعة، سرعة قلبه الذي يخفق بشدة هو ما يجعله يتوق للمجهول، هل يملك المجهول كل هذه السمات؟! أن يحررنا من عبوديتنا للروتين، ماذا إن كان ذلك المجهول مفزعًا كما أراد أن يقول الشيخ غانم؟! ماذا عليه أن يفعل إذا كانت إرادته - أدهم - ضد إرادة ما يجب عليه فعله؟! لكن هذا السؤال الأخير نحّاه جانبًا لأنه كان يدرك جيدًا أن الطريق ما زال طويلًا، متعبًا ومرهقًا، لكنه بالتأكيد يستحق لأنه ببساطة تامة يساوي الحياة.

الفصل الثاني عشر

وقف أدهم في مواجهة ليلى متوترًا، ينظر لها والأسئلة تحوم بعينيه، حاول بصعوبة بالغة أن يداري ما يفكر فيه في هذه اللحظة، لا يريد أن يُطلع أي شخص على ما يدور معه وخصوصًا ليلى، يدري تمامًا أنها لن تتحمل ذلك، بجانب أنه يكره كثيرًا قلق النساء المفرط، وضعت أمامه الطرد، عبارة عن صندوق مربع الشكل، خشبي صغير يكفي لوضع قطة صغيرة فيه، مصنوع من الزان الأحمر، مصقول بحرفية، له لون أسود، توجد به فتحة لولوج مفتاح، «حينما فتحت الطرد»، قالت ليلى بنوعٍ من التهكم، «لم أجد المفتاح الخاص به، ربما المرسل قد نسي أن يرسله معه، كان يمكنني أن أنتظر حتى تأتي ولكن انظر إلى الرسالة التي جاءت برفقته»، وأعطته ورقة صغيرة، كانت الرسالة مكتوبة بخطٍّ يدوي جميل، خط رجل يعرف جيدًا كيف يصوغ كلماته، كانت واضحة، تعليمات لا غبار عليها، قرأ الرسالة بعينيه: «أدهم بيك، داخل الصندوق ستجد شيئًا يخصك، أرجوك افتحه بهدوء، فنحن لا نريد أن تفسد المفاجأة، ما زال أمامنا الكثير، صوفيا ترسل لك تحياتها، لا تغب عنها كثيرًا، فهي دائمًا في انتظارك».

شرد أدهم لبُرهةٍ بعد أن قرأ الرسالة، لم يكن يسمع ليلى في هذه اللحظات وهي تسأله عن صوفيا ومَن تكون؟! وكيف عرفها؟! ومَن ذلك المرسل؟! وبأي حق يرسل رسالة مثل هذه إلى بيتها متبجحًا بهذا الشكل دون أن يفكر ولو للحظة واحدة بوجودها وكأنها مجرد دمية في بيت أدهم العظيم؟! لم يكن يهتم الآن بتلك التفاصيل النسائية المزعجة، في جوف أفكاره كانت هناك حلقات كثيرة ضائعة، الرسالة معبأة بالرموز، لا توجد امرأة عرفها على مرِّ حياته اسمها صوفيا، عاد من شروده على صوت صياح ليلى، عاد من واقع إلى واقع أسوأ، في هذه اللحظة كانت ليلى تسير بعصبية مبتعدة عنه، لم يكترث كثيرًا وهو يتابعها تبتعد، علم لماذا أرسلت له بهذه السرعة ليأتي، فالنساء هن النساء، الغيرة تقودهن، بل يتوقف العالم وتختفي المجرة إن تعلَّق الأمر بإحساسهن بالخيانة، شعر بأن ذبابة ملحة تركته لحاله بعد عناءٍ طويلٍ من محاولة اصطيادها، نجت بحياتها ونجا هو بصفاء ذهنه، لا وقت للغيرة الآن، تفحَّص الصندوق بعنايةٍ وقلقٍ، هزَّه بهدوء، سمع صوتًا مكتومًا، ركَّز قليلًا وهو يهزه مرة أخرى، فأصدر صوتًا مكتومًا بدرجة أعلى، شيء ما يتخبَّط في جدرانه، شيء صغير إن صحَّ تخمينه، وضعه أمامه، نظر إليه بحيرة، أعاد الشريط كاملًا منذ بداية الأحداث، المكالمات، الرسالة، المظروف والآن الصندوق.

المظروف!!

أخرجه من جيب سترته بسرعة مرتبكًا وكأنه اكتشف شيئًا، أخرج المفتاح من داخله بتشكُّكٍ مفكرًا، نقل بصره ما بين الصندوق والمفتاح للحظات وكأنه يؤكد لنفسه ما يفكر فيه وسرعان ما ولج المفتاح بسهولة داخل الصندوق، انفتح القفل، أخذ نفسًا طويلًا، شعر بقلق وخوف غريبين، فتح الصندوق بهدوءٍ وترقُّبٍ ممتزجين بالتفكير السوداوي، كانت جوانبه مصنوعة من القطيفة الزرقاء، هناك شيء مُغطًّى بقماشة حريرية زرقاء اللون أيضًا داخل الصندوق، كشفها، جحظت عيناه وعاد إلى الوراء فزعًا كاتمًا صرخة، نظر حوله بسرعة متفقدًا ليلى، أغلق الصندوق ثم أخذه بعد ثوانٍ من التفكير الملفع بالخوف واتجه إلى السيارة مسرعًا بخطواتٍ تسبق بعضها بعضًا، ما زال تحت تأثير الصدمة، فتح الصندوق مرة أخرى، كانت هناك إصبع آدمية به، إصبع السبابة لامرأة ما، ليست أية امرأة، إنها آسيل، يعرف ذلك الخاتم جيدًا، عاد بذاكرته حينما تذكر وهي تجلس فوق قدميه عارية، وجهها لوجهه، تتلوَّى وهو جالس على أريكة مريحة داخل غرفته في الفندق في المرة الأخيرة حينما كان بتركيا، تذكر أيضًا حينما وضعت إصبعها في فمه بينما تغرس اصابع يدها الأخرى في رقبته من فرط النشوة، تذكر ذلك الخاتم حينما كان على وشك أن يجرح فمه.

كانت أنفاسه لاهثة في هذه اللحظة، يأخذها بصعوبة بالغة، لا يصدق ما يحدث له، لا يجب أن تكون النهاية على هذه الشاكلة، لم يتوقع أن تكون الأيام الأخيرة مثيرة إلى هذه الدرجة، حاول ترتيب أفكاره، ألقى

نظرة جانبية على الصندوق، شعر للحظة برغبة في الانطلاق بسيارته بسرعة قصوى في الصحراء الممتدة أمامه، لكنه لم يفعل ذلك، لم يعرف لِمَ ظلَّ متسمرًا لا يفعل شيئًا للحظات، أخذ الصندوق ووضعه فوق حجره، شعر باشمئزاز، دقات قلبه متسارعة، نظر داخل الصندوق، بحث داخله بتوتر، ربما يجد شيئًا آخر، نزع كل محتوياته فوجد قرصًا صلبًا، CD، مكتوبًا عليه باللغة الإنجليزية، 1541972، دق جرس هاتفه فجأة فانتفض من مكانه، وقع الصندوق تحت قدميه، أعاد رأسه إلى الخلف محاولًا التقاط أنفاسه، أخرج الهاتف ونظر له فوجد الرقم المجهول ثانية، فتح الخط ولم يتفوه بكلمة، «الآن أصبحنا نفهم بعضنا بعضًا، لديك يومان، نحن في انتظارك، بالمناسبة سيعجبك ما ستراه»، انغلق الخط، شعر بغضبٍ شديدٍ يسري في كل جزء فيه، لم يكن متأكدًا من أي شيء، أخرج اللابتوب من حقيبته التي كانت وراءه على الكرسي الخلفي للسيارة، كان العرق يتصبب على وجهه في هذه اللحظة، مسحه مستخدمًا منديلًا ورقيًا أخذه من علبة صغيرة موضوعة بجانبه بشكل دائم بالسيارة، فتح الجهاز وأدخل القرص المدمج وقام بتشغيله، شاشة سوداء استمرت لثوانٍ قطعها فجأة مشهد مثير، إنه هو، عارٍ تمامًا، في أكثر أوقاته الحميمية مع آسيل، لم يستطع أن يبلع ريقه وهو يرى نفسه بهذا الشكل، لم يستطع التفكير أو حتى محاولة ذلك، شلل أحاط جميع أجزاءه، شعر بدوار عنيف، فأغلق الشاشة سريعًا وهو يشعر بالحسرة وألم رهيب في أسفل معدته.

انحنى للأمام واضعًا جبينه على مقود السيارة، أخذ نفسًا عميقًا وأبقاه بداخله، ثم حرَّره ببطءٍ، قفز تفكيره من شيء سيئ إلى أسوأ، تراءت له آسيل في غرفة مقلوبة رأسًا على عقب بعد معركة عنيفة، تخيَّل كمية الرفس التي نالتها، اللكمات المستمرة، الخنق ومن ثم الموت البطيء القذر، في النهاية قطع إصبعها ببرود منتصر، ليتم إرساله كتذكار أو كإثبات حي لا شك فيه على قدرة الجانب الآخر اللا محدودة، ربما لم يحدث كل ذلك، ربما مجرد رصاصة من مسدس أمريكي الصنع كاتم للصوت قد قام بالمهمة، اخترقت قلبها الرصاصة الأولى وجاءت الثانية لتخترق رأسها لتتطاير أجزاء صغيرة من مخها ومن ثم تستقر الرصاصة بالحائط خلفها لتؤكد المهمة السهلة، العديد من السيناريوهات المدهشة والمرعبة مرت بخياله، في النهاية كل ذلك يؤكد أنه يواجه نفس النتيجة، كان يحتاج لتهدئة نفسه من الضوضاء في رأسه، فتح الدرج الصغير بالسيارة وأخرج التبغ والحشيش الذي يحتفظ بهما دائمًا، شرع في لف سيجارة بيدٍ مرتعشة، لم يستطع إكمال المهمة، ضرب كل شيء بيده، ظل يضرب المقود بلكمات متتالية عنيفة غاضبة، أنفاسه اللاهثة شرعت تهدأ بعد وهلة من التفكير غير المرتب، لا يمكن أن يكون كل شيء في هذه الحياة مجرد مصادفة، الحياة ليست مصادفة، الموت عن طريق القتل ليس أيضًا مصادفة، فالدافع هنا مختلف والاختلاف مجهول، ما هي القصة الحقيقية خلف المجهول؟! ولم يحمل دومًا المجهول كل هذا الكم من الغموض؟! ولماذا يأتينا الغموض في تلك الأوقات التي لا نحتاجها فيه على الإطلاق كتلك العلاقات التي تظهر فجأة وتقلب

كل شيء أيضًا فجأة؟! فالمجهول الغامض له دومًا ذلك الوقع المؤثر المخيف كمواء القطط في الأزقة المهجورة وكعواء الكلاب في الأراضي الزراعية القاحلة.

أخرج هاتفه بعد أن خرج من أفكاره التي دفعته من فوق جبل في بلد لا يعرفه ولكنه بالتأكيد سقوط بشع منفر ومخيف، سيموت قبل الوصول للأرض، سيموت حتى قبل إعلان الصرخة الأولى، اتصل بآسيل، هاتفها مغلق، استطاع أن يشم رائحة الدماء عبر الهاتف، استطاع ذلك بشكل مثير، اكتشف بالفعل أن دماءها هنا تصدح بجانبه في عينة صغيرة، عينة مختلفة، إصبع صغيرة، سكن للحظات لم تخلُ من التوتر والخوف، لم يكن يدري تحديدًا الخطوة القادمة لكنه بالتأكيد يعلم أنه لم يعد هناك مجال للاختيار.

لم يعد على الإطلاق..

الفصل الثالث عشر

كان حسن عبد الرحمن ينظر لأدهم صديقه نظرة قلقة، فهو لم يتعود أدهم بهذا الهدوء المريب من قبل، فرغم هيبته المعروفة وشخصه القوي إلا أنه من بين كل أصدقائه ينحي كل ذلك بعيدًا ويعود مرحًا لا يخلو من جدية لها وقع خاص جدًّا على كل مَن يُجالسه، في الحقيقة كان حسن مجرد تابع طوال حياته حتى قبل أن يعمل مديرًا لشركة أدهم بعد أن اختاره الأخير كأمين على أحد أكثر أعماله أهمية، حسن ابن لزوجين منفصلين منذ أن كان في الثانوية العامة وقد أثر ذلك في بناء شخصيته بشكل كبير، فقد كان حائرًا ما بين أبويه حيث تزوج الاثنان بمجرد طلاقهما، لكنه كان يعيش برفقة والده العصبي، الغاضب دومًا على كل شيء وأي شيء، لم يأخذ حسن صفة والدته المتمردة ولم يكتسب أبدًا عصبية والده، كان هادئًا منطويًا، أثرت طبيعة والدته المتمردة وعدم رضاها الدائم بأي شيء في الحياة وعصبية والده المستمرة في صنع شخص يخاف، يخاف كل مَنْ حوله، جبان بطبعه، يفكر آلاف المرات في أي تصرف يقدم عليه داخل أي علاقة اجتماعية في حياته، محاولًا بقدر الإمكان الابتعاد بكل ما استطاع من ذكاء محدود عن الدخول في تفاصيل هذا العالم السخيف

من وجهة نظره، لا يملك الأدوات الكافية لمواجهة البشر، كان سمينًا بشكلٍ مفرطٍ، منتفخ الوجه، صاحب ملامح طفولية، له بشرة بيضاء مائلة للاحمرار معظم الوقت، فأقل مجهود يجعله متصببًا بالعرق، غير قادر على التقاط أنفاسه، عيناه ذاهلتان دائمًا، أنفه متوسط الحجم لا يتناسب مع حجمه ورأسه الأصلع وقامته القصيرة نوعًا ما، هذه التركيبة كان لها تأثير داعم وعامل قوي على ازدياد إحساسه بنفوره من العالم وإحساسه بضآلته أمامه، لم يقع في غرام فتاة إلا ورفضته حتى زوجته يعلم تمامًا أنها لا تحبه ولولا المبلغ الذي ورثه من والده ما كان ليتزوجها، بمعنى أدق ما كانت لتتزوجه؛ فقد قبلت بعريس منقذ من العنوسة ولا تهم هيأته الجثمانية في شيء، ففرسان الحقيقة لا يمتون بصلة لفرسان الأحلام.

في الحقيقة لم يكن حسن أكثر من كومبارس في حياة أدهم، بشكلٍ آخر إن حسن ينجذب بنفس الطريقة التي تنجذب بها الفتيات لأدهم، فقدانه لرعاية الأبوين جعل منه ابنًا بشكلٍ غير رسمي لأدهم رغم أنهما في سن واحدة، لا يعارضه في شيء، يقف دائمًا على الحياد فيما يقرره، لعب دور الصديق الذي يحافظ على الأسرار دون التدخل في تفاصيل لا تهمه، بمعنى أدق يستمع فقط لما يود أدهم أن يخبره به، وما يخبره به فقط، لم يعارضه يومًا، حتى وإن كان لديه ما يقوله فقد كان يحتفظ به لنفسه، خوفًا من أن يخسر المنطقة الدافئة التي يوفرها له أدهم، لم يكن الأمر متعلقًا بالمال على الإطلاق بقدر ما تعلق بشكل مباشر بالاحتياج، أحيانًا يتساءل في نفسه بسؤالٍ مرعبٍ لا يحاول الانخراط في التفكير

فيه، مرغمًا نفسه على ذلك، ماذا إن مات أدهم؟! ماذا سيكون مصيره؟! كان هذا السؤال كافيًا بأن يجعله متصببًا بالعرق من رأسه حتى أخمص قدمه، شاعرًا بالخوف والهلع المميتين، على مستوى العمل لم يكن يشارك في القرارات المهمة لأدهم ويقوم هو بالتنفيذ فقط، وقد جعل ذلك منه صديقًا مُقربًا، جعل منه مكانًا مُريحًا لأدهم بعيدًا عن فضول العالم وتقلباته ونزواته وخيانته الوقحة.

أشعل أدهم سيجارة حشيش لفَّها له حسن الذي لا يدخن ولم يتعلم طريقة اللَّف إلا من أجل أدهم، بل كان هو مَنْ يجلب له الحشيش ويستطيع أيضًا التفريق بين النوعية الجيدة والسيئة منه، كان القلق ما زال مستحوذًا على حسن جراء الصمت الطويل والشرود البادي على صديقه، يُدرك جيدًا أنه لن يُعكِّر صفو صديقه لا العمل ولا الكتابة أيضًا ولا حتى النساء، فشيء واحد فقط يجعل من أدهم قلقًا، تهديد مستقبله، ومَنْ يهدد مستقبل أدهم يلقى الجحيم بكل تأكيد، يتذكر جيدًا تلك الفتاة سيئة السمعة التي حاولت تعطيل مسيرته وهددته بتدمير مستقبله إن تزوج من امرأة غيرها، جعله ذلك متقلب المزاج عصبيًّا بشكلٍ مفرطٍ، فزواجه من بنت الوزير أمر مهم جدًّا لتحقيق ما يرنو إليه وامرأة سيئة السمعة كافية للإطاحة به وبمستقبله وبكل شيء، أعلنت بجنون أنها تصاحب أدهم بصورة غير شرعية، لقد اختفت تمامًا هذه الفتاة، لا أحد يعرف أين اختفت! لم يتحدث أدهم في هذا الموضوع مطلقًا، يتذكر فقط ابتسامة أدهم المرعبة التي أتته كرد والتي مر عليها أكثر من عشرة أعوام حينما

سأل عليها في ذلك التوقيت، لم ينسَ تلك الابتسامة على الإطلاق ولن ينساها، حينها قرر ألا يسأله أبدًا، لكن الآن السؤال العميق والمخيف، تُرى ما الذي يهدد مستقبل أدهم؟! أو ربما مَنْ؟!

كان الدخان الفاصل بين حسن وأدهم يدخل عبر منخري الأول، لم يكن رأس حسن يتحمل رائحته النفاذة، وسريعًا ما يشعر بالدوار، بأن جميع مشاكله قد تم حلها، بأن العالم يتراقص داخل كرة يتقاذفها أولاد أشقياء ملاعين يلهون مستمتعين بعجز رجل عجوز لا يقوى على مقاومتهم، يتعجب بشدة من قدرة أدهم على التوازن تحت تأثير هذا المخدر، ابتسم حسن ابتسامة خرقاء بعد دقائق معدودة، ابتسامة يعرفها أدهم جيدًا، تلك الابتسامة تعني أن حسن قد أصابه تأثير الحشيش، كان أدهم يحب خفة ظله، أحيانًا كان يجلس معه خصيصًا ويدخن من أجل أن يستمتع بذلك، لم يره أدهم يومًا بعين الصديق بقدر ما كان يراه بعين السيد المُطاع، ولم يحاول يومًا أن يفكر فيه بشكل شخصي، بصورة أكثر جدية، في النهاية حسن أمين ومخلص وهو لا يحتاج أكثر من ذلك وهذا أيضًا كل شيء.

لكن في هذه الأثناء لم يكن حسن يمثل اهتمامًا بالنسبة لأدهم الذي كان يجول بذاكرته داخل شوارع إسطنبول، يحسب كل شيء بدقة ويعيد تسلسل الأحداث مرة تلو الأخرى وبأشكال مختلفة، لم يستطع أن يمسك بطرف خيط واحد يقوده إلى أي إجابة، فما يحدث معه لعبة سخيفة، في الحقيقة لعبة مفزعة، أخرج من الخزانة الصغيرة بمكتبه

بالشركة مسدسه الذي يحتفظ به ونظر إليه طويلًا ثم أعاده إلى مكانه بعد أن أخذ قرارًا بعكس ما كان ينتويه، نظر إلى حسن بشيء من القلق، «أريدك أن تحجز لي في رحلة إسطنبول بعد غدٍ في الصباح»، قالها أدهم بهدوء وبنبرة آمرة، «عليك أيضًا أن تنقل كل المال المتوفر حاليًا باسمي في أرصدتي بالبنوك.. حسن.. في الفترة القادمة أريدك يقظًا، الشركة الآن تعتمد عليك، هاتفك اجعله بجوارك دائمًا، ربما احتجتك في أمر مهم، سأقولها للمرة الأخيرة، هاتفك دائمًا بجوارك، لن أعيد كلامي هذا ولا أريد حدوث أي خطأ»، أومأ حسن برأسه بشكلٍ آلي مع كل جملة يقولها أدهم دون أن يسأل، لكنه رغما عنه، «أقلقتنى، هل أمورك جيدة؟!»، قال حسن متوترًا، «فأنا لم أركَ منذ فترة بهذه العصبية، كما أنك أتيت من تركيا منذ فترة قريبة جدًّا! هل حدث شيء مهم هناك؟»، تعجب أدهم من كلمات حسن، لم يتعود منه أن يسأل بمثل هذه الطريقة من قبل، نظر إليه نظرة متشككة، «أعتقد أن الحشيش قد لعب برأسك يا حسن»، قال أدهم بسخرية مبتسمًا ابتسامة توحي بالقرف، «افعل ما أطلبه منك ولا تسأل، لست في حال يسمح لي بإجابة أسئلة الآن»، شعر حسن بأنه تعدَّى حدوده، شعر بقلق وخوف، لام نفسه بشكل كبير، لم يكن عليَّ أن أسأله مثل هذه الأسئلة، نهض أدهم من مجلسه وهو يفكر فيما سيحدث، نظر إلى حسن القلِق المُتصبب عرقًا وهو يقف عند باب المكتب، كان يبدو عليه الإرهاق والتعب بشكل ملحوظ، اقترب منه وربت كتفه، وقد عاوده شعور بالحزن، احتضن حسن بشكل قوي، لم يدرِ كيف فعل ذلك، ليس من الشخصيات التي تجرفها أو تؤثر فيها

العواطف المعهودة للبشر، كان حسن متعجبًا، احتضنه هو الآخر ولكن بشكل أقل حماسة، بشكل يعكس الحيرة والقلق، نظر أدهم إليه نظرة طويلة بينما وقف على باب غرفة المكتب، أخرج سيجارة ووضعها في فمه دون أن يشعلها، كانت نظراته شاردة رغم أنه ينظر تجاه حسن، شعر الأخير للحظة بأن أدهم مقبل على قول شيء ما، لكن ذلك لم يحدث.

لأنه في هذه اللحظة غادر، غادر تمامًا.

اتجه أدهم نحو منزله في المنصورية، يقود بسرعة بطيئة، كان العالم في هذه اللحظة غائبًا عن عينيه، ذلك المشهد الغريب وهو يضاجع آسيل وتخيلاته المخيفة عن طريقة قتلها يندمجان في شكل مخيف له وقع مرير في داخله، لم تكن فكرة القضاء على حياة مومس كآسيل فكرة ذات أهمية له لأنه لا يستطيع أن يجعلها ذات معنى، لكن فكرة واحدة أفزعته بأنه كان بين ذراعي امرأة تم قتلها وإرسال جزء منها له في صندوق، الأمر برمته جعل دمه غريبًا عليه، ثقيلًا وسميكًا، أمر صعب قبوله بسهولة، بأنه كان بين أحضان امرأة قُتلت، هاجمته ذكريات قديمة، فامتعض وسبَّ نفسه بصوت مسموع، علم في لحظة خاطفة بأنه يواجه شخصًا مجنونًا، أو ربما عاقلًا بالشكل الذي يدفعه هو للجنون، ربما يود الانتقام، لكن ما السبب الحقيقي خلف ذلك الانتقام الذي يدفع أحدهم لقتل شخص لا دخل له في أي شيء سوى أنه كان يومًا في حياته؟! ربما لا يريد الانتقام، ربما يريد ما هو أكثر! وهذا الأمر الأخير لم يحاول التفكير فيه كثيرًا، ورغم محاولاته المجهدة في فعل ذلك إلا أنه لم يفكر في أي شيء آخر

.وى ذلك، لم يكن يدري تحديدًا ما عليه فعله، سيسافر لينقذ نفسه، فلو
«ان ذلك الشخص يود الخلاص منه لفعل، لكنه أعاد الفكرة مرة أخرى
:.كل آخر في ذهنه، ربما ذلك الشخص يريده في بلده تركيا ليتخلَّص منه
.طريقة باردة كما فعل مع آسيل، لكن ما علاقة كل ذلك بمهمته المجهولة
التي أثارها في حياته كمهمة أخيرة؟! مهمة ما قبل الموت، تذكر كلمات
الشيخ غانم مرة أخرى عن الخطيئة، شرد مفكرًا، تذكر القواد الذي عرَّفه
على آسيل داخل الفندق الذي كان يقيم فيه، قرر الاتصال به وبالفعل
أخرج هاتفه، كان أدهم يعرف تمامًا كيف يحصل على متعته، في البداية
دخل ذلك العالم من أجل رواية كان يكتبها، ولكنه أيضًا جعل الأمر ذا
فائدة، فحصل على شهوته، آسيل وحدها مَنْ أعجبته بطولها الممشوق
وشعرها الطويل الأشقر وعينيها العسليتين الفاتحتين المتسعتين على
آخرهما، وأنفها الصغير وشفتيها الممتلئتين وصدرها البارز كأفروديت
ومؤخرتها البارزة التي تأخذ شكلًا نصف دائري مثيرًا، لم يستطع أن
يقاوم هذا الجمال المقدس من وجهة نظره ولا تلك المتعة التي لا توفرها
العديد من النساء اللاتي قابلهن.. «أدهم بك، كيف حالك؟!»، ردَّ فاطيم
الفواد بلهجة إنجليزية ركيكة، بدا من صوته أنه سكران، «هل أنت قادم
إلى إسطنبول؟! هل تريد تجربة نوعية جديدة؟! أنا أعرف مزاجك جيدًا،
فأنت ذو ذوق مختلف ومميز في النساء».

«فاطيم، كيف حالك؟ أنا بخير»، قال أدهم بلهجة إنجليزية مرحة مخفيًا ما يدور داخله بقدرة كبيرة، «أتصل بآسيل ولا ترد، هل تعرف أين هي؟!».

«للأسف يا أدهم بك لا أعرف عنها شيئًا، منذ أسبوع تقريبًا، كما أن هاتفها لا يرن، مغلق دائمًا، لقد ذهبت إلى منزلها أيضًا ولم أجدها، لا تقلق عليها فهي كثيرًا ما تفعل ذلك بنت العاهرة، إن كانت ضايقتك في شيء ما، أستطيع أن أجعلها تأتي راكعة تحت قدميك إن أردت».

«لا، لا شيء من ذلك، أنا قلق عليها».

«الحب!»، ضحك فاطيم، «تبا له، لقد امتلكت قلبك تلك القطة».

«أراك على خير يا فاطيم».

«مع السلامة أدهم بك، تذكر فاطيم دائمًا في خدمة مزاج سعادتكم».

أخذ أدهم نفسًا طويلًا، شرد بتفكيره، فكَّر في كلام فاطيم، الآن تأكدت له الحقيقة، لقد غادرت آسيل إلى العالم الآخر، دفعت ثمنًا ما، لماذا؟! ولمصلحة مَنْ؟! وما الدافع وراء كل ذلك؟! كلها أسئلة لم تجد إجابة شافية منه، أخرج قرصًا من تامول الذي يحمله معه بعد أن شعر بألم طفيفٍ في رأسه، بعد أن شعر أيضًا بأن الحشيش شرع يصيبه بالنشوة، فتح راديو السيارة، كانت أم كلثوم تصدح بأغنيتها المشهورة «بين الأطلال»، شعر بسكون لذيذ يتملَّك منه وقشعريرة تسري في جسده، ابتسم ابتسامة بلهاء، علم أن آثار المخدر شرعت تسري في دمه، انطلق بسيارته مسرعًا بشكلٍ جنوني مخترقًا نسمات الهواء المنعشة، ماسحًا الطرقات ساخرًا مما يحدث له، من الحياة ومن كل شيء.

الفصل الرابع عشر

في الليلة السابقة لسفره جلس ينظر إلى زوجته نظرة طويلة، لم يعرف كيف يجيب عن العديد من الأسئلة التي تعلَّقت بعلاقتهما التي مر عليها أكثر من عشر سنوات، حزن كثيرًا في نفسه على طريقته أحيانًا في معاملتها رغم أنها لم تسئ معاملته يومًا، تحمَّلت نزواته المتكررة التي كانت تعرف بها رغم أنها لم تكتشف سوى علاقتين لكنه كان يدرك جيدًا أنها تملك الذكاء الكافي لتعرف حقيقة فجوره وخطاياه المتكررة في حقها أولًا قبل أي شيء، احتضنها من ظهرها وهي تقف في المطبخ تعد لهما طعامًا، لم تكن ترتدي شيئًا سوى «مايوه» للسباحة حيث كانت تحب السباحة في الليل في المسبح الملحق بالفيلا، كان «مايوه» مثيرًا للغاية يتكوَّن من قطعتين بلون أحمر داكن، كان يشم رائحة جسدها المخروطي الرائع بنشوة ورغبة ساخنة مثيرة، قبَّل جسدها من رأسها حتى أخمص قدمها بينما هي واقفة تتلوَّى من طريقته الغريبة والمثيرة، العديد من الأشياء كانت تمر في مخيلته رغم انسجامه معها، دوافع متعددة جعلته يغزوها كقائد محارب لا تهمه حصون المدن التي يفتحها، مارس معها الحب لساعتين كاملتين في المطبخ، في البهو

الفسيح، على الأرض، على الأريكة الكبيرة في البهو، كذلك في غر،
النوم، حينما انتهيا كانا يتصببان عرقًا، عاريين بجوار بعضهما، ضمّها إل
صدره، فالتصقا ببعضهما بعضًا، سقطت منه دمعة لم يشعر بها، لم تره
ليلى لأنها كانت سارحة بين أحضانه وأنفاسه اللاهثة التي كانت تلسعه
فتجلب لها أحاسيس أنثوية مختلفة.

حاول أن يتحدث لكنه لم يفعل، كانت عيناه تقولان ما هو أكثر من
الكلمات، شعرت ليلى للحظة بوخز في قلبها رغم شلال الحب الذي
أغرقها، حاولت أن تتكلم ولكنه أوقفها بوضع سبابته على شفتيها، رغم
القلق البادي في عينيها إلا أنها استسلمت له وقررت عدم الانخراط في
أي حديث، كذّبت كل شيء يجول في نفسها، تدرك تمامًا أنه يعاني كثيرًا
في الفترة الأخيرة، لن تزيد الوجع وجعًا ولن تفتح النار على ما يشبه جثة
تهتز بشدة إثر طلقات الرصاص المتكررة التي تخترقها.

شعر أدهم بأن هاجسًا غريبًا يتملّك منه، بأن تلك ربما ستكون المرة
الأخيرة، لم يكن يدري لِمَ طوّقه هذا الإحساس المنفر البغيض! حاول
كثيرًا أن يثنيه أو يمنعه من الولوج إلى عقله ولكن كل محاولاته باءت
بالفشل، تلك الأحاسيس التي تأتي مبهمة مخيفة لا تأتي من الفراغ،
إنها مُرتبة تصاعديًا، تنتظر وقت الذروة فتحتلنا، لكننا نكتشف ذلك
في اللحظات الأخيرة، تلك اللحظات التي لا يمكن فيها أن نتكلم، أن
نفسر، شيء غامض يمنعنا وفي الحقيقة نستجيب له وكأننا تحت تأثير
قوة عُظمى لا نستطيع رؤيتها أو تفسيرها.

نام أدهم.. نام تمامًا لكنه نام ودمعته الغامضة ما زالت على وجنتيه.

اسطنبول

«أكثر الأمور التي تصيبنا بالتعاسة هي محاولاتنا الدائمة

في معايشة واقع لا يشبهنا»

الفصل الخامس عشر

وصل أدهم إلى مطار أتاتورك الدولي بمدينة إسطنبول وهو أحد
،طارين بهذه المدينة العريقة، وصل في الساعة العاشرة صباحًا بتوقيت
، كيا المتأخر عن التوقيت المصري بساعة واحدة، وجود المطار بالقسم
الشرقي الأوربي سيوفر عليه وقتًا طويلًا حتى يصل إلى وجهته، وقف
أدهم وسط الزحام يتذكر ما حدث في اليومين السابقين، فقد روَّض قلب
ا لى بعد معاناة استمرت ليوم ونصف في محاولة استمالة قلبها بشتَّى
الطرق الممكنة، رغم أنه لم يكن مجبرًا على ذلك إلا أنه يعلم جيدًا أنه لن
، حمل أعباءً إضافية، شرح لها الأمر كاملًا واستخدم حسن عبد الرحمن
أيضًا في ذلك ليقنعها بأنه ذاهب إلى تركيا من أجل العمل، اقتنعت ليلى
،مد عناء وتمت الليلة الأخيرة كحلم في ليلة حالمة أيضًا، أقنعها بأن
الصندوق هو مزاح سخيف من صديق تركي له هناك وصوفيا تلك امرأة
،جوز تعشق كتاباته، في الحقيقة تمنَّى أن تكون صوفيا كذلك.

أخرج ورقة من جيب سترته وهو يجلس في التاكسي الأصفر الذي
استقلَّه من أمام المطار متجهًا إلى الفندق الذي يمكث فيه دائمًا، فندق
الـ Four Seasons، يقع الفندق في منطقة مميزة للغاية، فهو يقع في

المنطقة الخلفية من Ruin of Roman، المجمع الإمبراطوري البيزنطي، ويعتبر من الأماكن السياحية المهمة، يُعرف أيضًا بالقصر الملكي أو القصر المقدس كما يُطلق عليه البعض، قبل الدخول إلى الشارع الذي يقع فيه الفندق يوجد ميدان السلطان أحمد الذي يواجه بدوره من الناحية الغربية مسجد السلطان أحمد الشهير، ومن الناحية الشرقية يوجد متحف أيا صوفيا، الذي يُعتبر من أهم متاحف العالم؛ لذلك يعتبر أدهم أن هذا الفندق يقع في منطقة نادرة لا تتوفر كثيرًا في هذا العالم.

نظر إلى الورقة في يده طويلًا وهو يفكر، كان العنوان واضحًا، لقد مرَّ من هناك كثيرًا لأن العنوان لا يبعد كثيرًا عن الفندق الذي سيقيم فيه، ربما لا تزيد المسافة على عشرين دقيقة، لم يصله اتصال واحد خلال اليومين المنصرمين وهذا الأمر جعله في حالة ثورية على كل شيء وأي شيء بينه وبين نفسه، عانى كثيرًا من أجل إخفاء ذلك وخصوصًا على ليلى الثائرة، فممارسة الحب معها كان مُهمًا للغاية لأسباب متعددة ولكن كان هناك سبب لم يستطع إخفاءه، أن يثبت لنفسه أنه ما زال على قيد الحياة، وأن ذلك المرض اللعين لم يتملك منه بعد، كثيرًا ما كان يُحدِّث نفسه بأن كل التحاليل والأشعة والفحوصات العديدة التي قام بها لم تكن أكثر من حلم، بل كابوس سيُفيق منه بكل تأكيد في يومٍ ما، ربما يفيق منه في الجنة، وفي الجنة كما تقول الكتب المقدسة، عالم من الأحلام؛ لذلك لن يكون النوم نافعًا، ذو معنى، ولا الموت أيضًا.

سأل السائق عن المكان في الورقة بلغة إنجليزية لأن اللغة التركية بالنسبة له أمر مستحيل تعلُّمه رغم دخوله تركيا لأول مرة منذ ما يقارب الأربعة عشر عامًا، قبل أن يتركه والده ويموت وقبل أن يترك له ميراثًا لا بأس به وأدهم هو الوريث الوحيد بعد وفاة والدته التي لا يتذكر منها أي شيء سوى بعض الصور القديمة التي تجمعهما، فقد رحلت والدته وهو في سن السادسة تقريبًا، وكان لذلك الأمر أثر كبير على نفسه ولكن استطاع والده الذي لم يتزوج أن يتولى رعايته ويصير ما صار عليه الآن، فاسدًا ناجحًا، هكذا يرى أدهم نفسه دائمًا، لم يخجل ولو لمرة من إبراز تلك الحقيقة أمامه ومواجهتها ورغم محاولاته المستمرة في إصلاح نفسه ونجاحه في مرات قليلة إلا أنه كان يعود أكثر مجونًا وجنونًا مما سبق.

«أعرفه يا بك»، قال السائق، «لو كنت تريد أن تذهب إليه الآن، فهو في طريقنا على كل حال».

«لا، لا»، قال أدهم رافضًا بهدوء، «أريدك فقط أن تشير إليَّ عليه حين مرورنا»، «كما تأمر يا بك».

دق جرس هاتفه في هذه اللحظة، رقم المتصل يوضح أنه من داخل تركيا، نظر إلى الهاتف طويلًا، يدرك جيدًا أنه لا أحد يعلم بوصوله إلى هنا، لم يكن لديه أصدقاء بالمعنى المعروف في تركيا ولكنه في النهاية يأمل ألا يحتاج إليهم، في الحقيقة كان يعلم في داخله أنه سيحتاج لكل شيء، لكل شخص، حتى للوهم نفسه إن جاز التعبير..

«حمدًا لله على سلامتك»، قال المتحدث بلهجة آلية، «حينما تصل إلى الفندق سنعلمك بالتفاصيل، أرجوك لا تحاول العبث وتمر من أمام العنوان الآن، آسيل ستغضب كثيرًا لذلك، سننتظرك هناك في المساء، في التاسعة مساءً، تعالَ وحدك».

أُغلق الخط، أخذ أدهم نفسًا طويلًا شاعرًا بالإزعاج، لم يتخيل أن يتحكم فيه شخص بهذه الطريقة، كان ذلك أكثر ما يكرهه فيما يحدث له، شعوره بالعجز والذل، بمرارة تحتويه، «أرجوك لا تذهب من الطريق المعتاد»، قال أدهم شاردًا ومفكرًا للسائق، «أقصد لا تُريني المكان الذي حدثتك عنه، لن يكون هناك أهمية لذلك».

وصل إلى الفندق، وقف عند الاستعلامات، ولأنهم يعرفونه جيدًا، رحَّبوا به، وأخذ أحد العاملين حقيبته الصغيرة وصعد بها نحو غرفته التي سيمكث بها بعد أن ينتهي من الإجراءات الروتينية، «هناك طرد في انتظارك»، قال عامل الاستعلامات والحجز، نظر إليه أدهم بعينين متسائلتين كان خلالها العامل يجذب شيئًا من خزانة خلفه، كان عبارة عن مظروف متوسط الحجم، ابتسم أدهم ابتسامة مصطنعة يشوبها التوتر وهو يلتقطه وسأل عن المرسل، «لقد كانت امرأة»، قال العامل، «خمسينية العمر، بدت هزيلة جدًّا، لم تتكلم كثيرًا، فقط تركت اسمًا، صوفيا، لم تقل أكثر من ذلك، بالتأكيد تعرفها؛ لأنها تعرف بميعاد وصولك الذي أخبرت إدارة الفندق عنه من أجل الحجز»، كان أدهم ما زال مبتسمًا ابتسامة ثابتة، يفكر فيما يقوله العامل، أومأ برأسه بعد لحظات من نظرة طويلة مفكرة

وشكر العامل بهدوء وهو يقلب المظروف بين يديه متسائلًا في نفسه عن محتواه، لم يكن هناك شيء مميز به، ظرف أصفر متوسط الحجم، مغلق بإتقان، دخل المصعد، كان هناك عامل المصعد وكذلك اثنان من المقيمين بالفندق، نظر إلى اللوحة التي توضح أرقام الطوابق، تمنَّى لو يفتح المظروف ولكنه يدرك عواقب الأمور، في المرة الأخيرة أرسلوا له إصبع امرأة نام معها لذلك بات سقف توقعاته كبيرًا، كبيرًا للغاية، كان الفضول والخوف في هذه اللحظة قد أوشكا على قتله، وبمجرد وصوله إلى الطابق المقيم فيه، اتجه سريعًا إلى غرفته، كان العامل في انتظاره أمام الباب يتحدث إلى إحدى العاملات، فتح له الباب، أقرضه أدهم بقشيشًا وطلب منه المغادرة، أخذ حقيبته ووضعها بجانب الباب وجلس على السرير وبسرعة فتح المظروف بريبة وترقب.

كان به خريطة صغيرة توضح بعض شوارع إسطنبول، بعض هذه الشوارع يعرفها جيدًا، هناك أيضًا كارت يُستخدم للعملاء المهمين بالبنوك يسمح له بالدخول إلى بنك ما، كانت هناك ورقة صغيرة أيضًا، لم يكن مكتوبًا عليها شيء سوى جملة واحدة «التاسعة مساءً ستعرف كل شيء»، تعجب كثيرًا وهو ينظر إلى كل تلك الأشياء أمامه، يدرك جيدًا أنه لا يملك حسابًا في أي بنك من بنوك تركيا، كما أن الخريطة التوضيحية ما الغرض منها؟! توقف قليلًا وأخرج علبة السجائر وقداحته، فتح النافذة المطلة على ساحة القصر المقدس والذي يعرف بطوب قبو بالتركية وتعني الباب العالي وكان مركز الحكم في الدولة العثمانية من منتصف

القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر، أخذ نفسًا ط
أشعره ببعض الراحة، سرح بخياله مع نسمات الهواء المنعشة ا
اقتحمت صدره، سمع صهيل جواد، وأبواق تنفخ لتعلن عن الحرب،
هناك بهيئة مختلفة يمسك في يده درعًا وسيفًا مشهورًا في مواجهة ج
ملفع بالسواد، كان هناك مبارز ضخم لا تظهر من ملامحه الغامضة س
عينيه، يقف في مواجهته، إنه أحد البرابرة بكل تأكيد، طوَّح سيفه ب
فاستقبل أدهم الضربة بدرعه فانقسم نصفين، وقف والهلع يجبره ؛
التحدي، فالخوف هو أكبر دافع للمواجهة أحيانًا، من ثم هوي البر
بسيفه مرة أخرى فتلقاه أدهم بسيفه فانقسم هو الآخر، أخذ المحا
نفسًا طويلًا وهو يستعد للضربة الأخيرة، أدهم على الأرض ينتظر ض
النهاية المفجعة، انتفض في مكانه وأغلق الشرفة، مسح العرق المتص
على وجهه، نظر حوله ليؤكد لنفسه عودة الواقع الذي لا يختلف ك
عن هواجسه السوداء، اتكأ بجبهته على الحائط وهو يسند عليه بكلتا ي
وكأنه يستعيد أنفاسه، فجأة انطلق في طريقه إلى البار بعد أن أغلق الغر
يحتاج إلى كأس من الويسكي المنعش ليخرجه من ظلمات أفكاره،
يكن هناك نزلاء ولا زبائن داخل البار في هذا التوقيت المبكر سوى ثا
أفراد، كان البارمان يستند بمرفقيه على البار حينما دخل أدهم، أمره
يجلب له كأس ويسكي بالليمون مع قطعتين من الثلج، جرعها د
واحدة وطلب كأسًا أخرى، نظر إلى البارمان لأول مرة بشكل واض
ابتسم ابتسامة غامضة، «أتعرف يا صديقي؟!»، قال أدهم وهو يهز الكأ
في يده، «نحن لا نختلف عن بعض كثيرًا، فكلانا يقدم المتعة للزبا

لكن كل على طريقته، نتفق على أننا نُسكر عقولهم، أنت بالكحول وأنا بمبادئي الجوفاء وكلماتي المصطنعة، ذلك العالم البائس يبحث عن أي طريقة تسكره»، ثم شرب الكأس مرة واحدة، «لكي يخرج من واقعه بأي ثمن، الآن أنا هنا من أجل واقعك أنت، أعتقد أنه الواقع المناسب لي الآن، أدرك أنك لا تفهمني ولكن لا يهم، كأس أخرى لو سمحت».

«الواقع أنني أفهمك جيدًا»، قال البارمان مبتسمًا ابتسامة لطيفة عارفة بالأمور وهو يصب له كأسًا أخرى، «لكنني تعلَّمت أن ما أصنعه بنفسي هو الواقع، اختيار البشر لواقع شخص أو عالم شخص آخر يعيشونه هو الجحيم، أعتقد أنك لست من هذه النوعية».

ضحك أدهم ضحكة مجلجلة حتى دمعت عيناه، حاول أن يتحدث ولكنه ضحك مرة أخرى وهو يشير بإصبعه السبابة إلى البارمان وكأنه قبض على أفكاره، كنوع من التحية «أنت جيد»، قال أدهم محاولًا التماسك، «بالفعل أنت جيد، يمكنك أن تصبح كاتبًا أو فيلسوفًا»، ابتسم البارمان ولم ينطق بكلمة، وبعد برهة قصيرة، أخرج أدهم من سترته المحفظة ومنحه مبلغًا كبيرًا، «هذا لك، احتفظ بالباقي، أنت تستحق ذلك»، أومأ البارمان برأسه ملقيًا تحية عليه، كان ينظر إليه وهو يغادر متثاقلا، التفت إليه أدهم على باب البار ونظر إليه نظرة أخيرة، «أتعلم؟!»، قال أدهم مستخدمًا يديه في الشرح، «إنها فرصة مثيرة لكي أجرب واقع غيري، فلقد سئمت من صناعة الواقع للآخرين، لتكن تجربة مثيرة، أو لتكن تجربة أخيرة».

الفصل السادس عشر

خرج أدهم من غرفته في تمام الساعة الثامنة والربع مساءً والخوف والقلق يستحوذان عليه، في طريقه إلى الخارج وجد فاطيم واقفًا في مواجهته فاتحًا ذراعيه، مبتسمًا ابتسامة تُنم عن نفاقه المعهود، «أدهم بك»، قال فاطيم متجهًا نحوه، «أنت هنا ولم تخبرني، مرحبًا بك في تركيا مرة أخرى، أرى أن الحب قد نال منك فعلًا»، لم يكن أدهم راغبًا حتى في رؤيته، لا يريد أن يعيقه أي شيء، لكنه كان يدرك أن فاطيم في تركيا يعتبر مفتاحًا للعديد من الأمور، فهو لا يُعتبر قوَّادًا فقط وإنما يستطيع أن يوفر له كل ما يطلبه، أجبر نفسه على الابتسامة وهو يصافحه بحرارة، «كيف حالك يا فاطيم؟!»، قال أدهم مداعبًا بتصنُّع متقن، «لقد سمنت كثيرًا»، وخبط على كرشه مداعبًا، «لديَّ موعد مهم الآن ولكنني بالتأكيد سأراك قريبًا».

«سأكون دومًا في انتظار مكالمتك»، قال فاطيم بلجهته الإنجليزية الركيكة، فاطيم صاحب جثمان قوي، ضخم، غير متناسق، حيث يبرز بطنه، له عينان واسعتان، وأنف مفرطح، يتميز برأس كبير وشعر خشن طويل لا يسرحه إطلاقًا فيظهر حوله وكأنه كومة من القش مجتمعة فوق سطح منزل، يرتدي قميصًا مفتوحًا حتى سُرَّته، سلسلة طويلة ذهبية تلف

رقبته، يرتدي أيضًا سروال جينز ضيقًا دائمًا، «أنا في خدمتك دائمًا يا أدهم بك، لكني أعتقد أنك في طريقك لمقابلة آسيل».

«آسيل»، قال أدهم متعجبًا، «هل قابلتها بعد مكالمتي؟!».

«لا»، قال فاطيم وهو يحك رقبته بيده، «لم أرها منذ فترة كما حدثتك، ألست ذاهبًا إليها؟!».

لم يكن أدهم يرد في هذه اللحظة، شعر شعورًا غريبًا ومخيفًا، لم يستطع تكوين رؤية واضحة، كأنه تمنَّى لو أن يسمع شيئًا آخر رغم كل الأدلة التي تؤكد الحقيقة المؤلمة، فنحن نتعلق بالأمل الكاذب دومًا رغم معرفتنا بالنهاية القاسية، عاد على صوت فاطيم، «لن أعطلك الآن ولكنني في انتظارك الليلة لتقضي معي ليلة مجنونة كليالي زمان»، وضحك فاطيم ضحكة ماجنة.

أخرج أدهم مبلغًا كبيرًا من المال ومنحه لفاطيم، «خذ هذا المال يا فاطيم، ولنا لقاء قريب»، يعلم أدهم تمامًا أن نوعية فاطيم لا تهتم بشيء في العالم سوى المال، يدرك جيدًا أن ما يشتريه بالمال أفضل في حالته من أن يخبر أحدًا آخر بما يحدث معه حتى وإن كان صديقًا مقربًا، فهو لم يقطع هذا المشوار ولم يقرر خوض تلك المغامرة إلا للحفاظ على نفسه في المقام الأول من فضيحة قد يسقط معها كل شيء، حينها ستكون النهاية وخيمة عكس كل توقعاته تمامًا، لقد فتح النار على نفسه بملء إرداته وعليه أن يستكمل المشوار الذي إما أن ينتهي بالمجد الذي ينشده أو ينتهي بالخزي الذي سيلاحقه حتى في موته، يعلم أيضًا أن

فاطيم في النهاية بلا ثمن، قواد لا يهتم سوى بالمال، إن انتهى لن يسأل عنه أحد، لن يهتم مَنْ حوله بمصيره أيًا كان، فالخلاص من فاطيم يعتبر بمثابة الخلاص من قشة قررت مواجهة الرياح الغاضبة، أخذ فاطيم المال ودسَّه في جيبه سريعًا بعد نظرة مثيرة عليه، شكر أدهم بحرارة ثم انطلق كل منهما في طريقه.

وقف أدهم في مواجهة البناية التي تقع في الطرف الشرقي من مدينة إسطنبول، حسبما هو مذكور بالورقة، نظر بحذر يمينًا ويسارًا، لم يكن هناك شيء ملفت، نظر في ساعته فوجدها التاسعة إلا خمس دقائق، دخل إلى البناية، كانت قديمة، يعود عمرها إلى سنين طويلة خلت، أخرج الورقة من سترته ليتأكد من رقم الشقة والطابق، لم يكن هناك أي نوع من المصاعد، فاضطر لاستخدام السلم في الصعود، فلم تكن الشقة على كل حال بعيدة، الطابق الثالث، الشقة التي تحمل الرقم تسعة، مع كل خطوة شعر بأن قلبه يغوص في قدميه، وصل إلى الطابق، أحس بهواء بارد ثقيل يغلفه، بثقل أنامله ونفسه أيضًا، أخرج من جيب سترته ذلك المسكن اللعين وابتلعه، بلع ريقه بصعوبة بالغة وهو يتجه نحو الشقة، لم يكن هناك جرس ما، بحث حول الباب ولكنه لم يجد شيئًا، نظر إلى الأرض وهو يقف في مواجهة الباب على بعد سنتيمترات، رفع يده ونقر على الباب نقرتين خفيفتين، انفتح الباب مع النقرات بهدوء وبطء مصدرًا أزيزًا ضعيفًا منفرًا، علم أن الباب كان مفتوحًا بالفعل، لم ينفتح الباب إلا بمقدار بسيط يسمح لفأر صغير بالمرور، فتح عينيه على اتساعهما، شعر بخوف ثقيل وألم في

بطنه، لم يكن يعلم ما عليه فعله، لكنه فتح الباب بهدوء وهو ينادي بكلمة واحدة باللغة الإنجليزية: «مرحبًا»، دخل بهدوء وباستعداد رجل خائف.. من مواجهة شيء قد يقفز في وجهه، باستعداد جندي أعزل يعلم تمامًا أنه قد يتلقّى رصاصة تخترق جبهته بمجرد الدخول، كانت الشقة فخمة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، شقة صغيرة ولكنها فخمة، أنتريه فخم بلون أحمر داكن، لوحات متعددة على جدران الصالة، أنتيكات من العصرين اليوناني والروماني منتشرة في أرجاء الشقة، لفت نظره تمثال متوسط الحجم للإسكندر المقدوني ملوحًا بسيفه في ركن الصالة من ناحية اليمين، كانت هناك موسيقى تركية قديمة تعزف بصوتٍ خفيض تصدر من مكان ما داخل الشقة، ربما من الشقة المجاورة، لكنه بعد لحظات أيقن أنها تأتي من إحدى الغرف، اقترب وهو ما زال يتفحّص المكان حتى أصبح في وسط الصالة، انتبه على مشهد يبثه التلفزيون المُعلَّق على الحائط خلفه، رأى شيئًا يعرض عليه، لم يكن مجرد مشهد في فيلم أو برنامج، لكنه فيلم مصنوع بأبطال حقيقيين، إنه هو في أحضان آسيل، نفس ما رآه على الـ «CD» الذي تم إرساله إليه، أمسك بلا إرادة جهاز التحكم الموجود على طاولة صغيرة أمامه وأغلق التلفزيون بعصبية، سمع فجأة صوت أنين يصدر من داخل إحدى الغرف، التفت تجاه الرواق القصير الممتد أمامه، يستطيع أن يرى ثلاثة أبواب مغلقة، منها بابان متقابلان، وباب في مواجهته، حاول أن يعود للخلف من أثر الرعب بحركة لا إرادية فاصطدم في الطاولة فوقعت المطفأة.. لاحظ أن هناك سيجارة ما زالت مشتعلة، نظر إليها وهو يفكر متوترًا بشدة، لم يكن الأمر يحتاج

إلى ذكاءٍ ليعلم أن أحدهم كان هنا، رأى مظروفًا مكتوبًا عليه اسمه، نظر إليه متعجبًا، وانحنى ليلتقطه ولكن حال دون ذلك الأنين الذي صدر مرة أخرى، فاستدار ناظرًا بقلق، لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل، اتجه بهدوء وهو لا ينطق سوى بكلمة واحدة: «مرحبًا»، كانت الكلمة تخرج مهزوزة من أثر الخوف الشديد المسيطر عليه، اكتشف أنه يستطيع أن يتكلم، ذلك الأمر أشعره بوجوده الذي أحس بفقدانه في اللحظات السابقة، وقف في مواجهة الباب الذي يصدر منه الأنين، استرق السمع بحذر وخوف، ليس أنينًا يصدر عن إقامة علاقة جنسية مثلًا، إنه أنين مقلق تندمج معه تلك الموسيقى التركية، شعر بأن أنفاسه تتثاقل أكثر، نقر على الباب نقرة خفيفة بعد تردد، ارتفع صوت الأنين بعد سماع النقرات بشكل ملحوظ، «هل أحد بالداخل، مَنْ هناك؟!»، سأل أدهم بذعرٍ، بصوتٍ مهزوزٍ مرتعشٍ، الأنين يتصاعد بشكل كبير زاد من خوفه، فتح الباب بقوة، ووقف ناظرًا قليلًا لأعلى بعيون جاحظة بعد أن سمع صوتًا مكتومًا مفزعًا، تسارعت دقات قلبه، فغر فاه، ارتجف بشدة، كانت آسيل تلف في دوائر صغيرة، معلقة من السقف بحبلٍ متينٍ، أصابع قدميها تشير لأسفل، حبل صغير تحت قدميه كان مربوطًا بمقبض الباب وموصولًا بالكرسي الساقط تحتها التي كانت تقف فوقه، كانت قدماها أحيانًا تحف في طرفه الآن حين دورانها البطيء المفزع.

لقد عرف الآن فقط لماذا لا ترد آسيل..

عرف أيضًا أنها لن ترد على الإطلاق..

الفصل السابع عشر

انتفض أدهم وهو لا يستطيع أن ينتزع عينيه من على جثة آسيل المعلقة، لاحظ أن وجهها متورم، وأن أحد أصابعها قد بُتر، كانت ترتدي قميص نوم أبيض قصير يكشف عن ساقيها، وكان ملطخًا بالدماء، ويكشف عن نهديها الملطخة بالدماء أيضًا، لم يكن الأمر مجرد مزحة، نعم يدرك أنه ليس مزحة ولكنه حتى اللحظة الأخيرة تمنى لو أن يكون كذلك، لكن الجثة أمامه أطاحت بكل شيء، بكل توقعاته وأمنياته التي ان يكرر خوضها، ظلَّ متسمرًا لدقيقة من هول المفاجأة كطفل يواجه أشد كوابيسه في الحقيقة، لا يستطيع الصراخ ولا طلب النجدة، ارتطم في الحائط الخلفي بقوة وهو يعود إلى الخلف، فاصطدم رأسه بقوة لوحة معلقة على الحائط فسقطت على الأرض محدثة جلبة كبيرة ادت من هلعه، لم يكن الألم يعني له شيئًا الآن، فرغم ما سمعه وكتبه في اياته عن القتل وفلسفته إلا أنه لم يتخيل للحظة أن يكون الأمر ثقيلًا مزعًا إلى هذا الحد، فالقتلى يبدون أكثر رعبًا من حقيقتهم الشائعة في الحكايات.

حَبَا مستخدمًا يديه وركبتيه من أثر الهلع المسيطر عليه، حاول الوقوف وبمجرد أن هرول تعرقل في السجادة ووقع على وجهه وكاد يصطدم رأسه بالطاولة في الصالة، وجد المظروف في مواجهته تمامًا، لم يكن ثمة شيء منطقي يمكن التفكير فيه، غريزته تدفعه إلى شيء واحد، الهرب، التقط المظروف بطريقة آلية واتجه نحو الباب بسرعة، لم ينظر خلفه لمرة واحدة، قفز السلالم بسرعة كبيرة، كاد يقع مرة أو اثنتين لكنه تمالك نفسه في اللحظات الأخيرة.

خرج مسرعًا من البناية، يلهث، أوقف أول تاكسي قابله، ودفع نفسه دفعًا فيه، وأمره بالانطلاق بسرعة إلى الفندق الذي يقيم فيه، بعد دقيقة تقريبًا من محاولة تجميع أفكاره المضطربة، سمع صوت هاتفه يرن، شعر بأن هاتفًا آخر يرن، لكن بعد لحظات أيقن أنه هو مَنْ عليه أن يرد.

«أدهم بك»، قال المتحدث بشكلٍ آليٍّ كعادته: «لقد تأكدت الآن من أننا لا نلهو معك، أنت متهم الآن بجريمة قتل، آسيل، ولا توجد لديك أي سلطة هنا في تركيا، ببساطة تامة نستطيع أن ندمرك بمكالمة هاتفية واحدة، لا تحاول أن تترك تركيا وإلا لن تخرج منها للأبد، بحوزتك المظروف بكل تأكيد، كل ما أنصحك به الآن أن تهرب، اهرب بقدر ما تستطيع، ستعرف بقية التفاصيل لاحقًا».

أغلق المتحدث الخط وترك أدهم شاردًا، أراد للحظة أن يبكي، أراد ذلك بقوة، لكنه لم يستطع، ما يحدث الآن كابوس لعين، لا بد أن أستفيق منه، سيأتي أحدهم ويركلني ركلة قوية ويأمرني بالخروج من

هذه الكوابيس اللعينة، ستأتي ليلى الآن وتوقظني على صوتها الحالم، ما يحدث لا يحدث إلا في الجحيم أو في تلك الأفلام والروايات التي تبهر معجبيها بتفاصيل لا تتحقق على أرض الواقع، بالطبع أنا أحلم، لم يكن يدري أنه يفكر بصوت مسموع في هذه اللحظة؛ لأنه بعد قليل سمع السائق يقول: «هل كل شيء على ما يرام يا بك؟!»، نظر أدهم فجأة له، علم أنه ما زال هنا، أن الكابوس ما زال مستمرًا، في الحقيقة أيقن أن الواقع ما زال هنا يتنفس بعجرفة من وهنه وعدم فهمه لما يجري، لم يرد، لم يقل كلمة واحدة ولكنه أمسك الهاتف لثوانٍ ثم بحث متوترًا عن شيء ما، ضغط على رقم في هاتفه، «فاطيم»، قال أدهم محاولًا تهدئة نفسه، «أريدك أن تقابلني حالًا خارج الفندق، أنت هناك الآن، أليس كذلك؟! إذن سأنتظرك، أريد أن أختفي من إسطنبول حالًا، أي مدينة أخرى، هل لديك مكان آمن لا يعرفه أحد؟! اتفقنا، ادفع حسابي الخاص بالفندق لأنني لن أعود مرة أخرى، لا تقلق سأعطيك ما تطلب، سأتصل بهم الآن لأخبرهم بالأمر، لا تتأخر.. اتفقنا، أنا في طريقي إليك الآن، لن أتأخر».

نظر أدهم فجأة إلى المظروف القابع بجانبه، اكتشف الآن فقط أنه أخذه قبل أن يهرب من الشقة المنكوبة، استعاد المكالمة الأخيرة، خاف أن يكون قد نسي شيئًا قاله له المتحدث المجهول، لعنه في سرِّه آلاف المرات، اتصل بإدارة الفندق وأخبرهم بالتفاصيل كما أخبر فاطيم، لم يلمس المظروف، فقط ظل ناظرًا إليه، شاردًا، أخرج علبة سجائره

وأشعل سيجارة، أخذ نفسًا عميقًا منها، أخرجه بهدوء وبطء وكأنه يرفض خروج الحياة منه، لمس المظروف بأطراف أصابعه وهو ينظر إليه نظرة جانبية، وضع السيجارة بين شفتيه، التقط المظروف وفتحه، كانت فيه علبة صغيرة بحجم علبة تجميل للنساء بلون أسود مغلقة، لم يكن هناك شيء آخر في المظروف، ظل يعبث بالعلبة في يده، لكنه لم يحاول فتحها، سمع صوت عربات الشرطة، نظر حوله متفقدًا مكانها، وجدها تنطلق مسرعة آتية في مقابلة التاكسي، نظر إلى الجانب الآخر مداريًا نفسه حتى مرَّت من جواره، تسارعت دقات قلبه بشكل كبير، أمر السائق بأن يسرع، حينما وصل كان فاطيم في انتظاره كما طلب منه، أمره بإشارة من يده بأن يركب بسرعة، ركب فاطيم متوترًا بعد أن وضع الحقيبة الخاصة بأدهم في حقيبة السيارة الخلفية.

«ما الأمر يا أدهم بك؟!»، قال فاطيم متسائلًا بتوتر: «هل حدث شيء؟!»، لم يجب أدهم في البداية ولكنه ابتسم بعد مجهودٍ كبيرٍ، بدت ابتسامة مرهقة لعدَّاءٍ انتهى من مارثون طويل..

«فاطيم»، قال أدهم محافظًا على ابتسامته، «قليل من المغامرة مهم لكي تشعر بالحياة».

«أدهم بك»، أشار فاطيم له وهو يهز يده في وجهه ضاحكًا، «أنت تفاجئني دائمًا».

نظر أدهم إلى المظروف مرة أخرى الذي أعاد إليه محتوياته قبل لقاء فاطيم الذي كان يقول في هذه اللحظة: «لقد جلبت لك كل شيء

من الغرفة، كان هناك مظروف أيضًا وضعته بداخل الحقيبة، يبدو أنك لم تكن تنوي المكوث هنا طويلًا، كما قلت لك، أنت تفاجئني دائمًا»، ابتسم أدهم دون أن يرد وهو يقول بمضض في نفسه..

«أنا أيضًا متفاجئ، متفاجئ للغاية».

الفصل الثامن عشر

علم أدهم أنه في طريقه إلى مدينة تدعى إزميد وهي عاصمة محافظة قوجة إيلي التي تبعد عن إسطنبول بمائة كيلو متر، أخبره فاطيم أيضًا بأنها قرب موقع مدينة نيقوميديا الأثرية، وبها أكبر ترسانة في تركيا، فهم منه بعد اعتراض يشوبه القلق أن عليه ألا يقلق لأنه ترعرع في هذه المدينة، ويعرف كل شبر فيها، كما أنهما سيقيمان في يخت ولن يستطيع أحد معرفة مكانهما، ووعده بأنه سيحظى بالهدوء الذي ينشده، كان أدهم يعرف أن الهدوء هو الشيء المستحيل الذي لن يحظى به، شيء في داخله أخبره بأن النهاية ستكون قاسية، حاول إبعاد كل تلك الأفكار عن رأسه، شعر بدوار وإرهاق شديدين، وقعت عيناه على المساحات الخضراء في طريقه إلى إزميد، أسند رأسه على زجاج نافذة السيارة بجواره، أغمض عينيه لكنه لم ينم.

عادت به الذكريات مع آسيل مرة أخرى، مجونها، جمالها، مضاجعتها المختلفة المثيرة التي تدفعه أحيانًا إلى الجنون، حكايتها البائسة التي سمعها عشرات المرات دون أن يشعر للحظة بأي شيء تجاهها، «أعلم أن نهايتي ستكون بائسة للغاية يا أدهم، طالما أن البداية كانت في الشارع

أضاجع المنحرفين والقوادين منذ أن كان عمري خمسة عشر عامًا، طالما أنني أكسب قوتي من جسدي، فإن النهاية حتمًا ستكون قاسية، لكن أتمنى أن تكون النهاية خلال نومي، حتى يكون نومًا أبديًا دافئًا، لم أهرب من أهلي ولكن عقلي المتهور أخذني على طرقات لا يمكن العودة منها مرة أخرى، لقد جلبت العار لأبي، خذلته كما يخذلك قلبك وأعتقد أنه الشيء الوحيد الذي يمكن الوثوق فيه، فاخترت أن يكون جزائي كذلك، أن أظل هائمة وأموت بلا هوية»، تذكر كلماتها بشيء من الحزن والألم.

أغمض عينيه بقوة، كان جفناه يرتعشان في هذه اللحظة، حينما واجهته جثتها هذه المرة، ببشرة قاتمة الزرقة، بعينين مجوفتين وفم مفتوح على آخره، وقميص نوم ملطخ بدماء سوداء، حاول إبعاد تلك الصورة المرعبة عن عينيه وبعد محاولات بائسة ابتعدت، لكنه كان يعلم أنها ستعود؛ لأنها هناك في منطقة ما في داخله، حُفرت بأظافر رجل دُفن حيًا في قبره.

تذكر فجأة خزانته الخاصة في شقته بالزمالك التي تعد مسرحًا لنزواته التي لا تنتهي، الأمر برمته كان بالنسبة له مغامرة غريبة وعنيفة، طموحه المفرط جعله يتجه لبيع كل أصول والده التي تركها له ليحقق ربحًا سريعًا يجعله يبدأ بداية قوية، يؤمن بأن البدايات القوية تحقق كل الأمنيات، تتحقق بلا شيء يعيقها، فوحده المال الذي يفتح الأبواب المغلقة، كاذبون هؤلاء الذين يدَّعون أن المال ليس غاية، في الحقيقة أن

المال هو الغاية الوحيدة في هذا العالم، فالحروب والأزمات والأمنيات والأحلام والوساوس والأمراض والقتل والمتاجرة والبورصة والسياسة وحتى النساء، كل تلك الأشياء يتحكم فيها المال، والمال فقط، لقد ضحّى بالمبادئ الجوفاء والأحلام القرمزية عن إنقاذ العالم من قبضة المتشددين والمتهورين والمتحدثين باسم الله والمتجبرين، لقد دخل في العديد من الصفقات المشبوهة من خلال أعماله، ولم يتوانَ عن تحقيق ما هدف إليه، وهو تجميع أكبر قدر من المال، لكنه أدرك في وقت سابق أنه مع كل جزء من المال كان يخسر جزءًا ما من نفسه.

تذكر حياته وزواجه من ليلى ابنة الوزير، والدها الذي ساعده في إدخال شحنة بضائع من أجل التجارة إبان فترة خطبته من ابنته والتي تضمَّنت صفقاته المشبوهة التي دخلت مصر، مَنْ ذلك المجنون الذي سيفتح بضائع تخص الوزير شخصيًّا؟! تذكر شركته التي أسسها قبل تلك العملية بسنتين، رجل أعمال وكاتب شهير، مَنْ ذلك المجنون الذي يمكن أن يشك فيه بعد كل ذلك؟! معرفته برجال الأعمال قادته إلى طرق شيطانية وعلاقات مختلفة يكاد أحيانًا لا يصدقها حينما يحاول التفكير فيها، أحلامه الجامحة جعلته لا يرى شيئًا سوى النفوذ والقوة، لم يتعجب من نهايته لأنه يعلم جيدًا أنها النهاية المناسبة، حاول ربط الخيوط القديمة بما يحدث له الآن ولكنه لم يجد أي رابط، حاول أن يستبدل نتيجة بأخرى وفكرة بفكرة أعمق ولكنه في النهاية لم يصل لأي شيء، يدرك تمامًا أن ما يحدث له ليس مجرد مصادفة، فيما يبدو أن الأمر معد له بإتقان منذ فترة طويلة ولم يكن هناك شيء ناقص سوى التنفيذ.

وضع أمامه كل أعدائه وإمكانياتهم لكنه لم يجد بينهم مَنْ يملك كل هذا الذكاء، كان مشوشًا، مرهقًا، يعلم تمامًا أنه أمام نوع مختلف من التحدي، تحدٍّ للبقاء، ليس من أجل بقائه هو ولكن بقاء ما صنعه وما سيجعل منه منارة فيما بعد، ذلك هو المجد بالنسبة له، والبقاء الأبدي الذي حارب من أجله طول حياته، فما أظلم أن تموت دون أن تأخذ الفرصة الكافية للدفاع عن نفسك، عاد مرة أخرى يفكر بالمجرمين الذين قابلهم على مر حياته، فقد كانت لعبته الوحيدة هي محاولة فك رموز تلك العقليات التي صدح بها على صفحاته وجعلت منه قلمًا لا يستطيع أحد مجاراته أو منافسته، تذكر ذلك المجرم في صعيد مصر الذي قتل جميع أفراد عائلته بدم باردٍ لمجرد أن هناك شيئًا ما همس له بأن يفعل ذلك الآن، والآن فقطً، تذكر أيضًا المجنون الإنجليزي الذي قتل ست مومسات، كان دافعه الوحيد أنه اعتقد أنه رجل من رجال الإله الذين أرسلهم ليُخلِّص الأرض من شرور هؤلاء المومسات، كلها أفكار غريبة، مفزعة، خارجة عن نطاق الطبيعة، وكذلك القتل، وكذلك أيضًا ما يواجهه الآن.

اعتقد للحظة أن ما يحدث معه ليس سوى تحدٍّ واضحٍ وجليٍّ لذكائه، ولكن ما الهدف من كل ذلك؟! هل يقتل أحدهم من أجل إثبات شيء ما لنفسه؟! تذكر حينما استعانت الشرطة برأيه في قضيتين، وكم كان يشعر بالزهو حينها رغم أنه كان يعلم أنه ليس أكثر من محترف يعرف تمامًا كيف يتلاعب بعقول وذكاء قارئيه، في النهاية أرضى الأمر غروره وأثبت

لنفسه جدارته، وفي جزء منه تعجب للفساد الفكري الذي يمكن أن يفتح العديد من الأبواب المغلقة.

«لقد وصلنا»، قال فاطيم بهدوء، «تفضل يا أدهم بك».

استفاق أدهم من أفكاره على صوت فاطيم الذي بدا ودودًا للغاية، هادئًا على غير عادته، أخذ حقيبة أدهم في يده وحاسب السائق وانطلق وهو يشير لأدهم على اليخت بجانب المرسى الذي ترسو فيه العديد من اليخوت الأخرى، فكر أدهم فجأة بأمر الشرطة حينما رأى اليخت، تعجَّب من نسيانه أمرها، ارتجف جسده للحظة خاطفة، هاجمته فكرة سوداوية فغلفت تفكيره، إن بصمات يده في كل مكان في الشقة، ولن يتطلَّب الأمر وقتًا طويلًا لمعرفة هويته والتأكد من أنه القاتل، يكفي الـ «CD» ليرشدهم إليه، سيكون دليلًا ممتعًا حقًّا لفريق المباحث والمحققين، الأديب المصري الذي قتل المومس التركية بعد مضاجعتها وتصويرها، خبر رائع سيجعل الجرائد تبيع طبعات لا بأس بها في يوم واحد، ارتجف للحظة وهو يرى الخبر منشورًا في الجرائد المصرية، ليس ذلك فقط، سيتسرب الـ «CD» على شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة وسيسقط أدهم طلال كما لم يسقط أحد من قبل، سيُجمع الكل على فشله، ستتلون الأقلام، ستبرأ من كل ما قدمه في عالم الأدب، سيجعلون منه مسخًا مجرمًا لا يستحق الحياة، سيتهافت المراهقون على أعماله أملًا في قراءة مشهد مثير.

أيقظه من كل ذلك صوت نباح كلب، نظر فجأة أمامه فوجد فاطيم يداعب كلبًا كبيرًا من نوعية «البولدوج» يتمسَّح فيه ويقفز مرحبًا به فرحًا بعد غياب، كان الكلب مربوطا بسلسلة كبيرة إلى أحد جوانب اليخت، نظر أدهم إلى فاطيم نظرة ذات معنى، ابتسم فاطيم مشيرًا بيده لأدهم أن يصعد دون خوف، فالكلب جاك يرحب دومًا بأصدقائه، صعد أدهم بحذر وهو ينظر إلى الكلب نظرة متوترة يغلفها الخوف، كان فاطيم يجلس القرفصاء في هذه اللحظة ويداعب الكلب من رقبته، تعجب أدهم من فاطيم وكيف يكون رقيقًا مع كلب رغم معاملته القاسية للمومسات اللاتي تعملن لديه، كان فاطيم ذكيًا بالقدر الكافي ليعلم بما يدور في نفس أدهم، «إنها لا تخون»، قال فاطيم بهدوء وهو ينظر إليه ولم يترك رقبة الكلب، «لا تخون أبدًا يا أدهم بك»..

ابتسم أدهم ابتسامة باهتة، حينها نهض فاطيم وأخذه إلى داخل اليخت، كان اليخت معدًا بشكل رائع، منظمًا ومرتبًا وفخمًا، كان به بار في نهايته، وسريران في الأعلى، كما كان هناك أنتريه صغير بلون أصفر وبعض أدوات الصيد معلقة في الركن الموازي للبار وصور لأسماك مختلفة معلقة على جدرانه، تعجَّب أدهم للحظة وتساءل في نفسه إن كانت مهنة القواد تدر عليه كل هذا المال! قاطع أفكاره فاطيم وهو يقف خلف البار يعد كأسين من الويسكي، «إنه ملك لأحد الزبائن الأوربيين»، قال فاطيم، «يتركه لي طيلة العام ولا يمكث فيه سوى أسبوعين فقط، اعتبره ملكي ولا تقلق من شيء، فهو ملكية خاصة، لا يستطيع أحد

الاقتراب منه، بمعنى أدق، لا يعلم أحد بوجودنا من الأساس، آتي إلى هنا من وقتٍ لآخر من أجل إطعام الكلب، رغم أنني أحيانًا أتركه لأحد أصدقائي ليعتني به، كما أنني أحب الاختلاء بنفسي كلما سمح لي الوقت، وهذا المكان هو الأنسب إن سألتني عن رأيي.. أعتقد أنك تحتاج إلى الراحة، بعد جولتك الصغيرة في اليخت، تعلم تمامًا أين يمكنك النوم، لن أزعجك ولكن اشرب هذه الكأس، ستساعدك على النوم بهدوء، سأنصرف الآن، إن احتجتني سأكون تحت تصرفك»، صمت فاطيم للحظة وهو يقف على باب اليخت ناظرًا إلى أدهم الذي كان شاردًا، يمسك كأس الويسكي بيده دون أن يحاول شربها، « أدهم بك»، قال فاطيم بابتسامة هادئة، «أيًا ما يكون دافعك للخروج من إسطنبول، فأنا لست بهذا السوء، لا تقلق»، وانصرف في طريقه.

أطرق أدهم برأسه للأرض وتناول رشفة من الكأس شاردًا، لم يكن يريد التفكير في أي شيء، أخرج هاتفه واتصل بليلى، حاول بقدر الإمكان أن يبدو طبيعيًا، نجح في ذلك، أغلق الخط بعد أن اطمئن عليها وطمأنها عليه، تجرَّع ما تبقَّى من الكأس دفعة واحدة، في الحقيقة لم يعلم أدهم في هذه اللحظة كيف نام ومتى!

الفصل التاسع عشر

استفاق أدهم على صوت هاتفه بعد أن نام تقريبًا ست ساعات، شعر بصداع قوي يتوغل في رأسه بشكل مؤلم، نظر إلى الهاتف وهو يمسك رأسه ويمسح على وجهه، لم يكن الهاتف يبعد كثيرًا عنه سوى خطوتين تقريبًا، تعجَّب حينما وجده متصلًا بالشاحن الكهربائي، تعجب أيضًا من وجود لفافة ورقية متوسطة الحجم بجواره على طاولة صغيرة، أغمض عينيه مجبرًا محاولًا الاستفاقة لتُكوِّن رؤية واضحة، نظر مرة أخرى إلى الهاتف الذي كان يرن بإلحاح في هذه اللحظة، نهض بصعوبة بالغة من فوق الأريكة الكبيرة، فرك رأسه بيديه، نظر للهاتف الذي توقف عن الرنين نظرة طويلة، ثم نظر خلفه إلى اللفافة بتشكُّكٍ، حاول أن يتذكر ما حدث قبل أن ينام، لكنه فشل تمامًا في ذلك، قاطعه صوت الهاتف الذي شرع يرن مرة أخرى، فتح وانتظر.

«سيد أدهم»، قال المتحدث بصوته الآلي المعتاد، «صباح الخير، أعتقد أنك في وضع لا يسمح لك بالنوم، لكن دعنا لا نضيع الوقت، معك كارد خاص ببنك تيكستايل، إنه كارد الولوج للشخصيات والعملاء المهمين في هذا البنك، هذا البنك يحتوي على أعلى جهاز أمني في

تركيا، كما أن هناك بصمات في العلبة الصغيرة، عليك أن تضعها بشكل مُتقن على أصابعك وإلا انكشف أمرك، سيتطلّب منك البصمة ليدك اليسرى، حينما تدخل إلى وديعتك الخاصة تأكد أنك لن تترك شيئًا، فكل الأشياء ستكون مهمة للغاية حتى ننتهي من هذا السخف، لا تنس أن تأخذ الخريطة معك، ستحتاجها بكل تأكيد، أمامك ساعتان فقط، بالمناسبة سيد أدهم، أنت تدهشني دومًا في اختيار مساعديك، فقوّاد هو الاختيار الأمثل»، وأغلق الخط.

ظل أدهم واضعًا الهاتف على أذنه، شاردًا، يفكر فيما قاله المتحدث، شعر بانقباض في صدره، أعطى أمرًا ذهنيًا ليده لتترك الهاتف، لكن هذا لم يحدث، اعتقد للحظة أنه في مهمة سرية من أجل الواجب، من أجل تطهير اسمه المهدد بالدنس، والدنس هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن الخلاص منه في هذا العالم، فقد يجتمع الكثيرون على نجاح شخص ما ولكن سيجتمع الجميع على فشل نفس الشخص، كان أدهم واثقًا من ذلك، فإن سمعته ليست مهددة بالدنس فقط بل بانقراضها إن كان ذلك أعمق تعبيرًا، شعر بأن عليه أن يفعل أي شيء من أجل تحقيق ذلك الواجب المقدس من وجهة نظره، فالموت ليس بعيدًا، لكن الموت الحقيقي في ألا يدافع عن شرفه واسمه، لم يكن لديه وقت للتفكير، اتجه نحو اللفافة الموضوعة فوق الطاولة الصغيرة، فتحها سريعًا، وجد وجبة من الأكل، تأكد أن فاطيم من جلبها وكذلك أيضًا هو مَنْ وضع هاتفه على الشاحن الكهربائي، انتفض فجأة واتجه سريعًا إلى سترته الملقاة

بجانبه، ودسَّ يده فيها بتوتر باحثًا عن العلبة الصغيرة، وجدها في مكانها داخل المظروف، فتحها بهدوء، وجد مادة مطاطية تأخذ شكل أصابع اليد، شفافة، مرتبة بشكل مميز، أخرجها بهدوء، تأكد من ترتيب الأصابع العشر رغم أنه سيحتاج ليد واحدة فقط كما تم إخباره ولكن يعلم أيضًا أنه لم يخطئ بإرسال بصمات اليدين له، انتظر قليلًا وهو يفكر، رغم شعوره بالخوف الشديد إلا أنه كان يشعر برغبة حقيقية في الانتهاء من كل ذلك، علم أنه اقترب من النهاية، وذلك كافٍ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وآمن في هذه اللحظة أن هناك ضحايا لكل شيء، وآسيل كانت الضحية، شعر بمرارة تسري فيه حينما تذكرها وتعجب من ذلك إلا أنه نحَّى تلك الأفكار عن رأسه سريعًا ليركز في مهمته.

اتجه إلى البار وصبَّ لنفسه كأسًا من الويسكي وتجرعه كله دفعة واحدة، لم يأكل شيئًا لأنه فقد شهيته تمامًا بسبب التوتر الذي انعكس على معدته، ارتدى سترته، شرع في تركيب المادة المطاطية على أصابعه، شعر بلزوجتها في اللحظات الأولى بعدما استخدم المادة الموضوعة معها في زجاجة صغيرة والتي تستخدم في تنظيف الأصابع حتى لا يعوق الأمر شيء، وقد أخذ وقتًا غير قليل ليفهم سر تلك المادة، أخذ الخريطة في يده وخرج من اليخت بعدما أغلقه، وفجأة هاجمه صوت نباح الكلب جاك فانتفض في مكانه وعاد للخلف وهو يصيح بكلمات غير مفهومة بشكل لا إرادي، نظر للكلب الهائج طويلًا محاولًا أن يستجمع قوته، سخر من نفسه بعدما غادر اليخت، إنني مقبل على مهمة لا يقوم بها

سوى الرجال الخطرين، المافيا إن صح القول، وأخاف من مجرد كلب مربوط بسلسلة! نظر إلى البحر الواسع أمامه وأخذ نفسًا طويلًا، لكن للحظة آلمه بدلًا من أن يُشعره بالراحة.

ركب تاكسي واتجه إلى البنك. يقع البنك في مدينة إسطنبول، طلب من السائق أن يُسرع، شعر في داخله بأنه ربما سيواجه الشرطة التي بالتأكيد تبحث عنه في كل مكان، شعر بأن محدثه قد أغفل هذا الأمر ولكنه أبعد الفكرة عن ذهنه؛ لأن محدثه يعلم تمامًا ما يقوم به، لا يخطئ، كانت كل العوامل التي يمكن أن توقفه عما يفعله قد باتت مستحيلة، شيء غامض يدفعه مع كل لحظة للاستمرار، يمكنه أن يذهب إلى الشرطة ويحكي لهم كل شيء وينتهي تمامًا من هذا السخف، لكنه أدرك أن التهمة ملتصقة به، لن يكون اعترافه شفيعًا له ولن يُصدقه أحد أمام أدلة لا ريب فيها، تسليم نفسه بمثابة الانتحار الذي يسبق الموت الأكيد والكامل.

وصل إلى البنك، ترجَّل من السيارة، وقف قليلًا وهو ينظر حوله، رجال أمن البنك في كل مكان، يبدو البنك رائع التصميم من الخارج، يغلفه المعدن، يشبه قلعة مُصفَّحة، مع تلك القبة الصغيرة في أعلاه ولون الزجاج الفضي الذي يُغلِّفه كاملًا، المبنى مكون من ثلاثة طوابق، دلف إلى البنك بخطوات متمهلة غير واثقة، حاول بقدر الإمكان ألا ينظر في عيني أحد، لكنه فشل في ذلك أكثر من مرة، كان أدهم بالذكاء الكافي ليبتاع بدلة جديدة لم تأخذ منه أكثر من عشر دقائق قبل أن يدلف إلى البنك، فمظهره السابق يجعل منه متشردًا، حتى وإن كان عميلًا سيشك

فيه أقل عامل أو رجل أمن يعمل بالبنك، ارتدى نظارة شمسية سوداء يخفي بها عينيه المرهقتين، جلب معه حقيبة صغيرة وضع بها الخريطة التي فتحها خلال الطريق ووجد أن هناك علامات حمراء رسمت بخط يدوي، لم يكن يعلم ماذا عليه أن يفعل! دار بعينيه في أرجاء البنك يتفحصه، يبحث عن نقطة البداية، خطأ واحد سيُضيع كل شيء، تماسك وهو ينظر إلى إحدى الموظفات التي تجلس تحت لوحة الاستعلامات الإلكترونية، جميلة بصدق، ترتدي قميصًا أبيض ضيقًا يبرز نهديها الكبيرين، اتجه ناحيتها بخطوات واثقة، لم يشك للحظة في تأثيره على النساء، ابتسم ابتسامة رقيقة في وجهها، وأخرج الكارد وأظهره لها، نهضت من مجلسها مسرعة بمجرد أن رأت الكارد، والتفت من حول مكتبها حتى وقفت في مواجهته وهي تتحدث بالتركية، أومأ برأسه دون أن ينطق بحرفٍ واحد، شعر أن كلمة واحدة بأي لغة ستُطيح به تمامًا، يبدو في لهجتها الترحيب الذي لا يخلو من الجدية، أشارت لأحد رجال الأمن ووقف بينهما، بعد أن تبادلا الحديث الذي تخلَّله الرعب الشديد الذي غلف أدهم، وكذلك الألم المفاجئ في أسفل معدته، أشار رجل الأمن باحترام إليه طالبًا منه أن يسير برُفقته، مشى أدهم بخطوات متمهلة متشككة، أخذ نفسًا طويلًا، لا يعلم إلى أين يأخذه رجل الأمن، دخلا إلى غرفة لا يوجد بها شيء سوى لوحة إلكترونية موضوعة بشكلٍ مائلٍ، مرفوعة على عمود معدني بطول متر وربع تقريبًا، أحد جدران الغرفة زجاجي، يقف خلفه اثنان من رجال الأمن المسلحين، كل منهما يقف في مواجهة الآخر بثبات وكأنهما في عرض عسكري، خلال ذلك دخل

رجل فارع الطول يبدو أربعيني العمر، وسيم، يرتدي بدلة رسمية ويُعلِّق شارة على سترته تحمل اسمه ومهنته في البنك، لا يستطيع أدهم أن يقرأ اللغة التركية ولكنه تكهن بأنه أحد مسئولي البنك المهمين، خرج رجل الأمن الذي اصطحبه من الغرفة بعد إشارة من يد المسئول، ابتسم في وجه أدهم ورحَّب به، أومأ أدهم بابتسامة مصطنعة، وضع الحقيبة بجواره بعد أن فهم من لكنته أنه يطلب منه الكارد، أخرج أدهم الكارد بعد أن وضعه في جيب سترته مرة أخرى وأعطاه له، اقترب الرجل من الجهاز وسحبه على جزء خاص بذلك في جانب الجهاز، لمعت الشاشة المنطفئة، وأصدرت صوتًا وفهم أدهم أنه ترحيب بشكلٍ ما، ظهر على اللوحة شكل إلكتروني لكف يد بلون أحمر، علم أن عليه أن يضع يده بالكامل عليه ليتأكد من هويته، نظر أدهم بتشكُّكٍ إلى اليد أمامه، يعلم تمامًا أن خطأً واحدًا سيصدر إنذارًا في البنك وسيتم القبض عليه وينتهي كل شيء، ابتسم ابتسامة باهتة للموظف في رفقته الذي أشار له بيده أن يقوم بالإجراءات المتبعة حتى يستطيع الولوج إلى وديعته الخاصة، وضع أدهم يده اليسرى بهدوء على اللوحة، ظهر وميض إلكتروني، ماسح ضوئي ظل يذهب هبوطًا وصعودًا مرتين، وكذلك يمينًا ويسارًا، يقوم بمهمة التأكد من البصمات أمامه، فجأة أعطت الشاشة وميضًا ثم تحوَّلت إلى اللون الأخضر، رفع أدهم يده بعد أن شعر ببعض الراحة لكن فجأة ظهر أمامه طلب لإدخال الرقم السري المكون من ثمانية أرقام، اندهش أدهم، شعر بالفزع، لم تكن لديه أدنى فكرة عن أية أرقام سرية، حاول أن يتذكر سريعًا التعليمات التي تلقاها مسبقًا، لم يكن هناك شيء، أنا

أ... من ذلك، كانت اللوحة الإلكترونية تلح في طلب الرقم السري
.. خلال الصوت الصادر منها، «لو سمحت أدخل الرقم السري»، نظر
.. الموظف نظرة جانبية، كان الأخير مشبكًا يديه أمامه، ينظر بتحدٍّ
.. ب وانتظارٍ، ينتظر أن يُدخل أدهم الرقم السري ليعود إلى مكانه أو
.. ظر الخلاص من محتالٍ جديدٍ، في النهاية كان الخلاص هو النتيجة
.. نظرة، لمعت عينا أدهم وهو يشعر بقلقٍ وخوفٍ شديدين تملَّكا منه،
.. ظر إلى الشاشة محاولًا التركيز، مفكرًا كأنه لم يفكر من قبل.

الفصل العشرون

وضع أدهم يده على اللوحة وكأنه سيهم بإدخال الرقم السري في هذه اللحظة الصعبة، لم يتذكر سوى رقم واحد، الرقم الوحيد الذي تكرَّر كثيرًا في الفترة الأخيرة، الرقم الذي تم إرساله إليه بأكثر من طريقة، 1541972، لكن هذا الرقم مكون من سبعة أرقام، نظر بريبةٍ إلى الجهاز، يعلم جيدًا أن خطأً صغيرًا سيطيح به وبكل شيء، خفض رأسه قليلًا، فكَّر قليلًا وكأنه استنتج شيئًا، بالتأكيد مَنْ عرف كل ذلك يستطيع أن يعرف أن الرقم السري الذي يستخدمه هو نفسه تاريخ ميلاده، الخامس عشر من أبريل عام 1972، شرع أدهم بإدخال الرقم من اليسار إلى إلى اليمين بتمهل وتشكك كبيرين بعد أن أضاف صفرًا استبدالًا بالرقم الناقص ليصبح المجموع ثمانية أرقام.

1-5-0-4-1-9-7-2

اختفت الشاشة التي تحمل النافذة الإلكترونية ثم ظهر وميض أخضر أضاء لثلاث مرات متتالية ثم انطفأ، انفتح الباب الزجاجي بعد ذلك مباشرة، ابتسم الموظف لأدهم ثم أعطاه الكارد وسبقه بخطوتين وهو يشير له بالتقدم عبر الباب الزجاجي، شعر أدهم براحة كبيرة وبأن مهمته

على وشك الانتهاء، لم يكن يفكر في شيء سوى إنجاز هذا الأمر سريعًا، والخروج من هذا المأزق اللعين الذي يهدد حياته وموته أيضًا، لم يفكر فيما سيجده في الوديعة التي كانت ستكلفه الكثير، نسي كل اللحظات الصعبة التي مر بها، في الحقيقة شعر بسعادة غريبة رغم أنه في منطقة معينة في داخله كان يشعر بالخوف والترقب، في هذه اللحظات كان أدهم يقف في غرفة بدت له مصفحة ممتلئة بالعديد من الخزائن المتراصة فوق بعضها على شكل أدراج والتي تأخذ شكلًا مستطيلًا، وقف الموظف في منتصف الغرفة، كان هناك خزانة واحدة فيها دائرة صغيرة مضاءة باللون الأخضر من الأمام، اتجه الموظف ناحيتها ثم جلبها، فهم أدهم أن بصمة اليد تؤكد هويته وتساءل في نفسه: «تُرى لمن تكون هذه البصمات التي تحتلها أصابعه؟!»، فهم أيضًا أن الرقم السري هو ما يعطي السماح بالولوج للخزينة في الداخل من خلال الإضاءة الخضراء التي تشير بقابلية فتحها على عكس الخزائن الأخرى المتواجدة والتي تضيء بدوائر حمراء صغيرة مثبتة في منتصف كل خزانة.

أخرج الموظف الخزانة التي كانت على شكل مستطيل ومغلقة، حملها واتجه خارجًا من الغرفة، تبعه أدهم بحذر وترقب حتى دخلا إلى غرفة مغطاة بستارة سوداء، توجد فيها منضدة صغيرة، وضع عليها الخزانة وأشار لأدهم بأن يدخل، أغلق الستارة عليه وانتظر في الخارج، ظلَّ أدهم ناظرًا تجاه الموظف الذي اختفى عن ناظريه خلف الستارة لدقيقة وهو يفكر متشككًا، أخذ نفسًا عميقًا وهو ينقل بصره بين الخزانة

والستارة متأكدًا من مغادرة الموظف، متسائلًا في نفسه عمّا تحويه الخزانة التي أوصلته إلى هذه النقطة، وقف بهدوء في مواجهتها، فتحها، لم يكن هناك شيء سوى بعض آلاف الدولارات ومسدس صغير صناعة أمريكية يصلح لامرأة وأوراق مكتوبة بلغة فرنسية، وجد أيضًا قطعة معدنية على شكل مثلث متساوي الأضلاع في حجم علبة سجائر، وهو نفس حجم القطعة التي أعطاها له الشيخ غانم، موضوعة في علبة أنيقة نحاسية اللون، كان شكلها قديمًا مميزًا، صناعة يدوية، شعر أنها تعود لمئات السنين، كان محفورًا عليها حرف آخر باللغة العبرية بشكل مميز للغاية، كانت الحواف مصقولة بشكل حِرفي رائع، كما أن الجانب الأيسر من القطعة المثلثية يوحي أن هناك جزءًا آخر يمكن تركيبه، لم يفهم أدهم وهو يُقلِّبها بين يديه، لم يفكر طويلًا ولكنه انتهى سريعًا لوضع كل شيء في الحقيبة التي أتى بها، تأكد من أن الخزانة قد أصبحت خاوية تمامًا، أغلق حقيبته واتجه مسرعًا للخارج، أومأ للموظف الذي كان في انتظاره في الخارج، خرج أدهم سريعًا، ألقى ابتسامة على الموظفة التي قابلها في ردهة البنك، في هذه الأثناء كانت تنظر له وهي تمسك بيدها الهاتف، في الحقيقة لم تعجبه نظرتها وابتسامتها الباردة التي كانت مرتسمة على وجهها، شعر بانقباض في صدره، لكنه جارى كل ذلك وخرج من البنك، وبمجرد أن خرج منه، سمع صوت عربات الشرطة وهي تصيح بصوتها المعهود، العديد من عربات الشرطة في هذه الأثناء كانت في اتجاه البنك، وقف أدهم مشدوهًا، مُتسمرًا في مكانه، شعر بخدر في قدميه، الشارع مكتظ بالعديد من المارة وقد تسلَّطت أعينهم على ذلك المشهد الذي يدفع

أي إنسان للفضول لما يجري، وصلت السيارة الأولى وأطلقت مكابحها صوتًا عاليًا ألقى الفزع في قلوب الجميع وخصوصًا أدهم، كان هاتفه يرن منذ ثوانٍ، أخرج الهاتف ليرد، كان الصوت الآلي واضحًا: «اهرب يا سيد أدهم، لا تنسَ الخريطة»، لم يفكر أدهم للحظة وهو يهرول بين المارة، بينما لفت انتباه أحد الشرطيين في السيارة الأولى مظهره فانطلقا خلفه، لم يكن أدهم يعلم أنه بمثل هذه السرعة، لم يكن يفكر في شيء سوى أن ينجو بنفسه، لا يعلم تحديدًا لِمَ الشرطة تلاحقه! هل بسبب ما حدث في البنك؟! أم بسبب مقتل آسيل؟! في الحقيقة رجَّح السببين، فقد أصبح الآن قاتلًا وسارق بنوك محترف.

دخل إلى زقاق صغير بين بنايتين في شارع جانبي لم يجد غيره بجوار البنك، بدا له الشارع لا ينتهي ولكنه لمح وهو يجري بسرعته السيارات التي تقطع طريقًا مواجهًا له، كانت السيارات مسرعة، يبدو أنه طريق ذو اتجاهين أيضًا، كان الشرطيان يبعدان عنه بنحو خمسين مترًا، دخل إلى أحد الأبنية ووضع الحقيبة سريعًا على الأرض وفتحها، أخرج منها الخريطة وانطلق يعدو في الشارع، كان على وشك أن يمسك به أحد الشرطيين الذي يسبق الآخر، لكنه دفعه دفعة قوية بيده فارتطم بالأرض، توقف الشرطي الآخر لثوانٍ ليطمئن أن زميله بخير واستكمل ملاحقة أدهم الذي وصل إلى بداية الشارع، حاول أن يوقف أكثر من تاكسي ولكن لم يتوقف له أحد إلا في اللحظة الأخيرة التي اقترب منه الشرطي فيها وأوشك على الإمساك به، لم يكن أدهم يستمع إلى التهديدات التي

، ،فهمها، لم يكن في حاجة لفهم لغة شرطي يشهر سلاحًا في ظهره
، ،أمره بكل تأكيد بالتوقف أو إطلاق النار، دفع نفسه دفعًا إلى التاكسي،
ا،سك بالخارطة بين يديه وهو لا يشعر بأنفاسه التي كادت تنقطع، أمر
السائق أن يسرع مُبتعدًا عن إسطنبول، وأن يذهب على الفور إلى إزميد،
.ظر إلى الخارطة أمامه سريعًا، وجد أنها تشير إلى المكان الذي يوجد
،ه الآن، تعجَّب للحظة، وسرعان ما توقف الطريق تمامًا، أدرك أدهم أن
الشرطة قد أوقفت الطريق للقبض عليه، لم ينتظر طويلًا، خرج مسرعًا
.ن التاكسي دون أن يقول كلمة واحدة للسائق، كان ينظر للخريطة من
وقت لآخر، كانت هناك علامات حمراء متعددة في الخريطة، لم يكن
هناك سوى علامة خضراء واحدة وهي تبعد أربعة شوارع عن المكان
الذي يوجد فيه، كان عليه أن يقطع شارع Kore Sihetleri، وكذلك
شارع Mithat وشارعين جانبيين عدوًا، انتشرت الشرطة في كل مكان،
كان يمكنه أن يتأكد من ذلك من خلال صوت السارينة المعروفة المنتشرة
في كل مكان، شعر بأنه انتهى، لقد انتهى الأمر وانتهى معه كل شيء،
لكنه في لحظة لم يعلم سرها، ترك قدميه للرياح تسبقه، كان يجري بكل
ما أُوتي من قوة، كان هناك أكثر من رجل شرطة يجرون بين السيارات
المتوقفة في اتجاهه، رغم أنه يراهم إلا أنهم بعيدين بقدرٍ كافٍ، نظر
للخريطة مرة أخيرة، دلف إلى الشارع الموضح بها، وقف فيه، كان
الشارع يعج بالناس، لم يفهم شيئًا مما يحدث، من وقتٍ لآخر ينقل بصره
بين الخريطة والمارة، يهرول وكأنه يبحث عن شيء ما، عن الخلاص،
لمح بعينٍ متشككةٍ فاطيم وهو يقف بجوار سيارة صغيرة يتحدَّث إلى

امرأة خمسينية، فكر للحظة غير مدرك، كان متشككًا فيما يحدث ولكنه سرعان ما جرى تجاهه ثم وقف وهو لا يستطيع أن يتفوّه بكلمة من أنفاسه المتلاحقة جرّاء التعب والعدو المستمر، «فاطيم»، صاح أدهم بصعوبة بالغة، «فاطيم»، نظر فاطيم بوجهٍ غاضبٍ حائرٍ في البداية، ثم سرعان ما تحوّل إلى التعجب والتشكك أيضًا، جرى مسرعًا تجاه أدهم، «ماذا حدث؟!»، سأل فاطيم متوترًا، «ماذا حدث لك؟! وما الذي أتى بك إلى هنا؟!»، نظر إليه أدهم نظرات ذات مغزى، لم يتضح على فاطيم أنه يفهم شيئًا، أو هكذا بدا لأدهم الذي انقطعت أنفاسه تقريبًا، «أخرجني من هنا بسرعة»، قال أدهم وهو يستجمع أنفاسه، «بسرعة يا فاطيم، فالشرطة تلاحقني»، لم يفكر فاطيم سوى للحظات مرتبكًا وهو يشير لأدهم بأن يدخل إلى بناية بجوارهما حالًا، ثم أخبره بأن عليه أن يقابله في أول الشارع خلال دقيقتين، لمح أدهم فاطيم وهو يدس نقودًا في جيبه أعطتها له المرأة التي كان يقف معها، وقف أدهم داخل البناية محاولًا استجماع أنفاسه اللاهثة وهو يشعر بالخوف الشديد والتوتر، كان ينظر من وقت لآخر بدافع الخوف والفضول داخل الشارع، يدس رأسه خارجًا ثم يعود بسرعة مرة أخرى فزعًا وهو يلعن نفسه وفاطيم وحياته وكل شيء، شعر أن المهلة التي منحها له فاطيم تُقدَّر بسنواتٍ وهو يرى أفراد الشرطة التي تجري في خط مستقيم باحثة عنه.

ظهر فاطيم فجأة داخل سيارة يقودها، أشار إلى أدهم بأن يسرع، بالفعل جرى أدهم بسرعة كبيرة تجاه السيارة وسرعان ما جلس ثم وضع

الحقيبة فوق قدميه، انطلق فاطيم مسرعًا متخذًا طرقًا داخلية وأزقة، لم يكن أدهم يفهم شيئًا على الإطلاق، لكنه لم يحاول أن يفكر في شيء سوى الهرب الآن، في النهاية كان الاثنان في طريقهما إلى إزميد بعد أن اختفت سيارات الشرطة الثائرة، لم يتكلم أدهم، لم يتفوه بكلمة وكذلك فاطيم، كان أدهم لا يشعر بشيء سوى الشك الذي لا ثاني له، ما الذي أتى بفاطيم عند النقطة المحددة الموضحة في الخريطة؟! ولماذا فاطيم ظهر فجأة عند الفندق رغم أنه لم يخبره بقدومه إلى تركيا؟! ما الدافع الحقيقي خلف قواد يساعده؟! ولماذا ذكر له المتصل المجهول علاقته بقواد؟! أسئلة كثيرة نهشت عقل أدهم الذي كان ينظر لفاطيم بجانب عينيه، شعر بالخوف والإرهاق الشديد فتملكه الحذر، قبض على الحقيبة بكلتا يديه، لم يحاول أن يغفو، في الحقيقة كان أدهم مُتشككًا حتى في نفسه، يدرك أيضًا أن خلاصه لن يكون سوى في هذه الحقيبة التي يحملها، انتظر أن تأتيه مكالمة واحدة بعدما أتم المطلوب منه بنجاح، ينتظر الخطوة الأخيرة لينتهي كل هذا السخف، في الحقيقة لم يتلقَّ شيئًا، فكر لوهلة بأمر المكالمات التي لا تأتيه إلا في غياب فاطيم، هذا الأمر الأخير جعله أكثر تشككًا، على الجانب الآخر كان فاطيم شاردًا في الطريق، لا يتكلم على الإطلاق، نظر لأدهم أكثر من مرة معتقدًا أنه لا يتابعه، نظر أمامه دون أن يفكر في شيء، فجأة تذكر أدهم المسدس في حوزته، شعر ببعض الراحة، راحة لا تخلو من الترقب والخوف اللعينين، أمسك هاتفه وعبث به، اتصل بالرقم الذي يتصل به دائمًا، وجده غير موجود بالخدمة،

زاد شكه، «هل أنت بخير الآن؟»، قال فاطيم، «لا تتعب نفسك الآن ولا تفكر في أي شيء، تحدث وقتما تشعر بالرغبة في ذلك فقط، حاول أن تستريح الآن يا أدهم بك».

«لا تقلق»، قال أدهم بلهجة غريبة، «أنا بخير، بخير تمامًا».

الفصل الواحد والعشرون

دلف الاثنان إلى اليخت، رغم إرهاق أدهم إلا أنه لم ينقل بصره عن فاطيم، فكر بأمر المسدس مرة أخرى، أخبر فاطيم بأنه سيصعد لتغيير ملابسه، حينما شعر بأنه وحيد، فتح الحقيبة بسرعة وأخرج منها المسدس، حشره بين سرواله وخصره، نزل سريعًا إلى فاطيم الذي لاحظ أن أدهم لم يغب كثيرًا، نظر للأخير مبتسمًا ابتسامة باهتة، كان حينها يصب كأسين من شراب الجين الثقيل، وضع قطعتين من الثلج وأعطى أدهم كأسًا، أخذه من يده وهو ينظر إليه نظرة طويلة، الكثير من الأفكار كانت تحوم بمخيلته في هذه اللحظة، كانت جميع الأفكار سوداوية للغاية، ليست في مصلحة فاطيم بكل تأكيد، حينما استدار فاطيم ليعيد ملء كأسه، وقف أدهم بسرعة وأخرج المسدس ووضعه على رأسه..

«اعترف يا فاطيم بكل شيء»، صاح أدهم متوترًا والعصبية متملكة منه، «لن يضير بأن تكون هناك جثة ثانية، في النهاية أنا ميت ميت، اعترف الآن وقل لماذا فعلت بي كل ذلك؟! ولا تتحدث بالترهات، فأنا لن أصدقك مرة أخرى، قل لي لماذا قتلت آسيل؟! لماذا أقحمتني في هذه اللعبة القذرة؟! إن كنت تريد مالًا فلِمَ لم تطلبه مني؟! ما الداعي لكل ذلك؟!».

كان فاطيم رافعًا يديه بجوار رأسه وفي إحدى يديه الكأس الفارغ، لم يكن يشعر بالخوف بالطريقة التي توقعها أدهم، كان ثابتًا، محاولًا بقدر الإمكان أن يهدئ منه، عرف في لحظة ما أن أدهم لن يُطلق النار، لكنه أيقن بعد ذلك أيضًا من خلال كلمات الأخير أنه لن يتردد عند لحظة فاصلة في أن يطلق النار، فالجريمة تتم دومًا في لحظة مسروقة من أنفسنا.

«لن أستطيع أن أخبرك»، قال فاطيم بهدوء، «لن أستطيع أن أخبرك بكل شيء وأنا على هذا الشكل يا سيد أدهم، أرجوك اهدأ قليلًا، فأنت مَنْ يحمل المسدس ولست أنا».

فكر أدهم لثوانٍ فيما قاله فاطيم، دفعه دفعة قوية فسقط على الأرض وكذلك الكأس فانكسر محدثًا ضجة كبيرة تلاحمت مع صوت الموج في الخارج، سمع أيضًا على إثرها نباح الكلب الذي لم يتوقف في الدقائق الطويلة التالية إلا على صوت رصاصة، جعله أدهم يجلس مرغمًا في مواجهته على الأريكة، وضع رجله اليسرى بجواره وهو يوجه المسدس إلى رأسه، نظر فاطيم في عيني أدهم وتأكد من حقيقة سوداء، تأكد أن أدهم لن يتردد بالفعل في إطلاق رصاصة إن لم يختر كلماته بشكل مناسب، «بماذا تريدني أن أعترف يا أدهم بك؟!»، قال فاطيم.

«بكل شيء بداية من قتل آسيل».

«أدهم بك، أقسم لك إنني لم أعرف بموت آسيل»، قال فاطيم بنبرة صادقة، «سوى اليوم حينما غادرت اليخت وعن طريق أحد الأصدقاء

ولا أدري أنك تعرف بذلك، ما الداعي لقتلها وهي تُدر مالًا لا بأس به؟! أنا قواد وتاجر مخدرات أحيانًا يا أدهم بك ولست قاتلًا، لا أدري حقًا عمَّ نتكلم، أؤكد لك أنها الحقيقة، وإن كنت أنوي بالفعل الخلاص منك فلِمَ لم أفعل ذلك منذ البداية؟! أو الآن مثلًا حينما كانت تهاجمك الشرطة وتبحث عنك في كل مكان؟! هل أنا في وفاق معهم لكي أتحمل مسئولية إخفائك؟!».

«أنت تكذب»، قال أدهم بعصبيةٍ ويدٍ مرتعشةٍ، «ما الذي جاء بك إذن إلى المكان الذي وجدتك فيه في إسطنبول اليوم، لا تقل لي إنها مجرد مصادفة؟!».

«ليست مصادفة»، قال فاطيم وهو يتصبب عرقًا، «أذهب إلى هذا المكان بانتظام لأبيع المخدرات لبعض الزبائن المهمين، كل يوم أربعاء أكون هناك في نفس التوقيت يا أدهم بك منذ أسبوعين».

نظر إليه أدهم نظرة طويلة متشككة، سرح بفكره لثوانٍ ثم نظر إليه مرة أخرى، «زبائن مهمين؟!».

«نعم يا أدهم بك»، قال فاطيم وهو يمسح على جبهته، «سيدة خمسينية تبتاع مني المخدرات بشكلٍ منتظم كل يوم أربعاء وتعطيني مالًا وفيرًا، إنها أفضل زبونة حصلت عليها في الفترة الأخيرة».

«أنت تكذب يا فاطيم ثانية»، قال أدهم بهدوء هذه المرة، وبنبرة أقل تشككًا.

«أقسم لك إنني لا أكذب، فالزبونة موجودة، قد رأيتها معي اليوم، هي التي تتصل بي دومًا، أنت تعرف أنني لا أتصل بزبائني حتى لا أسبب لأحد منهم أية مشكلة، أنا أقل بكثير من إيذاء أي أحد يا أدهم بك، مَنْ هم مثلي يعيشون على الجانب الآخر من العالم، لا نشارك هذا العالم أبدًا في أحداثه، نبقى دومًا في الظل البعيد، في ذلك الجانب الذي يتكوَّن من شهواتكم ورغباتكم المكبوتة، نحاول تحقيقها في مقابل حفنة من المال تلقونها في وجوهنا ثم تلعنوننا بعدها بما يزيد على قيمتها آلاف المرات».

«ولمَ تساعدني يا فاطيم؟!»، قال أدهم بنبرةٍ وضح فيها المكر، «ما العائد عليك من كل ذلك؟!».

«لو أقسمت لك بكل شيءٍ غالٍ في هذه الحياة»، قال فاطيم بنبرة صادقة للغاية، «بأنني لا أعرف لماذا أساعدك فلن تصدقني، أعرف ذلك تمامًا، لن أتعجب منه ولن أتساءل عن سبب إطلاقك للرصاص عليَّ؛ لأنني أعرف أنها النهاية الأكيدة لمن هم مثلي يا سيد أدهم، لكنني أقول الصدق ولا أملك غيره، إن قتلتني ستعرف الحقيقة بكل تأكيد وستكتشف أنني لم أكن طرفًا في حساباتك، لم أكن يومًا نِدًّا لك أو لأي أحدٍ كان، فأنا لا أكذب ولا أملك تلك الحياة التي تملكون فيها خيار الصدق والكذب، الآن القرار لك، فلم يعد لديَّ ما أقوله، كل ما حدث أنني أخطأت، كنت أصوِّر الزبائن في أوضاع مخلَّة ولم أفكر يومًا في استخدام تلك المشاهد ضدهم بأي شكل، لكنها للحماية منهم في يوم قد أتعرض فيه للخطر

...بهم، في عالمي لا يمكن توقع أي شيء ولن أموت هباءً، لقد جاءني ا مدهم وهددني وطلب مني الفيلم الخاص بك وأخذه بالفعل مقابل مالٍ ، بير، لا أعلم حقًّا كيف علم بهذه المسألة التي لا يعرفها أحد غيري، لم ،كن أمامي خيار آخر، ذلك الرجل لم يكن يمزح؛ لأنه قادر على الإطاحة بي بالضغط ببساطة تامة على زناد بندقيته الألمانية، هو الذي اتصل بي أيضًا وأخبرني بقدومك إلى تركيا وبأن أقدم لك المساعدة إن طلبتها، في الحقيقة وأقسم لك ليس هو السبب ولكن إحساسي بأنني ورطتك بما يكفي هو الذي دفعني لمساعدتك، صدِّق ذلك أو لا تصدقه فالأمر يعود لك، لا أملك ما أقوله وهذه كل الحقيقة».

نظر أدهم إليه طويلًا، شعر بصدقٍ بالغٍ في لهجته، فالقتلى لا يكذبون قبل لقاء حتفهم، لا يكذبون في حضور مسدسٍ محشوٍّ برصاصات باردة تنتظر الخروج لتقوم بمهمتها التي صُنعت من أجلها، أطلق رصاصة فجأة في سقف اليخت من فرط غضبه، على إثرها توقف نباح الكلب الذي ظل مستمرًّا طوال الفترة الحرجة السابقة، أبعد مسدسه بهدوء وهو ينظر إلى فاطيم بتشككٍ وغضبٍ، ترك نفسه فهوى بجوار فاطيم، لم يترك المسدس ومسح بيده الأخرى على وجهه، لعن كل شيء في نفسه، أعاد ترتيب الخيوط مرة أخرى، نظر إلى فاطيم الذي كان جالسًا يرتجف في هذه اللحظة لا يتفوه بكلمة.

«قلت لي إنك تعرف السيدة التي تبيع لها المخدرات منذ أسبوعين؟! كيف تتصل بك؟!»، قال أدهم بهدوء.

«تتصل بي من أرقام مختلفة، لا يوجد رقم محدد للاتصال، وغالبًا ما تتصل بي في اليوم الذي تقابلني فيه، قبلها بساعة أو أكثر أحيانًا».

أومأ أدهم برأسه، لم يكن يصدق ما أقدم عليه منذ فترة وجيزة، بأن يشهر مسدسًا في وجه أحدهم، تذكر جيدًا أنه يملك مسدسًا في مصر، وأنه حمله معه لفترة، لكنه أبدًا لم يستخدمه ولم يتوقع يومًا أن يستخدمه، في الحقيقة لم يتوقع أن تكون المرة الأولى التي يستخدم فيها مسدسًا على هذا الشكل وفي هذا المكان وفي وجه قواد، شعر بانقباض في صدره، أمر فاطيم بأن يجلب له حشيشًا، ابتسم فاطيم ابتسامة باهتة لا تخلو من الحذر حينما تأكد أن التهديد قد زال بشكلٍ كبيرٍ، أخبره بأن هناك كمية من الحشيش معه، أخرجه وشرع في لفّ سجائر لأدهم الذي كان يقف خلف البار يصب لنفسه كأسًا، نظر إلى الزجاج المكسور على الأرض إثر سقوط الكأس، شرد بعيدًا وهو يفكر فيما يحدث له، تذكر تلك القطعة القديمة مثلثة الشكل التي أخذها من البنك، حاول أن يربطها بأي شيء، كان واثقًا من أن مهمته كاملة كانت من أجل هذه القطعة فقط، الأبناء الذين يبحث عنهم، قتل آسيل والمطاردات والمكالمات والرسائل، عرف تمامًا بأن هذه القطعة تساوي الكثير، لم تكن بالسهولة التي أعطاها له الشيخ غانم، سيكلفه الأبناء كثيرًا، ترددت كلمات الشيخ في رأسه مفكرًا، الخطيئة التي تفوح منه، إنه يتخلّص منها ولكنه يتخلص منها بشكل مؤلم، نظر إلى فاطيم وهو يلف الحشيش ثم سأله عن هوية ذلك الشخص الذي طلب منه كل ذلك، لم يعرف فاطيم بماذا يرد؟!

علم أدهم أن فاطيم خائف رغم إجاباته المقنعة، يدرك أن هذا الشخص لم يملك حس الفكاهة على الإطلاق، لكن في النهاية أكد له فاطيم أنه كان دومًا مُلثَّمًا ولم يره سوى مرة واحدة، حتى إن تسليم القرص المدمج «CD» تم بطريقة غامضة، تعجب أدهم من كلماته ولكنه أخيرًا استسلم لما يسمع لأنه لم يكن يملك خيارًا آخر.

بعد أول نفس أخذه من الحشيش تأكد أن شخصًا كفاطيم ليس بكل هذا الذكاء ليكذب عليه بهذه البساطة، لقد استخدمه البعض لإنجاز جزء من مهمتهم،ولكن مَنْ هؤلاء؟! ولماذا يفعلون كل ذلك وبهذه الطريقة؟! رغم أنه أزال الشك في فاطيم من جوفه إلا أنه في جزء منه لم يستطع أن يُنحي بقية أفكاره الساخنة والمريبة، نظر إلى هاتفه نظرة شاردة.

«أتعرف يا أدهم بك»، قال فاطيم وهو يلف سيجارة من الحشيش، «لا أعلم ما يدور معك! لكنني متأكد من أنه ليس شيئًا هينًا، ما يحيرني، رجل مثلك بذكائه ونفوذه وماله، كيف له أن ينخرط في مثل هذه الأمور؟! كنت أعتقد حتى فترة قصيرة أن أمثالنا فقط مَنْ ينخرطون في مثل هذه الأمور! في الحقيقة نحن لا ننخرط في شيء سواها؛ لأننا لا نملك عالمًا آخر، ليس لنا حق الاختيار، لقد وجدنا أنفسنا هكذا، لا نملك المنطق ونعيش طبقًا للواقع المفروض علينا، الغرض من كلامي هذا، عليك أن تعلم أنك على مفترق طرق، لا يوجد ما يسمَّى بنقطة العودة، لا يمكنك أن تعود، كل تلك الأحلام والأمنيات عن تغيير مجرى الأحداث أو التمني للرجوع لنقطة الصفر هو أمر لم يعد باختيارك الآن، أنا أنصحك لأنني

أعيش في هذا العالم وأحفظه عن ظهر قلب منذ أن كنت صبيًا صغيرًا، لقد كانت أمي مومسًا، لم أتمنَّ أبدًا أن تكون أمي كذلك ولكننا لا نختار أمهاتنا، قتلها أحد المخمورين أمام منزلنا وأمام عيني، وحينها سقط من عيني كل شيء، لقد هجرني أبي أيضًا حينما كنت طفلًا أنا وأمي وأختي التي تحولت إلى مومس هي الأخرى ولا أعرف عنها شيئًا الآن، لا أعلم حتى إن كانت حية أو ميتة، هل تعتقد أنني اخترت كل ذلك؟! بالطبع لا، فالحياة هي التي اختارت لي كيفية العيش، حاولت كثيرًا أن أعيش باختياري وطبقًا لإرادتي ولكن كانت الحياة دومًا تدفعني لأن أصبح ما أنا عليه الآن، ولذلك فهمت أنه لن يكون هناك أبدًا نقطة رجوع، لا يوجد اختيار وعليَّ أن أتصرف طبقًا لذلك، أي شيء آخر سيعقد الأمور، سيجعلها أكثر قسوة، بالتأكيد أنت تفهم تمامًا ما أرمي إليه».

نظر أدهم إليه طويلًا ومفكرًا، علم أن كل كلمة سمعها تحمل حلًّا ليس لمشكلته وإنما لكل ما يدور داخله، لرفضه التام لما يجري، أيقن أن عليه الاستمرار، فقد أصبح التفكير فيما وراءه شيئًا مستحيلًا، رغم أن الأمل بالعودة لحياته كان الشيء الوحيد الذي يتملَّك منه إلا أنه عرف أنه شيء كاذب، مفزع أيضًا للغاية، فما يحدث قد حدث ولن يختفي أو يدفن في منطقة ميتة داخله، خلال كل ذلك دق هاتف أدهم الذي أدار وجهه سريعًا تجاهه، ترك المسدس على البار وفتح الخط.. «سيد أدهم أهنئك على كل شيء، لقد اجتزت الاختبار بتفوق، الأوراق التي تملكها بحوزتك ستجد بها عنوانًا بباريس، هناك ستعرف كل شيء، أمامك يوم واحد، واحد فقط».

نظر فاطيم إلى أدهم الشارد في هذه اللحظة، «هل هناك شيء يا سيد أدهم؟!»، قال فاطيم متوترًا.

«لا شيء يا فاطيم»، قال أدهم شاردًا، «لقد ظهرت براءتك وهذا كل شيء».

الفصل الثاني والعشرون

جلس أدهم يفكر فيما يحدث له، شعر بأن الغضب هو الشيء الوحيد الواجب حضوره في جوفه، ولكن ذلك لم يحدث لأنه بعد ذلك أشعل سجارة حشيش أخرى بعدما أمر فاطيم بأن يحجز له تذكرة إلى باريس، ثم يستغرق منه الوقت طويلًا وهو ينظر في العنوان المدون في الأوراق، تذكر ليلته الأخيرة في فرنسا منذ ستة أشهر حينما كان في رفقة مدير دار النشر التي تعاقد معها لترجمة عمله الأخير إلى الفرنسية، تلك الليلة التي خاض فيها كل أنواع المجون بين شوارع باريس الحالمة، تذكر تلك الفتاة الطويلة الرفيعة المثيرة، والتي كانت مرشده السياحي، كانت مغربية أو ربما تونسية، لا يتذكر اسمها تحديدًا، ربما كان اسمها كِنزا، ربما جيلان، لا يهم فذلك لن يغير من الأمر كثيرًا، في النهاية كانت المتعة بلا حدود وهذا كل ما في الأمر.

«إن الحياة تسير غالبًا نحو الاتجاهات الخاطئة، وهكذا يعتقد البشر، ولكنها دومًا تسير وفقًا لإيمانهم ورغباتهم المكبوتة، فالرغبات السوداء تولد في الظلمات وتموت أيضا في الظلمات، ولكن يأتي العقاب مؤلمًا في النور، يبقى الفارق بأن العقاب أحيانًا لا ينتهي، كاليهودي التائه،

كضياع المحبة من القلب، حينما تضيع المحبة يضيع كل شيء، فلسه، خبيثة لا يستيقظ منها البشر إلا وهم محطمون بلا اختيارات، بلا هدف، وربما أيضًا بلا حياة»، تذكر أدهم تلك القطعة في روايته الأخيرة وهو يفكر بعمق، لم يكن يشعر بالخزي أو العار من نفسه، ولكنه كان يشم بشيء لا يفهمه، لم يكن مؤلمًا ولكنه كان عميقًا منفرًا، شعر بأنه فأر مطارد داخل حجرة صغيرة وسط مجموعة من القطط المفترسة، الهرب هو الشيء الوحيد المطروح للنجاة، وذلك الأخير مستحيل حدوثه، رغم أن اليأس كان متملكًا منه في هذه اللحظات، إلا أنه أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته وأخرج قرصًا مُسكِّنًا من حقيبته ودفعه داخل أحشائه مستخدمًا جرعة كبيرة من الويسكي، بعد لحظات ضحك بشدة وهو يغني بكلمات غير مفهومة، يدندن مزيجًا من الأغاني، خلع ملابسه تمامًا، أصبح عاريًا تمامًا، نظر إلى نفسه بسخرية وضحك بشدة ضحكات غريبة متقطعة، سقط على الأريكة وذهب في نوم عميق.

حينما استفاق من نومه، وجد نفسه ما زال عاريًا، شعر بصداع رهيب ولكنه سمع صوتًا في الخارج، انتبه بسرعة رغم شعوره بالصداع، اختلس النظر من نافذة زجاجية مستديرة داخل اليخت ولكنه لم يجد شيئًا في مرمى بصره، استرق السمع بعدها فسمع أحدهم يتحدث، أمسك المسدس الذي كان على البار وخرج مندفعًا، «إنه أنا يا أدهم بك»، قال فاطيم مرتعدًا رافعًا يديه، «أرجوك لا تطلق الرصاص»، نظر إليه أدهم نظرة طويلة وكأنه يحاول استرجاع الأحداث ثم أبعد المسدس

،هو يأخذ نفسًا طويلًا، «لم أُرد أن أزعجك حينما وجدتك نائمًا»، قال «اطيم وهو يسترجع أنفاسه اللاهثة من فرط الرعب، «إلى مَنْ كنت حدث؟!»، قال أدهم.

«إلى الكلب يا سيد أدهم، إلى الكلب»، قال فاطيم بنبرة ذات مغزى.

نظر إليه أدهم متشككًا، لم يتفوَّه بكلمة ولكنه سأله عن التذكرة ،هو في طريقه إلى الداخل، عرف بعدها أن رحلته ستكون ليلًا في التاسعة مساءً من مطار إسطنبول، فجأة ألحّت فكرة غريبة على أدهم، فكرة مرعبة وسوداوية، كيف لم يتم القبض عليه حتى الآن؟! لقد كانت الشرطة تطارده حتى هرب بمعجزة منهم فارًّا إلى إزميد، ماذا إن عاد إلى إسطنبول؟! بالتأكيد إنهم في انتظاره، تذكر حينها الكلمات المشفرة للمتصل المجهول التي أرسلها مع الطرد الأول الذي استلمته ليلى في مصر، إنهم لا يرسلون شيئًا هباءً، كل كلمة لها معنى، يدركون جيدًا كل علاقاته، آسيل، فاطيم، والآن صوفيا، ماذا يعنون بصوفيا؟! جلس وفكر طويلًا ثم لمعت عيناه فجأة، أدار الكلمات في رأسه وكأنه يقولها لنفسه بصوت مسموع، نعم إنها كذلك..

«ما زال أمامنا الكثير، صوفيا ترسل لك تحياتها، لا تغب عنها كثيرًا، فهي دائمًا في انتظارك».

أمسك الهاتف وبسرعة اتصل بأحد أصدقائه في إسطنبول وهو رجل مرموق تعرَّف إليه في حفلة خاصة كان مدعوًّا إليها من قبل أحد الأصدقاء

المصريين المقيمين في تركيا، تحدث إليه أدهم وهو خارج اليخت حن لا يسمعه فاطيم، أنهى مكالمته معه ثم طلب من فاطيم أن يبقى ف اليخت حتى يأتي مرة أخرى، اتجه أدهم إلى الخارج مستقلًا التاكسي ذاهبًا إلى إسطنبول بعد أن حلق لحيته التي طالت بشكلٍ ملحوظٍ، وقص شعره الطويل تمامًا فأصبحت هيأته مختلفة عن ذي قبل، مختلفة تمامًا إن صح التعبير، اتجه إلى منطقة السلطان أحمد في إسطنبول في مخاطر كبيرة، يعلم جيدًا أن كاظم بك ذا سلطة كبيرة في تركيا، وبالطبع سيفيد فيما جاء من أجله، يستحق الأمر المجازفة، يُدرك تمامًا أن شخصب تتمتع بخصال كاظم بك المتعجرفة والنرجسية لن يقبل بمجرد مكالم لمساعدته، فمَنْ هم مثله يشتهون دومًا الإحساس بسلطتهم اللا محدودة، بذلك الضعف الإنساني الذي يصيبه بالنشوة كممارسة الجنس في ليلة شتوية ترتعد فيها أركان الكون وأركانه أيضًا، لكنه ضعف يصيبه بالقوة، الرسالة لا تعني امرأة، إنها تعني مكانًا ما، إنه متحف أيا صوفيا، هكذا الأمر، ووحده كاظم بك من يذهب يوميًا إلى هناك، أحد طقوسه التي لم تتغير منذ سنوات طويلة، فكر أدهم بخصوص كاظم بك وابتسم في نفسه؛ لأنه بالفعل الوحيد ذو السلطة الكافية لفعل أي شيء داخل أسوار تركيا، كان أدهم يدرك أيضًا أن كاظم بك يعمل في العديد من الأعمال الممنوعة إن لم يكن في جميعها؛ لأنه في الحقيقة يملك سلطة لا حدود لها، ووحدهم المتلونون والطغاة مَنْ يملكون هذه السلطة في هذا العالم الظالم.

حينما وصل إلى متحف آيا صوفيا أبهرته واجهته المهيبة التي
..د إلى مئات ومئات من الأعوام، أبهره تزيين المبنى، فجزء كبير من
الجدرائط مغطًى بألواحٍ من الرخام، بأنواعٍ وألوانٍ متعددة، كما زُينت
..قوف بنقوش من الفرسكو والفسيفاء، وبالرغم من أن معظم المناظر
.. غُطيت في عصر الدولة العثمانية بطبقات من الجبس ورسمت فوقها
..ارف هندسية، وكذلك استخدموا الخط العربي، إلَّا أن كثيرًا من هذه
الطبقات سقطت وظهرت المناظر القديمة أسفلها، شعر برهبة خفية
..لل إلى نفسه، بروح مقدسة من الماضي تأمره بالخشوع، ظهر على
..مى بصره كاظم بك الذي كان جالسًا يتابع بهدوء طقسًا صوفيًّا، يمسك
..ه مسبحة ذهبية، يطل بشاربه الأنيق بنظراتٍ من عينيه الحادتين في
..شوع على ذلك الطقس، يرتل معهم في هدوء وخشوع، تعجب أدهم
..لك كثيرًا، لم يكن يدري لِمَ كان يشعر في حضور هذا الرجل بالخوف،
الى أدهم عليه التحية في هدوء بعدما أشار كاظم بك لحراسه بإمكانية
..وره، نهض الرجل الذي سلم عليه بقبضة قوية لا تتناسب مع عمره
..سنيني وبصوته العميق المميز، يدرك أدهم أنه لا مجال لتضييع الوقت،
..عجب الرجل في البداية من تغيير مظهره وأبدى ذلك في كلماته، أخبره
أدهم بأنه ربما يكون مهددًا بالقبض عليه في أية لحظة ويحتاج لمساعدته
..ي ذلك الأمر، توقع أن يسأله الرجل عن السبب ولكن ذلك لم يحدث،
..هذا ما أصابه بالدهشة والقلق، أشار لأحد رجاله بأن يجلب له هاتفه
الخلوي وقام بالاتصال وبعد دقائق قليلة من المحادثة أعطى الرجل فيها
..عليماته عبر الهاتف، أخذ أدهم وأجلسه بجواره مبتسمًا ابتسامة غامضة

ألقت الرعب في جوفه، لم ينطق بكلمة واحدة، شعر أدهم بأنه يتلذَّذ بذلك، بأن يرى القلق في عيون مَنْ حوله، لعنه في سِرِّه، وتابع الطقس مرغمًا مع الموسيقى التركية القديمة.

شعر بروحه ترتقي في هذه اللحظات مع الموسيقى دون سابق إنذار، لو كان للموت ثمن فتلك الموسيقى التي تخلَّلت روحه الآن تكفي، شعر بأنه أرسل لذلك المكان خصيصًا في هذا التوقيت لغرضٍ ما، تذكر كلمات الشيخ غانم:

«الأوراق لا تهم، الأهم أن تقرأ ما في قلبك، قلبك هو الشيء الوحيد الذي يجب قراءته، هو الدليل الوحيد والانعكاس المقبول لما يدور في عقلك، الانعكاس الحقيقي لنفسك التائهة، لأفكارك الحقيقية التي لا تستطيع رؤيتها».

تمنى للحظة أن يظل في هذا المكان ويموت فيه ناعسًا على تلك الموسيقى، مغلقًا عينيه للمرة الأخيرة، المرة الأبدية، أسدل عينيه وشرد بعيدًا، لم يكن يدري أين هو ولكنه رأى أشياء لم تكن واضحة جلية وساطعة الآن أمام عينيه، تدفقت الأفكار والسيناريوهات على رأسه، شعر بنشوة غريبة، المكالمات وهي تتردد، الرسالة، إصبع آسيل المقطوعة، نهدا ليلى، تأوهات آسيل وهي تذوب معه في لقاء حميم، المسدس في وجه فاطيم، المطاردة الأخيرة، الرقم السري للخزانة، فجأة خرج مفزوعًا على يد كاظم بك وهو يضعها على ركبته اليمنى، «تستطيع أن تذهب»، قال كاظم بك بلهجة غامضة، «لا تقلق من أي شيء»، أومأ

ادهم برأسه شاردًا محاولًا تهدئة أنفاسه المتلاحقة التي بدت وكأنه كان في مارثون طويل امتد لأيام طويلة ولم يتوقف منه إلا الآن، عرف أنه عاد إلى الواقع، نظر إلى كاظم بك نظرة أخيرة، ابتسم الرجل وأومأ برأسه ثم نظر أمامه وكأنه بلفتة منه يخبره بأن ما جاء لأجله انتهى وقد حان الوقت لتركه مستمتعًا بالطقس.

خرج أدهم من المتحف بهدوء، مفكرًا، لم يشعر بنفسه إلا وهو أمام اليخت، لم يكن يفهم شيئًا، لم يعرف بمن اتصل كاظم بك، وما الذي دار تحديدًا ليعرف بهذه السرعة إن كان أدهم مطلوبًا أم لا، لم يجد تفسيرًا واضحًا لأي شيء، في النهاية لم يستطع أن ينحي الرعب بعيدًا عنه، دلف إلى اليخت مطأطئ الرأس، شاعرًا بالإرهاق الشديد، تسمَّر في مكانه، كتم صرخة وهو يتراجع للوراء، حاول تجميع أنفاسه المتسارعة والمتصارعة في هذه اللحظة، كان فاطيم في مشهد مرعب، مرميًّا على الأريكة وقد تم إطلاق رصاصتين عليه، واحدة على رأسه والأخرى على صدره، فارق الحياة تمامًا، اقترب أدهم منه بعد دقيقة من محاولة التماسك وبعد أن لاحظ أن الكلب قد تم قتله برصاصة أيضًا، نظر في عيني فاطيم المشدوهتين، لم يجد فيهما صورة لقاتله، اللقطة الأخيرة المطلة على عالم الأحياء، لم يجد فيهما سوى النظرة الأخيرة التي تقول اللعنة على كل شيء، بئسًا وسحقًا لكِ أيتها الحياة، لقد انتهى فاطيم كما توقع كالكلب تمامًا، لا فارق بينهما، دار حول نفسه واضعًا يده فوق رأسه ساخطًا على كل شيء، تأكد أن الموت أداة مقنعة للغاية لإثبات براءة

فاطيم من كل شيء، لقد انتهت مهمته في تلك الحياة، شعر أدهم لأول مرة ربما في حياته كلها بالذنب، أيقن تمامًا بأنه السبب في مقتل آسيا وكذلك فاطيم، بلع ريقه بصعوبة، إن كان الأمر بهذه السوداوية، وإن كان الخلاص بهذا الألم، وإن كان الوصول إلى المجد بهذه القسوة، فتبًّا لكل شيء، أسدل عيون فاطيم بصعوبة وأحاسيس مختلفة تتقاذفه، فجأة دق جرس هاتفه، نظر إليه طويلًا بعد أن انتفض من مكانه رعبًا، «اللعنة عليك وعلى كل شيء»، صاح أدهم غاضبًا بشدة، «لن تفلت بأفعالك تلك».

«سيد أدهم»، قال المتحدث بصوته المعتاد، «أرجوك لا تفقد أعصابك الآن، كان يجب أن تقتله أنت، أعتقد أنه شيء جيد أنك لم تفعل، لكن هذا لا يهم الآن، ما زال الطريق أمامنا طويلًا، ننتظرك في باريس، نصيحة أخيرة، غادر إزميد الآن، هذا أفضل لك»، وأغلق الهاتف.

أمسك أدهم الهاتف بعصبية، فكر في أن يقذف به عُرض الحائط الخشبي ولكنه لم يفعل ذلك، في جزء منه أدرك أن كل مكالمة الآن هي مكالمة مهمة، ربما مكالمة واحدة ضائعة تُكلِّفه حياته، تكلفه كل شيء، سيُضيع دماء كل هؤلاء بلا ثمن، ستضيع حياته أيضًا بلا ثمن، صعد سريعًا ووضع كل شيء في حقيبته، الأوراق والأوجاع، حملها على ظهره وانطلق مغادرًا إزميد، وجثة فاطيم، وكل شيء.

فرنسا

«في الحقيقة لا توجد لحظة أخيرة لأي شيء إلا عندما نؤمن بذلك»

الفصل الثالث والعشرون

وصل أدهم إلى مطار شارل دو جول الدولي الذي يبعد عن العاصمة باريس بما يقارب خمسًا وأربعين دقيقة فجرًا بعد رحلة لم يستطع النوم خلالها وهو يفكر بأمر ما يحدث له، الرعب الذي شعر به خلال مغادرته من مطار إسطنبول من خلال نظرات ضباط الأمن له، حين تسليمه جواز السفر للضابط المسئول ونظراته المتشككة المعتادة له كما ينظر لجميع المغادرين، بدت له وكأنها النظرة الأخيرة التي سينتهي معها كل شيء، شعر بأنه سيتم القبض عليه في أية لحظة ولكن ذلك لم يحدث، عاد بذاكرته - وهو في التاكسي الذي سيُقله إلى وسط العاصمة باريس - إلى سنواته الأخيرة التي تغيّر فيها كل شيء في حياته رأسًا على عقب، حاله الميسور الذي تحول فيما بعد إلى حالٍ أكثر يُسرًا، ربما كان ذلك التعبير ليس دقيقًا؛ لأنه كان يملك الملايين في البنوك المختلفة، بجانب نفوذه الذي حصل عليه من زواجه بليلى، حيث تحولت شخصيته وابتعد عن الكثيرين للمحافظة على هيبته ومكانته التي حصدها والتي لم يحلم بالوصول إليها أي شخص، اعتزازه بنفسه الذي تحوَّل إلى الغرور، نزواته الفكرية التي تحوَّلت فيما بعد إلى واقعٍ يدفع ثمنه الآن.

انتهى به المطاف أمام فندق الموفنبيك Mövenpick Hotel Paris Neuilly، يقع الفندق على بعد أربعة كيلو مترات من لاديفونس، وهو حي شهير للتجارة والسياحة، ويعتبر أول منطقة تجارية أورُبية وفقًا لمساحتها الكبيرة. ويقع في هوت دو سين وفقًا للمحور التاريخي لباريس، والذي يبدأ من متحف اللوفر ويستمر إلى الشانزلزيه وقوس النصر ثم إلى جسر نويي، ثم أخيرًا إلى قوس لاديفونس، يقع الفندق أيضًا على بعد ثلاثة كيلو مترات من قوس النصر، وعلى بعد كيلو ونصف الكيلو متر من قصر المؤتمرات في باريس. ويحتوي على مطعم فرنسي وبار وتراس موسمي.

اتصل بليلى بمجرد دخوله إلى غرفته، بعد أن أطلت على مخيلته بِطلَّتها المميزة، شعر بأنه يحبها بشكلٍ كبيرٍ وبأنه اكتشف ذلك الآن فقط، لم يحاول يومًا أن يسألها عن سير عملها في الماجستير التي أوشكت على الحصول عليه في العلوم التاريخية، لم يسألها يومًا عن تلك الأشياء السخيفة من وجهة نظر الرجال والتي تمثل كل شيء تقريبًا للنساء، كل تلك الأشياء المبتورة من علاقتهما كانت واضحة في رنة صوته وهو يتحدَّث إليها، حاول كثيرًا خلال مكالمته معها أن يخبرها بأنه يحبها لكنه لم يفعل، لم يعرف الحقيقة وراء ذلك، لكنه أدرك أن إحساسًا ما لا يفهمه ولا يستطيع السيطرة عليه قد منعه من ذلك، ربما الكبرياء، وربما أن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا ولن يعالج الجرح النازف، الجرح الذي لن يتوقف عن النزف إلا بالموت، فضَّل في نفسه أن يخبرها بكل شيء يحدث معه،

لعن الفكرة، شيء رهيب ومفزع أن تكتشف أن حياتها بالكامل كانت مجرد حياة زائفة، ملعون ذلك الشيء الذي يشعرها بالخطر الذي يحوم حولها، تخيَّل إصابتها بأي مكروه بسبب تلك الرحلة الملعونة التي أشعلتها عجرفته، وجموحه الفكري، وأنانيته التي تكاد تُضيِّع كل شيء، أفزعته الفكرة كاملة، وانتهى به الأمر شاردًا بعد إغلاقه الهاتف، اكتشف أيضًا أنه لم يقل شيئًا لها من الأساس، ولم يكن كل ذلك غير أفكار عابثة مرَّت بعقله المضطرب، ضمير مترنح يحاول الاستيقاظ من غفوته الطويلة.

كان على وشك أن يشعر بالملل، ولكن ذلك لم يحدث؛ لأن هاتف غرفته دق في هذه اللحظة، انقبض صدره وتعجَّب للحظةٍ لكنه تمالك نفسه ورد على الهاتف، «أدهم»، كان الصوت أنثويًّا يتحدث الإنجليزية بلكنة فرنسية مضحكة، «أنا جيلان، هل تتذكرني؟! لقد التقينا منذ ستة أشهر، لا أعتقد أنك نسيت جيلان، ولا يمكنني أيضًا أن أنساك، أنا في انتظارك في البهو، أرجوك لا تتأخر عليَّ، سأكون في انتظارك».

انغلق الخط، وقف أدهم شاردًا يتذكر جيلان، وكيف ينساها؟! إنها جيلان مغربية الأصل، تعيش في فرنسا منذ سنوات طويلة، التقاها في مقهى في الشانزليزيه حينما كان يتناول قهوته صباح أحد الأيام، فاتخذها في الظاهر كمرشد سياحي، وفي الحقيقة كمتعة جنسية، لكن كيف عرفت مكاني، وبأنني هنا في فرنسا؟! وماذا تريد؟! العديد من الأسئلة هاجمت أدهم، لم يحصل على إجابة واحدة شافية، تذكر المسدس الذي ألقاه في

البحر قبل أن يغادر اليخت في إزميد، وتمنّى لو أن يكون في حوزته الآن فلم يعد هناك مجال للثقة في أي شخص.

حينما وقف في البهو أطلّت عليه جيلان مبتسمة ابتسامة عريضة صائحة بفرح حين رؤيته، كان شكلها مميزًا بشعرها الأسود الحالك الطويل للغاية والذي يكاد يصل إلى نهاية مؤخرتها، وعينيها الواسعتين السوداوين، وأنفها الأفطس، وبشرتها المميزة البرونزية، وصدرها الكبير والمثير الذي يتحرك بشكل مستقل عن جسدها حينما تفعل أي شيء، لم ينسَ أيضًا مؤخرتها البارزة الكبيرة التي كانت السبب الأول في رغبته فيها، يذكر جيدًا أنه قضى معها أسبوعًا كاملًا في اللهو ومطارحتها الغرام بلا توقف، احتضنته بقوة وقبّلته قبلة التهمت فيها شفتيه، ونظرت إليه كقطة تداعب سيدها، نظرت له بتشككٍ حيث لم يصدر منه أي فعل ولم يكن متفاعلًا معها، نظرت له بتشكُّكٍ أكبر وبعينين لا تفهمان شيئًا لأنه ظهر في عينيه تعبير يوحي بأنه لا يعرفها، مشى بجوارها حتى وصل إلى طاولة وجلس في مواجهتها والعديد من الأفكار تدور برأسه، كانت تتحدث عن العديد من الأشياء، «كيف عرفت أنني هنا؟!»، قال أدهم مقاطعًا كلامها فجأة، «لا أحد يعلم بأنني هنا!».

نظرت إليه مندهشة للحظة، «أدهم، كيف لا تعرف؟!»، قالت جيلان بدهشة وتوتر، «لقد جعلت مدير أعمالك يتصل بي ويخبرني بقدومك إلى هنا، فأنت تعلم أنني أعمل مرشدة سياحية؛ لذلك اعتقدت أنه اتصل بي لتأخذ جولة في فرنسا بمساعدتي، هل أزعجتك بمجيئي إلى هنا؟!».

«لا ليس الأمر كذلك»، قال أدهم بعد فترة وجيزة من الصمت التي
حلّلها التفكير، «ربما نسيت أنني أخبرته بذلك، متى تحدَّث إليكِ على
كل حال؟».

«قبل يومين تقريبًا»، قالت جيلان وهي تُخرج شيئًا من حقيبتها،
«أحضرت لك قائمة الأماكن التي ترغب في زيارتها والتي أخبرني بها
مدير أعمالك، يبدو أنك مقبل على كتابة رواية رومانسية»، ابتسمت
ابتسامة حالمة، «لم أستطع الانتظار لذلك جئت إليك بمجرد وصولك،
لقد اشتقت إليك بشدة، حزينة للغاية لأنك لم تحاول الاتصال بي سوى
مرتين أو ربما ثلاث خلال كل هذه المدة، لقد اعتقدت بأنك نسيتني
تمامًا، لكن لا يهم الآن، فلن تنسى جيلان مطلقًا بعد هذه الزيارة».

أمسك أدهم بالورقة التي أخرجتها جيلان من حقيبتها، «لقد تم دفع
جميع التكاليف بالمناسبة»، قالت جيلان، «أنت سخي للغاية يا أدهم»،
وابتسمت، لم يكن أدهم يعلم العديد من الأماكن المذكورة ولم يزرها
من قبل، ربما سمع عنها فقط، استأذن منها ووقف بعيدًا وهو يمسك
بهاتفه ثم اتصل بصديقه حسن الذي نفى له تمامًا أنه اتصل بأي مخلوقٍ
كان، لم يكن يشك للحظة في إجابة صديقه ولكنه كان يشك بكل شيء
في هذه اللحظة، أدرك جيدًا أن مَن اتصل بجيلان هو نفس الشخص
المتسبب في وجوده في هذه النقطة الآن.

عاد إلى جيلان مبتسمًا ابتسامة مصطنعة، أجبر نفسه عليها، «هل
أخبرك مدير أعمالي بأي شيء آخر؟!»، قال أدهم بلهجة عادية، «فلم
أتصل به في الفترة الأخيرة لأنني كنت مشغولًا للغاية».

«أعلم»، قالت جيلان، «لقد أخبرني بأنك كنت في تركيا، يبدو أنك في رحلة استجمام طويلة أو ربما من أجل روايتك الجديدة، لا يهمني السبب، لكنه كان واضحًا ولم يطلب مني شيئًا آخر سوى أن أصطحبك إلى هذه الأماكن وأمدك بكل المعلومات اللازمة عن الأماكن الموضحة في الورقة، بمجرد موافقتي حوّل لي أتعابي على حسابي الشخصي، لقد أرسل ضعف المبلغ، إنه كرمك الذي لا ينتهي».

«آسف جيلان»، قال أدهم مبتسمًا، «أنا مرهق للغاية في الفترة الأخيرة، آسف إن كنت فاترًا في لقائي بكِ»، أومأت جيلان مبتسمة مبدية تفهمها لموقفه، شربا كأسين من الشمبانيا اللذيذة الفرنسية المعروفة ثم صعدت معه إلى غرفته بعد أن أبدت رغبتها في مرافقته، لم يكن أدهم ينوي أن يطارحها الغرام ولكنه لم يستطع أن يقاوم سحرها وهي تخلع ملابسها بطريقة مقصودة ومثيرة أمامه، فقد انتزع سروالها الداخلي الصغير بقوة حتى خلعه لها تمامًا، كان ينهل من نهديها كذاك المحروم من النساء في رواية المفقود الذي كان تائهًا وظل وحيدًا في جزيرة نائية لثلاث سنوات، كانت الأقراص المُسكّنة لها تأثير جانبي حيث استمر فترة طويلة في مضاجعتها تصبب خلالها بالعرق من كل جزء في جسمه، وكذلك هي، فعل معها ما لم يفعله من قبل مع امرأة أخرى، مارس معها كل طرق الانحراف، أخبرته بأنها لم تحصد متعة في حياتها كتلك التي تحصدها الآن، أخرج غضبه كاملًا بين فخذيها، انتهى كل ذلك برعشة قوية انتفض لها جسده وانتفضت معها أفكاره السوداء التي نامت، كما نام هو في حضن جيلان العاري.

الفصل الرابع والعشرون

كان أدهم واقفًا في حالة من الدهشة الرهيبة التي تملّكت منه تمامًا حينما رأى متحف اللوفر لثاني مرة في حياته، في مرته الأولى أصيب بتلك الدهشة ولكنه لم يعلم سر الإحساس الغريب الذي يواجهه الآن، والذي بدا أكثر عمقًا وتوترًا أيضًا، بينه وبين نفسه كانت مقتنيات متحف اللوفر تمثل المعجزة الأولى والأخيرة على هذه الأرض، أرواح فنانين ونحاتين ومعماريين تجوب هذا المكان الشاهد على عبقريتهم التي خلدتهم على مر التاريخ وستخلدهم حتى اليوم الأخير، ورغم ذلك انتاب أدهم ذاك الشعور الغريب الذي طالما حدَّثه عن أن مصيره في النهاية سيكون سجنًا كبيرًا تحت ادعاء المحافظة عليه.

أوضحت جيلان له معالم المتحف، أوضحت له أيضًا معلومة يعلمها جيدًا بأنه من المستحيل زيارة المتحف التي تبلغ أطوال قاعدته ثلاثة عشر كيلو مترًا في يوم واحد؛ لذلك يتوجَّب عليها أن تريه ما قد احتوت عليه الورقة حسب تعليماته السابقة التي أرسلت لها عبر مدير أعماله المجهول لكليهما، كانت جيلان تحب عملها كثيرًا وتستطيع أن تفصل تمامًا بين ولعها النسائي برجل كأدهم، وبين عملها، وذلك الأمر

كان مصدر إعجاب في منطقة لا يظهرها أدهم كثيرًا للنساء حتى لا يقـ
في شبكة النرجسية التي تملكها جميع النساء والتي تظهر جلية ساطـ
في أي فرصة تسنح لهن بذلك.

لم يتوقف أدهم عن التفكير فيما آل إليه أمره، وتأكد أنه ليس أ
من وسيلة يستخدمها شخص ما يود الانتقام منه، أو ربما شخص يعـ
تمامًا أن رجلًا كأدهم لن يتوانى عن فعل أي شيء في سبيل إنقاذ نفـ
وتحقيق مأربه الخالد حتى وإن كان يواجه لحظاته الأخيرة في هذه الحيـ
الكئيبة، هذا الرجل يعشق الفن بشكلٍ أو بآخر، بدت له خطة فنية بطر
رفيع، رغم أن هناك جانبًا ممتعًا في الأمر إلا أن أدهم أنكره إنكارًا صريحـ
بينه وبين نفسه، فولعه الدائم بحقيقة الأشياء والفن وكذلك الخطوط
المفاجئة الجنونية كانت بمثابة حياته الحقيقية، فلو أن أحدهم سأله
عمَّا يتذكره من حياته الماضية فلن يذكر له إلا تلك الأوقات المجنونة
التي مر بها من وقت لآخر بين الروايات واللوحات والموسيقى، على
الجانب الآخر جنونه الصبياني الذي لم يتخلّص منه، في الحقيقة لم
يحاول التخلص منه لأنه الشيء الوحيد الباقي له من الماضي البعيد،
ابتسم بينه وبين نفسه حينما تذكر جرأته وهو في طريقه لشراء الحشيش
من أحد التجار في بورسعيد لأنه الأرخص سعرًا والأعلى جودة، كان
التاجر ينتظره في قرية صغيرة اسمها «الجرابعة» قبل مدينة بورسعيد،
وقد لاحظ أدهم حين مروره بأنه كمين مُعد له، فجلس بجوار التاجر
وظل يدخن الحشيش حتى شعر بالسطل تمامًا، ثم أعطى للتاجر مالًا

... أن يشتري شيئًا مُدعيًا أنه سيأتي للشراء في مرة أخرى، كان واثقًا من
... الشرطة له حين خروجه وبالفعل حينما هاجموه لم يجدوا في
... ه شيئًا، وتذكر جملته التي لم ولن ينساها يومًا: «الحياة لمحة من
مادة والسعادة ليست معي»، ما كان من الضابط إلا أن انصرف محبطًا
... اصبًا تجاه التاجر، قاطع ذكرياته صوت جيلان وهي تشير بيدها إلى
... مة «هذه اللوحة»، قالت جيلان: «من ضمن الأشياء المذكورة في
الورقة والتي يجب أن تعرف تفاصيلها»، نظر إليها أدهم منتبهًا، مشيرًا
... أسه إلى أن تكمل بعد أن طلب منها قلمًا وورقة ليُدوِّن ما تقول.

«هذه اللوحة تسمى»، قالت جيلان بنبرة عملية للغاية، «الحرِّية Delacroix - La liberte، للفنان الفرنسي يوجين ديلاكروا، كان يوجين ديلاكروا أكثر رسَّام ارتبط اسمه بالحركة الرومانسية في الفن والأدب، وقد اقتفى الفنان خُطى الشاعر بايرون، فصوَّر بخياله مشاهد عنيفة ومؤثرة من حرب الاستقلال اليونانية، هذه اللوحة ربما تكون أشهر أعمال ديلاكروا وأكثرها احتفاءً، وقد أصبحت رمزًا للثورة والحرِّية، وفيها يصور الفنان انتفاضة الشعب الفرنسي عام 1830 ضد حكم عائلة دي بوربون على أمل استعادة النظام الجمهوري الذي نشأ مباشرةً بعد اندلاع الثورة الفرنسية الأولى في عام 1789م، الشخصية المحورية في اللوحة كما ترى هي رمز الحرية نفسه، وقد رسمه ديلاكروا على هيئة امرأة فارعة الطول وحافية القدمين وقد انزلق رداؤها عن صدرها في خضم المعمعة وانشغالها بحشد الناس من حولها استعدادًا للمعركة

النهائية التي ستقود إلى الحرية والخلاص، تبدو المرأة هنا وهي ترفع العلم بيدٍ وتمسك بالأخرى بندقية وقد أشاحت بنظرها جهة اليمين كما لو أنها غير آبهة بأكداس الجثث أمامها ولا بما يجري حولها من جموح وغضب، ومن بين سحب الدخان في الخلفية تظهر أبراج كنيسة نوتردام التي رسخ اسمها في الأذهان بعد رواية فيكتور هوغو لتصبح فيما بعد رمزًا للرومانسية الفرنسية، ولم ينسَ ديلاكروا أن يرسم نفسه في اللوحة إذ يبدو في يسارها مرتديًا قبَّعة طويلة وممسكا ببندقية، كانت عادة الفنانين والشعراء منذ القدم أن يرمزوا للحرية والعدالة بنساء جميلات، وقد كرَّس الفرنسيون هذا التقليد باختيارهم ماريان رمزًا للحرِّية الفرنسية، واختيار ديلاكروا لامرأة عارية الصدر كرمز للحرية قد يكون أراد من خلاله الإشارة إلى أن الثورة تنطوي على إغراء وفتنة، وإلى أن العنف الذي يصاحبها هو جزء لا يتجزأ من الإيمان بالتغيير الجذري وحكم الجماهير، الثوار المنتفضون فشلوا في إعادة الجمهورية آنذاك، لكنهم استطاعوا إنهاء الحكم الملكي المطلق واستبداله بملكية نيابية، ومضمون هذه اللوحة، العنيف إلى حدٍّ ما، قد لا يعبِّر عن النتيجة التي آلت إليها الثورة في النهاية، إذ انتهت بظهور نخبة بورجوازية عاقلة استلمت الحكم وأعادته تدريجيًا إلى الشعب».

ابتسمت جيلان ثم أكملت: «الحرِّية تقود الشعب، قد تكون تجسيدًا للحرية التي تخالطها الفوضى، ومن المرجَّح أن يكون ديلاكروا قصد أن يكون المشهد بعموم تفاصيله وشخصياته تعبيرًا عن معنى الثورة

في بعدها الرمزي والفلسفي، أي ذلك المزيج من الجموح والشهوة والجريمة والعنف».

بعدما انتهت جيلان من معلوماتها المتدفقة والمرتبة بعناية، شرد أدهم بعيدًا، شرد بالشكل الذي لا يأخذه بعيدًا عن المقصد من اللوحة، لكنه قبل أن ينخرط في شروده سأل جيلان سؤالًا عن وجود لوحات أخرى في الورقة المذكورة فأخبرته بأنه ليس هناك شيء آخر، فلقد احتوت التعليمات التي بدت دقيقة للغاية على لوحة واحدة فقط، فكر أدهم طويلًا بشأن اللوحة أمامه وعن رمزيتها، فالمتصل الذي حدد تلك اللوحة يقصد منها شيئًا مُهمًّا إن لم تكن عدة أشياء وعليه أن ينتبه لها، كلمة الثورة كانت كفيلة بأن تعيق تفكيره، فهو يكره الثورات لأنها تمثل انقلابًا على الطبيعة، لم يُعلق على الثورة المصرية كشخصية أدبية شهيرة؛ فهو لم ولن يؤمن بها لأنه يدرك أنه في النهاية ستُخلق من جديد أزمة أخرى تنتظر ثورة أخرى بعد سنوات عديدة، الثورات من وجهة نظره ليست أكثر من انتفاضات يقوم بها البؤساء ليلقوا حتفهم في سبيل مفاهيم كاذبة تحت ادعاء الحرية والحياة، التي تنتهي أخيرًا بالموت، والموت بالنسبة له يختصر كل الحقائق الكريهة.

«النساء»، قال أدهم مداعبًا، «رغم سحرهن يمتن في النهاية، أعتقد أن هذه المرأة ماتت أيضًا».

«كل النساء تموت، ولكن يبقى سحرهن المقدس وغموضهن خالدًا كالفن يا أدهم، بداية من حواء، مرورًا بملكات مصر نفرت وحتشبسوت،

وصولًا إلى ماريان رمز الحرية، وتلك المرأة عارية الصدر أيضًا هي أكبر رمز للحرية عاش مع الفن»، قالت جيلان بتحدٍّ.

لم يعلق على كلامها إذ انتبه فجأة إلى كنيسة نوتردام التي لم يزرها أبدًا رغم أهميتها بالنسبة إليه، وتساءل في نفسه كيف قضى حياته دون أن يمر بها ولو مرة، في الحقيقة لم يكن ذلك السبب الرئيسي، فإذا قام بربط المعلومات بعضها ببعض فإن المكان في اللوحة يشير إلى شيء ما عليه تتبعه وهذا هو الشيء المنطقي الوحيد الآن، شعر أدهم بصداع رهيب، لم يكن يدري تحديدًا ماذا عليه أن يفعل، ولكنه دس يده في جيبه سريعًا وتناول قرصًا من «التامول»، كانت جيلان على وشك أن تسأل، «أين توجد كنيسة نوتردام؟!»، قال أدهم مقاطعًا، «تقع في الجانب الشرقي من..»، قالت جيلان بنبرة لا تخلو من القلق، «إيل دولا سيتي - جزيرة المدينة- على نهر السين أي في قلب باريس التاريخي، لا يبعد عن هنا كثيرًا، هل تريد الذهاب إلى هناك؟! إنه ليس مدونًا هنا!».

لم ينطق أدهم بأي كلمة وعاد إلى المعلومات المذكورة أمامه، كان هناك شيء بها مخفي، يُدرك ذلك جيدًا، سأل جيلان عن معلومات إضافية بشأن اللوحة، لكنها في الحقيقة لم تكن تعرف أكثر من ذلك؛ لأنه لا يوجد ما يُذكر عن اللوحة كمعلومة تاريخية أكثر مما ذُكر، بعد ساعتين من التجول داخل متحف اللوفر حيث لم يفته بالطبع زيارة أهم أقسام المتحف المتمثل في القاعة الكبرى التي شيدتها كاترين دي ميديشي، في القرن السابع عشر، وتحتوي على العشرات من اللوحات النادرة

امافرة الرسامين، تتصدرها تحفة ليوناردو دا فينشي الموناليزا الشهيرة الي رسمها عام 1503م وسموها موناليزا لأنها تضم آمون وإيزيس وهي الجيوكاندا، ليوناردو رسمها في أكثر من أربع سنين لأنه كان يحب الجيوكاندا، رغم أن هناك بعض الافتراضات التي تقول إنه رسم نفسه ليعبر عن اتحاد الرجل والمرأة، لم ينسَ أدهم حين قرأ عن شذوذ دا فينشي ذلك الأمر الأخير الذي أثار العديدين رغم معرفتهم بالأمر مسبقًا، أليس سخيفًا أن نعارض الحقيقة حتى وإن كانت موجعة؟! ولكن البشر دومًا كذلك، يهربون بعيدًا بعد أن يعترضوا على كل ما يعارض اعتقاداتهم وعاداتهم وإيمانهم حتى وإن كان ذلك الإيمان هشًا مزيفًا.

كانت هناك رائعة من روائع لوحات القاعة «وجه فرانسيس الأول» للرسام تيتان حيث وقف أدهم أمامها طويلًا دون مللٍ وقد شرد بعيدًا، لم يلفت انتباهه شيء مما تقوله جيلان بعد ذلك خصيصًا بعد أن ذكرت له أن اللوحة كانت أهم القطع التي نبهها عليها كثيرًا مدير أعماله، كما أبدت عدم تصديقها أنه لا يتذكر كل ذلك، دقَّ هاتفه، لم يتعجب كثيرًا لأنه كان في انتظار هذه المكالمة.

«سيد أدهم»، قال المتحدث، «أستطيع أن أقول بما أنك في الخارج بأنك توصلت إلى شيء ما، أنت رجل ذكي، إن لم تفعل، فستخسر كل شيء، ولا تسأل كثيرًا لأننا ببساطة لن نستطيع أن نقدِّم لك مساعدة أكبر، أنا في الحقيقة لا أستطيع مساعدتك بأي شكل، أستطيع فقط أن أساعد في القبض عليك وفضحك وعليك أن تتخيل البقية فأنت الكاتب هنا،

تذكر أنه لا وقت أمامك ولا أمامنا نحن أيضا»، نظر أدهم لجيلان نظر، قلقة يشوبها التفكير ثم طلب منها أن تأتيه في الليل في الفندق ليتابعا جولتهما.

«ماذا يعني بأنهم لا يستطيعون مساعدتي بشكل أكبر؟! أي لعبة سخيفة هي؟! وأي مجدٍ ذلك الذي يجعلني أحارب في سبيل إنقاذ نفسي؟! لقد تهت عن ذاك الهدف الذي لا أعرف له شكلًا واضحًا، لا أعلم إلى ماذا ترمز تلك القطع بحوزتي أو الأبناء بمعنى أدق.

العديد من الأفكار مرّت بمخيلته، جعلته ممتعضًا ومتألمًا وساخطًا أيضًا.

كان هناك زحام غريب، يبدو أن شخصية شهيرة أو ذات نفوذ داخل المتحف الخالد، «ما الذي يربط الرومانسية»، قال أدهم لنفسه بتذمر وهو يقف في مواجهة كاتدرائية نوتردام «بما أنا فيه الآن؟!» تأكد أدهم من ذلك بعد أن رأى مجموعة من الحرس الخاص منتشرين حول المكان، لفت نظر أدهم امرأة مسنة تحدق فيه، كانت تقف في وسط مجموعة من الحراس، نظر خلفه ظنا منه أنه مخطئ، كانت المرأة ذات شعر شاب معظمه يغلب عليها الوقار والأرستقراطية، قصيرة القامة لا تخلو من مسحة من الجمال، كانت نظراتها له مخيفة وفي نفس الوقت خائفة، كالقطة الصغيرة التي تتوعد مهاجمها، لم يفهم في الحقيقة حقيقة تلك النظرات ولكنه في النهاية أشاح بنظره بعيدًا عنها محاولًا بقدر الإمكان ألا يلفت نظرها أو يثير حفيظتها حيث تأكد بحدس قوي أن الأمر ذا صلة

وثقة بهذه المرأة .

انتفض أدهم حين وضع رجل عجوز يده على كتفه، فنظر إليه نظرة متشككة، لم ينطق الرجل بكلمة في بداية الأمر وظل ناظرًا إلى أدهم بعينيه الغائرتين والحادتين، «لا تنظر لها»، قال الرجل بلغة فرنسية، «إنها تكره العرب، تكرههم كثيرًا، لقد قُتل زوجها منذ مدة قصيرة، إنها السيدة دانييل ديلاكروا، ترجع بأصولها إلى الفنان العظيم الخالد يوجين ديلاكروا، وقد عثروا على قاتل زوجها، إنه عربي، لم يعرف أحد حتى الآن لماذا قتله؟! ببساطة تامة لأنه انتحر بعد القبض عليه، تأتي إلى هنا يوميًا كما ترى منذ وفاة زوجها، رغم أنه لم يعد هناك مجال لذلك، ولكن هذه هي الرومانسية الحقيقية على ما أعتقد»، كان هناك شاب ثلاثيني برفقة الرجل العجوز الذي فهم أن أدهم لا يفهم الفرنسية فقام بترجمة الكلام ومن ثم انطلقا في طريقهما.

عاد أدهم بناظريه إلى السيدة، ونظر إليها نظرة طويلة شاردة وهو يفكر، هناك شيء إذن يجمع بين تلك السيدة واللوحة التي رآها، الرموز التي يكرهها تظهر الآن أمامه وعليه حلها، لعبة سخيفة تضرب بعقله الذي طالما اعتقده ذكيًا عُرض الحائط، لم يدخل الكاتدرائية، وإنما اتجه إلى الفندق وهو يفكر بأمر السيدة واللوحة التي رآها واللوحة المتبقية أيضًا، كان تأثير القرص قد شرع مفعوله في العمل، موجات متداخلة من الألوان واللوحات كانت تهاجم عينيه وهو يحتسي الجين الثقيل في بار الفندق، في الحقيقة كانت هناك رغبة جنسية ملحة تحوم بجسده،

لكنه شعر بالقرف من نفسه للعلاقة التي أقامها مع جيلان، لم يشعر يومًا بذلك الإحساس الغريب بعد ممارسته الجنس، شيء غريب يدب فيه، لم يدركه كاملًا ولكنه في النهاية كان يشعر به.

الفصل الخامس والعشرون

لم يستطع أدهم أن يصبر ولو قليلًا أمام نهدي جيلان اللذين نهل منهما برغبة جامحة وهما في غرفة الفندق لدرجة دعتها للصراخ والأنين بصوتٍ عالٍ، ليس لإحساسها بالألم وإنما تلك اللذة الغريبة التي لم تمر بها من قبل، كانت ضربات قلبه مرتفعة بشكلٍ ملحوظٍ، أنفاسه وسرعته وطريقته في التملك من جيلان كفريسة جعلته يرى العالم بصورة أكثر وضوحًا، لم يكن يدري في الحقيقة مَنْ يصرخ تحديدًا في هذه اللحظة التي بدت له غير واضحة، فآثار الخمر والتامول وما يمر به من أحداث تدعو للتعجب جعلته يدخل في دائرة عنيفة لا تخرج آثارها إلا بين ذراعي امرأة، وكأنها العلامة الوحيدة على قدرته على التحكم بشيء ما، والولوج في شيء يعرفه ويفهمه، يفهمه للغاية، في جزء منه يعلم تمامًا أنه فقد السيطرة على كل شيء في الفترة الأخيرة، بل فقد السيطرة على كل شيء حتى النهاية.

أنفاسه العالية بشدة بعد أن انتهى من جيلان كانت مقلقة بشكل كبير، غاب عن الوعي بشكلٍ كاملٍ في فكرة لم يدركها حينما عاد بعد دقائق معدودة، دقات قلبه أوضحت له أن مرضه شرع في التملك منه

بصورة مخيفة، فالرجال وحدهم يحددون مدى قدرتهم ويكتمونها داخلهم لأنها الشيء الوحيد السري الذي لا تفوح رائحته كلما كانت تلك الرائحة نتنة ومقرفة، وكلما كانت الحقيقة ضعيفة ومخزية، نظر إلى جيلان التي كانت واقفة ترتدي ثيابها الداخلية وهي تنظر إليه باستيحاء وتعجب، لم تتفوه بكلمة ولم يحاول أن يتحدث إليها، فهو لا يتذكر متى جاء بها إلى غرفته! ومتى حدث كل ذلك! ارتدى سرواله ثم بهدوء أخذ هاتفه وخرج إلى البلكونة الملحقة بغرفته ثم أغلق بابها خلفه، لم يكن يدري تحديدًا ماذا سيقول في البداية، «أفتقد فيكِ كل شيء»، قال أدهم بنبرة صادقة، «ليلى أنا في فرنسا أقوم ببحثٍ من أجل روايتي الجديدة، لا تتعجبي وأرجو منكِ عدم الدخول في تفاصيل لا طائل منها، أنا في حاجة إلى مساعدتكِ في روايتي الجديدة، أنتِ باحثة في التاريخ وهناك شيء لو تساعدينني فيه فقد يعينني كثيرًا في مهمتي ويوفر لي وقتًا طويلًا من البحث... دائمًا رائعة يا ليلى، لن أنسى لكِ ذلك، التفاصيل.. نعم.. أريد كل المعلومات عن عائلة الفنان يوجين ديلاكروا، أعتقد أن سلالة عائلته ما زالت تعيش في فرنسا، لو أمكنكِ معرفة بعض التفاصيل عن ذلك الأمر سأكون ممتنًا لكِ جدًا».

أغلق أدهم الخط وهو يشعر شعورين مختلفين، أحدهما شعوره بالذنب، أما الآخر فكان نوعًا من الإرادة التي انتابته، ولكنها إرادة نابعة من الغضب الكامن في أعماق نفسه، في جزء منه قرر أن يعوِّض ما فات مع ليلى حتى لو كان المتبقي منه مجرد شهور؛ لأنها بالفعل تستحق ذلك،

على الأقل لن يترك لها اسمًا موصومًا بالعار، نظر إلى جيلان نظرة قاسية لم تفهم معناها وسرعان ما ابتسم لإدراكه أنه لا ذنب لها، فهو الذنب هنا، المذنب الوحيد في هذه النقطة المترامية على أطراف حياته التي لا يفهم ولا يعي منها شيئًا.

بعد نصف ساعة تقريبًا، وهو يجلس في مواجهة جيلان شبه العارية، التي كانت تُصفِّف شعرها، دقَّ هاتفه، كانت ليلى، انتزع الهاتف بسرعة ومعه ورقة وقلمًا واتجه إلى البلكونة.

«أدهم.. بالفعل كما توقعت فإن عائلة ديلاكروا ما زالت تعيش حتى الآن في باريس، إنها عائلة ثرية لكن لم يتبقَّ منهم سوى دانييل ديلاكروا التي تعيش مع زوجها رجل الأعمال فاحش الثراء فريدريك آبلان، إنها سيدة عملية للغاية ولكن هناك قصة غريبة لا أعلم إن كان عليَّ ذكرها لك»، وضحكت، «إن دانييل امرأة تتمتع برومانسية حالمة حال كل امرأة فرنسية رغم أنها عملية كما ذكرت لك، فمن المعروف عنها أنها تزور كنيسة نوتردام مرتين أسبوعيًّا على الأقل، فإن تلك الكنيسة تمثل رمز الرومانسية الفرنسية، في الحقيقة إنه المكان الذي التقت فيه زوجها لأول مرة، ولذلك يمثل لها ذلك المكان حدثًا مهمًّا».

شكرها أدهم بعد أن تأكد في نفسه من المعلومة واتضح له أن ليلى لم تلتفت لمقتل زوجها الأخير، بسرعة ارتدى ملابسه واستأذن بشكلٍ غريبٍ من جيلان التي لم تفهم شيئًا، وانطلق إلى العنوان التي أعطته له ليلى، وقف في مواجهة البيت الذي يشبه القصر الكبير، والذي يقع على

بعد كيلو مترين تقريبًا من باريس من الجهة الشرقية، لم يكن حول المنزل أي منازل وكأنه قلعة خرجت من باطن الأرض خصيصًا لمالكيه، لم يكن المنزل مضاءً، بل كان معتمًا بشكلٍ يجلب الرعب، كئيبًا بشكلٍ مخيفٍ، البوابة الحديدية الكبيرة والقديمة التي تعكس ما خلفها من خلال قضبانها الحديدية تطل في وجهه كوحشٍ متمردٍ يمنعه من الدخول، أخذ نفسًا طويلًا واتجه ناحية البوابة التي ظهر من خلفها فجأة رجلان مفتولا العضلات، يرتدي كلٌّ منهما بدلة سوداء، فاستنتج أنهما من الحراس، أمراه بالتوقف وإبداء أسباب مجيئه في هذا الوقت المتأخر من الليل، أخبرهما بفرنسية ركيكة للغاية بأنه لا يستطيع التحدث بالفرنسية، أمراه بالمغادرة وإلا اتصلا بالشرطة، كلمة الشرطة ليست كلمة صعبة ليستطيع أحد فهمها، شرعا في الصراخ فيه، كما سمع صوت نباح الكلاب التي أطلَّت فجأة برفقة اثنين آخرين من الحراس، كانت الكلاب كافية لترهب أعتى رجل بحجمها الكبير وعيونها اللامعة كمصابيح ليلية وأسنانها الحادة المتعطشة للقتل، لم يكن أدهم يفهم السر الحقيقي خلف تمسكه بالدخول، فكرة غريبة تُلح عليه جعلته يقف في هذا المكان، لم تكن أفكاره مرتبة ولكنها كانت كافية بالنسبة له، فجأة ظهر رجل عجوز يأمرهم بفتح الباب والسماح له بالمرور، في الوقت الذي انفتح فيه نور في الطابق الثالث من المنزل الكبير، انفتحت البوابة، دخل أدهم بحذرٍ تام وهو ينظر إلى الكلبين اللذين أرهقا الحارسين للتحكم فيهما، لم يكن أدهم يعلم الخطوة التالية ولكنه أدرك تمامًا أنه في نقطة لا يمكن التراجع عنها.

سار أدهم والخوف يملأ قلبه بجوار الرجل العجوز الذي كان يمشي بخفة مشية أرستقراطية لا تخطئها العين، كانا يسيران عبر ممر حلزوني التصميم تحفُّه الأشجار القصيرة على الجانبين، وقد لاحظ أنه تم العناية بها بشكلٍ رائعٍ، كانت رائحة الأزهار الفرنسية المميزة تنتشر بالحديقة التي سقط عليها نور خافت من خلال المصابيح التي أُضيئت الآن فقط مما جعل المكان الجميل يبدو أكثر جمالًا ورومانسية بعد أن كان موحشًا منذ ثوانٍ قليلة.

وقف أدهم برفقة الرجل العجوز الذي تبين له فيما بعد أنه هو نفسه الرجل الذي قابله في كاتدرائية نوتردام عصر هذا اليوم، لم يتفوَّه الرجل بكلمة ولكنه ظلَّ واقفًا محدقًا بعينيه نحو السلالم التي لم تبدُ واضحة في هذه الأثناء بفضل العتمة التي أطلَّت على المكان بأكلمه، استطاع أدهم أن يسمع صوت خطوات ثقيلة ثابتة تهبط على السلم، سرت رعشة في جوفه، في هذه الأثناء جاء الشاب الذي رآه برفقة الرجل العجوز ليقف في وقار وخشوع لا مثيل لهما أمام السيدة دانييل التي كانت بمظهرها الذي لم يتغير منذ أن رآها، نظرت إليه نظرة طويلة حادة، واتجهت إلى غرفة فتحها لها الشاب، تبين فيما بعد أنها غرفة المكتب، جلست بهدوءٍ دون أن تنظر لأدهم، «ماذا تريد؟!»، قالت السيدة دانييل بحدة، «هل جئت لتقتلني أنا الأخرى؟!»، حينها أضاء النور جميع أركان المنزل، ظهر لأدهم فخامة المكتب الذي تجلس عليه، كانت هناك صورة موضوعة خلفها لزوجها في ريعان شبابه، يبدو أنيقًا في بدلته الصوفية السوداء وقبَّعته الفرنسية

الرائعة التي تعود لسنوات طويلة، استطاع أن يرى تمثالين على جانبيها، لم يستطع تحديد شيء فيهما سوى أنهما من العصر الروماني العظيم، ترجم الشاب ما قالته السيدة لأدهم، «لم آتِ إلى هنا إلا للتحدث معكِ». قال أدهم متلعثمًا، «أنا كاتب وروائي شهير، إن كنتِ مهتمة بالروايات والقصص بالتأكيد سمعتِ اسمي؛ فأعمالي تُترجم وتُباع في فرنسا، اسمي هو أدهم طلال، جئت من أجل التحدث إليكِ وهذه الأوراق تُثبت ما أقوله»، وأخرج جواز سفره ووضعه أمامها بهدوء، لمح حينها شيئًا لفت نظره مُعلَّقًا في الجانب الأيمن من المكتب، بندقية قديمة للغاية وقبّعة طويلة حال لونها من تأثير الزمن، عاد بذاكرته القريبة فاكتشف أنهما يتطابقان مع اللوحة التي تعود ليوجين ديلاكروا الجد الأكبر للسيدة دانييل، اللوحة التي رسم نفسه فيها، لوحة الحرية، لم يحاول أدهم أن يلفت الأنظار بعد ذلك ونظر مباشرة إلى عيني المرأة التي كانت تنظر إليه في هذه الأثناء نظرة متشككة، لم تلمس جواز سفره، «وماذا تريد يا سيد أدهم؟!»، قالت بنبرةٍ قاسيةٍ، «لا أتحمَّل فضول الصحفيين ولا الأدباء أمثالك إن كنت أديبًا بالفعل، فمَنْ قتل زوجي عربي، في الحقيقة ليس أي عربي، فإنه رجل ذو ثقل في بلاد المغرب، بالتأكيد قرأت عن الحادث بأن قاتل زوجي رجل أعمال معروف أيضًا، وقد تلقَّى زوجي رصاصتين منه في هذا المنزل، وفي هذه الغرفة بالتحديد، وعلى ذاك الكرسي الذي أجلس عليه الآن»، جحظت عينا أدهم، لقد توقع أن القاتل مجرد متسكع في الشوارع، أو ربما سارق متهور لعب الجشع بعقله والشجاعة الخيالية بضعفه الواقعي، لم يتصور أن الأمر على هذه الشاكلة أبدًا، لم يعرف ماذا

مليه أن يقول، ولكنه بدأ في الحديث رغم ذلك قائلًا: «أعرف كل ذلك يا سيدتي، لقد جئت من أجل معلومات إن كان مسموحًا بذلك لأنني انوي عمل رواية ضخمة عن هذا الأمر ولن أستطيع أن أقوم بذلك دون موافقتكِ».

«الأمر مرفوض»، قالت السيدة دانييل وهي تنهض غاضبة من مكانها، «مرفوض تمامًا، كان يمكن أن تطلب ميعادًا لتسوية هذا الأمر دون أن تقتحم المنزل بهذا الشكل، لا أعلم أي نوعية رديئة من الخمر تناولتها لتُقدم على مثل هذا التصرف! يمكنك أن تتناول قهوتك وتنصرف، لقد انتهى حديثنا عند هذا الحد»، غادرت المرأة المكان متجهة لأعلى وهي تدمدم بالفرنسية وتبعها الشاب الثلاثيني، جاء الرجل العجوز الذي انصرف منذ دقائق بقهوة إلى أدهم الذي جلس على أحد الكرسيين المتقابلين في مواجهة المكتب، بينما كانت عيناه في مواجهة البندقية والقبعة الطويلة القديمة، لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل ولكنه لم يرفع عينيه عن البندقية والقبعة، كان هناك حارسان خارج غرفة المكتب، طلب أدهم كوبًا من الماء وقرصًا للصداع من الرجل العجوز على استحياء بإشارة لم يفهمها الرجل إلا بعد إشارات تُغني عن اللغة، وبمجرد أن غادر الرجل العجوز نهض أدهم بهدوءٍ وحذرٍ وألقى نظرة على الرجلين في الخارج، كانا ينظران أمامهما في اتجاه البهو الكبير، لمس البندقية والقبعة الطويلة وهو يفكر، لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل، لكن هناك شيء يُحدِّثه بأن الأمر متعلِّق بهما، نظر طويلًا إلى البندقية، ثم ضغط على الزناد وهو مغمض العينين بعد أن أخذ قرارًا متهورًا، متصورًا أنها

ستطلق رصاصة ولكنه سمع طقطقة خفيفة، لقد سمع الصوت آتيًا م
مسافة قريبة، فتح عينيه بحذرٍ وهو يتلفَّت حوله فوجد أن الحائط خاه،
وفي جزء منه قد برز إلى الخارج بقدرٍ يكاد يراه، ضغط بيده عليه بء
محاولات سريعة وهو يتلفت حوله خيفة، فانفتحت طاقة صغيرة كأنها
خزينة خشبية، ووجد علبة قديمة من القطيفة لونها رمادي، فتحها فوج
بها قطعة مثلثية تطابق نفس القطع التي يملكها بحوزته والتي تحمل نقشًا
جديدًا، إنه الابن الثالث، اتضح له أيضًا أنها تزامن عمر القطع الأخرى،
كما أنها تحمل نفس التجويف الذي تحمله القطع المذكورة، لم يفكر
أدهم كثيرًا وأعاد كل شيء إلى مكانه سريعًا، شيء واحد فقط دسَّه في
جيبه، تلك القطعة التي تأكد أنها الشيء الوحيد الواجب الحصول عليه.

جلس في مكانه سريعًا قبل أن يدخل الرجل العجوز إلى الغرفة بثوانٍ، ابتسم أدهم ابتسامة بدت متوترة رغم محاولاته ألا تبدو كذلك، نظر إليه الرجل العجوز نظرة متشككة سرعان ما زالت حينما نهض أدهم بعد أن شرب الماء وتناول قرص الصداع وانطلق برفقة الرجلين إلى الخارج بعد أن دسَّ جواز سفره أيضًا في جيب سترته.

سؤال واحد كان يسيطر على أدهم في هذه اللحظة، ماذا إن اكتشفت السيدة دانييل اختفاء القطعة؟! فأدهم أصبح معروفًا بالاسم والشكل لها ولحاشيتها وربما لكلابها أيضًا، أما السؤال الذي خاف بصدقٍ من مجرد التفكير فيه، ما الذي جعل رجل أعمال شهير يقتل السيد فريدريك آبلان زوج السيدة دانييل؟! هل الأمر يتعلَّق بالأعمال أم بشيءٍ آخر له علاقة بما يمر به؟!

الفصل السادس والعشرون

وقف أدهم مشدوهًا حينما التصقت الأجزاء التي حصل عليها، بدت الحروف مُرتَّبَةً بشكلٍ غريبٍ، المثير في الأمر أن هناك وميضًا ضعيفًا للغاية ظهر على القطع الثلاث سرعان ما اختفى، كان الشكل العام لها بعد تجميعها يدعو للرهبة، وقف في الحمَّام ينظر لها طويلًا محاولًا العثور على تفسيرٍ واحدٍ لما يحدث معه، إلى ماذا ترمز هذه الحروف وما الغرض منها؟! أين يوجد الابن الأخير؟! ما الداعي لكلِّ هذه المغامرة؟! ما السر الذي سيجعله يصل إلى مبتغاه؟! وكيف سينقذ نفسه من كل ذلك؟! مَنْ هؤلاء الذين يساعدونه بشكلٍ أقرب إلى توريطه؟! لماذا لم يقوموا بها بأنفسهم دون أن يُعرِّضوا المسألة برمتها للخطر؟! فالأمر يبدو خطيرًا أكثر مما اعتقد، لم يبدُ الأمر سهلًا بداية من تركيا وحتى الآن؟! ربما يكون بالنسبة لهم مجرد صيدٍ ثمينٍ تجتمع فيه كل المواصفات المطلوبة للقيام بهذه المهمة كما تجتمع في المسببات للامتثال لأوامرهم التي لم تكن واضحة، أعتقد أنهم لا يعرفون المعلومات كاملة لذلك يعتمدون عليه، إن فشل في مهمته فلن يعرف أحد مَنْ يكونون، ستلتصق كل التهم به وينتهي الأمر، البحث عن ضحية جديدة سيكون سهلًا، «أعتقد أنني

لست الضحية الأولى»، فكَّر أدهم في كل ذلك وهو يجلس القرفصاء على الأرض.

عاد بذاكرته إلى الشيخ غانم مرة أخرى الذي أصبح مرجعًا له، «إن كل شيء في هذا العالم مرتبط ببعضه ارتباطًا لا يستطيع عقل إدراكه، كل شيء حدث لك في حياتك ستجده مرتبطًا بخيطٍ خفيٍّ، هذا الخيط هو القدر الذي يرسم ملامح حياتك، أنت تختار الألوان التي ترسم بها لتُكوِّن في النهاية الثوب، الثوب الذي ترتديه ليمثل لك في النهاية شكلك الداخلي، طبيعتك الإنسانية، أستطيع أن أشم هنا فيك الغضب، الغضب شيء قاتل يا بني، وكذلك الخطيئة التي تفوح من روحك، لقد تعلَّمت العديد من الأشياء، لا تتعجَّب من وقع كلماتي، أنت تبحث عن شيء ثمين، وهذا الشيء سيُكلِّفك، وعليك أن تتذكر كل ما قلته لك حتى لا تنتهي الحياة بك وأنت تتمنى بأن يستفيق الموت من غفوته لينال منك»، أخذ أدهم نفسًا طويلًا وعاد برأسه إلى الخلف مُفكرًا في تلك الكلمات العميقة التي تحمل جانبًا مهمًّا من حقيقة الحياة، بل حقيقته هو، في نفسه شعر بالندم على أشياء كثيرة، عاد إلى ذلك المشهد المرعب حينما كانت آسيل تتدلَّى من السقف كذبيحةٍ، تنهَّد متألمًا، غافله مشهد آخر لفاطيم جاحظ العينين وقد فارق الحياة، لا يمكن أن يكون محو الخطيئة بخطيئة، لكن ماذا يمكن أن يكون أشد وقعًا وأكثر تأثيرًا من الألم لنتخلص من خطايانا؟! لندركها حتى نستطيع تفهمها والخلاص منها.

لم يكن يسمع صوت جيلان، جملتها الأخيرة ونفسها الأخير حينما كانت ترقص على أنغام المطرب الفرنسي العالمي Johnny Hallyday وأغنيته الرائعة «L'envie»، خرج أدهم من الحمَّام وهو يدس يديه في جيوبه، التقط أنفاسه بصعوبة بالغة، ما زالت الموسيقى تعزف بصوتٍ عالٍ، جيلان مستلقية على السرير، عارية الصدر، مفتوحة الرجلين بانفراجة واسعة غريبة، لم يكن رأسها ظاهرًا له؛ لأن الوسادة كانت فوقها، لم تكن ترقص، لم تنظر إليه نظرتها الفرنسية العميقة التي تطلبه في الفراش، اقترب أدهم والفزع يتملَّك منه، حرَّك الوسادة من فوق رأسها بهدوءٍ ورعبٍ، لم يستطع أن ينادي عليها، خوفًا من شيء في صدره، من أنها لا تسمعه، لن تسمعه أبدًا، لقد كانت جاحظة العينين، جسدها دافئ، يديها على جانبيها، لم تلتقط الصورة الأخيرة للحياة، لقاتلها، لتخزنها في عينيها ككاميرا رقمية، كانت مظلمة، بالتأكيد إنها الوسادة اللعينة التي قطعت الرؤية، لم تقطع الرؤية فقط، بل قطعت كل شيء حتى الحياة.

لم يتوقف Johnny Hallyday عن الغناء، بكى أدهم، شهق شهقات متقطعة قبل أن يفعل ذلك، أمسك جيلان من كتفيها بقوة وهو فوقها وأمرها بأن تنهض، بألا تترك ذلك المجنون ليحرمها هي الأخرى من حياتها، بألا يحرمه من أمل آخر، بأنه ليس رسولًا للموت، جلس جانبها وهو يضع وجهه بين كفيه، وبكى بحرقة، لم يبكِ بهذه الطريقة ربما منذ أن كان طفلًا، دقَّ جرس هاتفه، نظر إليه نظرة غاضبة، نهض من مكانه سريعًا والشر يتطاير من عينيه، لتكن النهاية إذن له ولكل شيء.

«سيد أدهم، رحلتك إلى إيطاليا ستبدأ بمجرد وصولك إلى محطة القطار بباريس، في روما ستعرف كل شيء، لم يعد هناك وقت، أرجوك لا تغضب، لا يجب أن يعلم أي إنسان بما نصنعه أو حتى بوجودك. والموت هو الطريقة الوحيدة لانقطاع المعرفة.. لا تصرخ يا سيد أدهم، فأنت تدفع الثمن ليس أكثر من ذلك، تذكر نحن لم نقتل ليلى بعد، عليك أن تستمر، وإلا ستكون ضحيتك التالية، بالمناسبة أهنئك على القطعة الثالثة، الابن الثالث، أهنئك بشدة، لقد راهنت عليك وأنت دومًا تُدهشني.. أنا سافل حقير؟! ليكن يا سيد أدهم ولكنني أبدًا لن أكون أكثر حقارة وسفالة منك، لكن هذا لا يهم، فأنت على طريق المخلِّص الآن».

انغلق الخط، دموع أدهم ثائرة في عينيه، بلع ريقه بصعوبة، دخل من البلكونة التي كان يقف فيها في هذه الأثناء، تمنَّى لو لم يجد جيلان، أو يجدها عارية فيهبها الحياة بين ذراعيه، تمنى لو أنه لم يجد القطع الملعونة في جيوب سترته، لكن كل ذلك لم يحدث، فالموت يتنفَّس بحرية في جسد جيلان، والقطع ما تزال هنا تخبره بأن ما هو قادم أكثر سوءًا، ولكن ماذا سيكون أكثر سوءًا؟! فلم تعد حياته تعنيه، لم يعد شيء في الحقيقة يعنيه الآن سوى ليلى، كيف لم يفكر بأن الموت أقرب لها مما تصور؟! كيف لم يضع ذلك في حسبانه؟! اتصل بها سريعًا، لم يكن هناك أي نوع من الردود، اتصل مرة ثانية وخامسة وعاشرة، ليلى بالله عليكِ، امنحيني إشارة واحدة تدفعني للحياة، للاستمرار، لا تجعلي موتي انتحارًا،

، ،باتي ندمًا أكثر مما هي عليه، لم يكن الحب هو الدافع ولا الخوف ا،مًا على ليلى، شيء أكبر من ذلك تجمّع الآن في هذه النقطة بالتحديد، ،انه بالكامل التي أصبحت بلا معنى، لم يجد بها الطهر، والطهر في الكتابة، والكتابة أيضًا مزيفة، مبنية على حرفية وصناعة وعلى قانون ما طلبه المستمعون، حتى تلك الهبة الإلهية أُستخدمت بشكل شيطاني، أي ،مارة وسفالة يحويها أدهم بين ضلوعه؟! في قلبه وبين أفكاره؟! لتكن الطهارة ليلى، ولتكن النهاية سوداء تتخلّلها نقطة بيضاء واحدة تجعله ، اضيًا عن لحظته الأخيرة، شعر بصداعٍ تامٍّ ورنين هاتف ليلى لا يتوقف، أخذ القرص الأخير، «لقد كنت نائمة»، قالت ليلى بصوتٍ ناعسٍ، «لقد أقلقتني، هل أنتَ بخير؟!»، جمع أدهم أنفاسه بصعوبةٍ بالغةٍ، لم يغضب، ل ابتسم ابتسامة وسط دموعه الحارة التي لم يشعر بها، وسط ألمه الذي ضاق به، نسي كل ذلك مع صوتها، «لا، لا يوجد شيء، لقد اشتقت لكِ»، قال أدهم بنبرةٍ تحاول التماسك، «ليس هناك شيء بكل تأكيد، كل ما في الأمر أنني اشتقت لكِ كما أخبرتكِ، سأعاود الاتصال بكِ لاحقًا».

«أدهم، أنت تُدرك جيدًا أن إحساسي لا يخطئ أبدًا، ما الذي يحدث معك؟!».

«لا شيء»، قال أدهم مفكرًا، «صدقيني لا شيء»، ابتسمت ليلى دون أن ترد ولكن القلق ظل مستحوذًا عليها، استجابت لصدقه الكاذب الذي بدا مُقنعًا، ولكن إحساس المرأة لا يكذب أبدًا.

أغلق الخط وأخذ نفسًا عميقًا، نهض من مكانه، نظر لجثة جيلان طويلًا، مفكرًا ومتألمًا، وقف في مواجهة المرآة، تفاجأ من مظهره المزري، من الإعياء الذي ظهر عليه. وجه مُصفر، وعينان حمراوان تحيطهما هالات سوداء، أخذ الحقيبة الصغيرة التي توجد فيها الأوراق والمبلغ المالي الذي وجده في الخزانة التي اقتحمها في تركيا، لم يكن يفهم حرفًا واحدًا مما هو مدوَّن في الأوراق، نهر نفسه لأنه لم يسأل جيلان قبل أن تتحول إلى جثة، تأكد من وجود القطعتين وانطلق في طريقه.

وقف في محطة القطار ينظر في أعين ضباط الشرطة المنتشرين في كل مكان، استوقفه أحد رجال الشرطة، بلع أدهم ريقه بصعوبة ولكن في النهاية لم يكن أكثر من أمر روتيني يقومون به في المحطة مع العديد من المسافرين المتوافدين من جنسيات مختلفة، ففرنسا وإيطاليا بلدان يعجان بالعديد من السياح والهاربين من أوطانهم الموهومين بالأمل الكاذب أيضًا، أعطى له الشرطي جواز سفره بابتسامة وإيماءة بسيطة وانطلق في طريقه، وبمجرد وصول القطار دلف أدهم إليه وهو يشعر بالإعياء الشديد، لم يفعل شيئًا، لم يفكر، لم يستعد كل تلك الأمور التي لو فكر فيها قليلًا لقتلته، غاب عن عقله فاطيم الذي أسبل عينيه بنفسه، نسي تمامًا إصبع آسيل وجثتها المشنوقة، غابت وسادة الموت من فوق أنفاس جيلان عن رؤيته، أهمل تمامًا نظرات السيدة دانييل له، غاب كل ذلك على أمل ألا يلتقي بإحداها في أحلامه، بل في كوابيسه، في مستقبله الميت المشؤوم، غاب كل ذلك تمامًا، لأنه ببساطة تامة ذهب في نوم مزعج.

الفصل السابع والعشرون

خرج أدهم من غرفته متوجهًا إلى مطعم القطار بعد ساعتين من النوم الثقيل الذي لم يُضف إليه شيئًا من الراحة، لم يكن هناك مكان خالٍ؛ فكل الطاولات تقريبًا محجوزة، لمح رجلًا خمسينيًا يجلس وحيدًا إلى طاولة وهناك مقعد خال في مواجهته، فكر قليلًا قبل أن يسأله عن إمكانية مشاركته الطاولة، أومأ الرجل برأسه دون أي رد، جلس أدهم بارتيابٍ في بداية الأمر، لم يترك حقيبته، كانت بحوزته، وضعها أمامه محازية لشباك القطار الذي ينهب الطريق نهبًا، العديد من الأسئلة ألحّت على أدهم بشكلٍ غريبٍ وهو يشرب كأس الشامبانيا الذي أمر به قبل إعداد الطعام له، بدا الرجل فرنسيًا للغاية من لكنته ومظهره المتدثر في معطف أسود طويل أنيق، بلحيته التي تم تشذيبها بعناية، وكذلك إيماءاته المدروسة بدقة والتي تعكس ذوقًا لا بأس به، طريقته أيضًا وهو يشم رائحة النبيذ قبل الشروع في شربه أثبتت له أنه رجل ذوّاق بشكلٍ مميز.

فكر أدهم في الأوراق، لم يكن يدري في الحقيقة ماذا يفعل؟! أسئلة كثيرة أطلّت عليه، هاجمته بدافع الخوف، ماذا سيفعل إن كانت الأوراق التي بحوزته أوراقًا مهمة؟! أو ربما تخص قضية لا يجب أن

يطَّلع عليها الغرباء؟! كان أدهم متأكدًا من أنه مراقب بشكلٍ محكم، ..
الفكرة الأخيرة جعلت عقله ينضح بالعديد من الأفكار السيئة، وهنا
أيضًا أطلَّت فكرة ما على عقله، حاول أن ينفضها ولكنها في النهاية
بقيت في منطقة ما من تفكيره، أخرج الأوراق بتشكُّكٍ من حقيبته و..
ينظر إلى الرجل الذي أمامه بحذر، فكرة شيطانية مرعبة جعلته يبلع ريقه
بصعوبة بالغة، ماذا إن كان هذا الرجل تحديدًا هو مَنْ يقوم بمراقبته داخل
القطار؟! ابتسم ابتسامة ساخرة بعد أن وضع الأوراق أمامه وهو يصب
كأسًا أخرى من الشامبانيا في حلقه دون أن يرفع عينيه عن الأوراق،
ثم شرع في الحديث، أخبر الرجل بأنه لا يتحدث الفرنسية ويتحدث
الإنجليزية إن كان ذلك ممكنًا، نظر الرجل إليه نظرة طويلة متشككة من
خلف نظارته الطبية ذات الإطار الأسود الذي يُضفي على بشرته البيضاء
بريقًا مميزًا، لم يكن أدهم يفهم حقيقة تلك النظرة ولكنها بدت له نظرة
رجلٍ عارفٍ بالعديد من الأمور، يقيس الرجل القابع أمامه، «لا أتحدث
الإنجليزية مطلقًا»، قال الرجل مشيرًا بيده بلغة إنجليزية محافظًا على
اللكنة الفرنسية أيضًا، «لكن إن كان الأمر مهمًّا فيمكنني استثناء الأمر
وإن كان غير ذلك ستكون جملتي تلك هي الجملة الأخيرة بالإنجليزية
الكريهة، تكلَّم»، هذا طبيعي فالفرنسيون يقدسون لغتهم، أخذ أدهم
نفسًا عميقًا، لم يتصور أن يكون الرد بهذه الطريقة، فالفرنسيون بطبعهم
الحاد متعصبون جدًّا لبلادهم وللغتهم ولأصالتهم، سخر من نفسه ومن
بلده الذي يتمنى كل فرد فيه الآن التبرؤ منه أو الهجرة خارجه، أَسِف
لما وصل إليه بلده تحت اسم الديمقراطية والواجب، سرعان ما نفض

.. ذهنه تلك الأفكار التي لم يفكر فيها يومًا، فهو ابن الطبقة التي لا تهتم، ولا تعني لها الأحداث الخارجية شيئًا، فأي عقلٍ شاذٍ يحمله الآن في رأسه؟! وأي عقلٍ ضالٍ ينصب نفسه مفكرًا الآن فوق جسده وروحه؟! نظر إلى الرجل نظرة طويلة ذات مغزى محاولًا بقدر الإمكان إخفاء كلماته القادمة، «سأموت خلال أشهر قليلة»، قال أدهم بنبرةٍ خافتةٍ ولكنها واضحة، «أقسم لك إنها الحقيقة، أظن أن ذلك كافيًا لتخبرني بما تحويه هذه الأوراق، فهي مهمة للغاية بالنسبة لي»، نظر الرجل له نظرة احتوتها الدهشة، سرعان ما تحولت لنظرةٍ متشككةٍ ولكنها بعد برهةٍ ليست بالقصيرة زالت وهو يمد يده ليأخذ الأوراق من أدهم الذي شعر بأملٍ متجدّدٍ لم يشعر به منذ وقتٍ طويلٍ.

أمسك الرجل الأوراق، فتحها بهدوءٍ وشرع يقرأ سرًّا، «إنها أوراق تخص شيئًا غير مفهوم بالنسبة لي»، قال الرجل وهو يرفع رأسه بعد مدة ليست قصيرة تخلَّلها الشك والالتفات من وقتٍ لآخر من قبل أدهم الذي بدا متوترًا للغاية، منتظرًا بطاقةٍ لا يملكها، نقاط قليلة من العرق كانت على جبهته، «ماذا تقصد بشيء غير مفهوم؟!»، قال أدهم معترضًا بشكلٍ غريبٍ.

«كما قلت لك»، قال الرجل وهو يقترب من أدهم، «تتحدث الأوراق عن أربعة إخوة، كل أخٍ يوجد ببلدٍ ما، الأب ينتظرهم بجانب المُعلم الكبير، لن يُفتح الباب إلا باتحاد الإخوة الأربعة، حينها، وحينها فقط سيسمح الجد بمرور الجميع»، أخذ الرجل نفسًا طويلًا وقد تحوَّل صوته

لنبرةٍ أكثر همسًا مما جعل أدهم يقترب منه حتى أصبح وجهاهما على بعد سنتيمترات قليلة، «حينما يحدث كل ذلك سيكون العبور من الجهل إلى النور، ومن الموت إلى الحياة أمرًا سهلًا، أعتقد أن تلك الأوراق تتحدث عن سرٍّ عظيم، إن سألتني عن رأيي مَنْ كتب هذه الأوراق إما مجنون أو مصاب بخيال زائد يصلح ليكون مادة روائية رائعة أو ربما لفيلم سينمائي ضخم كتلك التي تعج بها السينمات الآن».

ابتسم الرجل وهو يعود في جلسته إلى الخلف بعد برهة من التفكير بعينين لامعتين، «هناك عنوان ما أيضًا في هذه الأوراق»، وأشار إليه لأدهم وهو يقرأه، «إنه في باريس، لقد ذهبت إليه مسبقًا»، قال أدهم بهدوءٍ، «بقية الأوراق لم أفهم منها أي شيءٍ وأعتقد أن الجزء الأهم هو ما أخبرتك به»، قال الرجل وهو يشرب جرعة من الشامبانيا، «بالمناسبة لقد كُتبت هذه الأوراق منذ مُدةٍ طويلةٍ جدًّا، إنني أعمل في مجال الأوراق والخطوط ويمكنني تمييز الأوراق والكتابة، فهذا عملي منذ أن كنت صغيرًا، ألم تلاحظ أن الكلمات منقوشة هنا عن طريق الآلة الكاتبة؟ بالإضافة إلى أننا لو دققنا النظر في الحروف المستخدمة سنكتشف أنها كُتبت بآلة كاتبة مميزة للغاية، فإن هذه الأحرف نُقشت في الفترة الزمنية ما بين 1890 و1900، أنا واثق من معلوماتي تمامًا، فهذا عملي، وإن سألتني عن استنتاجي فلا أستبعد أن تكون آلة من آلات الأمريكي كريستوفر لاثام شولز، الذي أدخل تعديلات على هذا الاختراع، هذا واضح للخبراء أمثالي، إنك تملك ورقًا يساوي ثروة إن لم تكن كلماته تعني

شيئًا بالنسبة لك، هذا كل ما لديَّ لأُخبرك به»، نظر أدهم إليه نظرة طويلة شاردة، حاول جمع الخيوط ببعضها، أعاد ما قاله الرجل له بالترتيب المنطقي مقارنة بما يحدث معه ومع تلك المكالمات، ماذا يعني هذا اللغز المتكرر؟! وإلى أين سيقوده الإخوة الأربعة؟ ومَنْ يكون تحديدًا الأب والمُعلم الكبير؟! اقترب منه الرجل مرة أخرى، «في الورقة الثانية إن كان الأمر مهمًّا لهذه الدرجة، ستجد أن كاتب هذه الأوراق يتحدث عن جماعةٍ ما، تلك الجماعة اسمها «الحماة» كما هو مذكور، أعتقد أن لهم صلة وثيقة باللغز، كما أن هناك أكثر من اسم مكتوبٍ ومنهم مشاهير أيضًا، ديلاكروا الرسام الفرنسي الشهير، وهناك أيضًا الفنان الإيطالي مونيه كلود أوسكا، وغير ذلك من الأسماء من إنجلترا وإسبانيا والنرويج وبلدان أخرى مختلفة»، العديد من الأفكار طرقت رأسه، ومضات قوية من الماضي البعيد والماضي القريب اختلطت لتُكوِّن له موسيقى تصويرية مرعبة لا تقل عن قُدَّاس الموتى حين وداع شخص عزيز أخير من على هذه الأرض، كان العرق يتصبَّب من وجه أدهم حيث وضح أن هناك بالفعل سرًّا عظيمًا يجري وراءه، تخبَّطت العديد من الأفكار السوداوية في رأسه، شعر بألم في جسده فجرع كأسًا أخرى من الشامبانيا وتنهد تنهيدة حزينة.

«سيدي»، قال الرجل، «ماذا يمكن أن نخسر إن كنا سنموت؟! كل ما ربحناه هو في النهاية أيضًا خسارة، ليست هذه نظرة تشاؤمية للأمور، بالعكس، ولكنها الحقيقة التي تدفعك لتُحلِّق كما تشاء وبالشكل

الذي ترغب، اسأل نفسك سؤالًا: ماذا يمكن أن يكون مرعبًا أكثر م
الموت؟! أعتقد أن الدافع الوحيد لنا في هذه الحياة هو أننا ندرك جـ
بأننا سنموت، ولذلك نحاول بكل قوة نملكها وبكل إرادة تتخلل نفو
أن نسلب ما نستطيع سلبه من الدنيا التي نعرفها، فالبشر في قراراته
يُبجِّلون الآخرة، ونحن نبجِّل كل ما هو خفي غير واضح، ولكننا ا
نؤمن به إيمانًا كاملًا كما يعتقد البعض، فالبشر لا يعرفون شيئًا عن الحيا
الأُخرى، الآخرة، ولا تهمهم كثيرًا إلا في لحظاتهم الأخيرة إن سألتن
عن رأيي، فلقد تواجدت في اللحظات الأخيرة للعديد من الأشخاص
الذين جمعتني بهم صلة قوية أو صلة ضعيفة، في النهاية برزت النهايه
بالنسبة لي وكأنها مشهد هزلي يتكرر كل ثانية بنفس الطقوس ونفس
الدموع، نفس الكلمات التي تتحدث عن الوحشة والخزي والغفران،
أنا مؤمن بالله جدًّا ولكن أتابع وأفكر، في الحقيقة أنا لا أفعل ذلك إلا
من أجل المتعة، فإن كنت ستموت فلا تفكر كثيرًا في تلك الأمور التي
تحاول من خلالها تغيير العالم، فالعالم لا يتغير يا سيدي، هو فقط يتغير
بملء إرادته وبالشكل الذي يرتضيه لنفسه، ومن خلاله نتغير نحن، هؤلاء
الذين حاولوا تغييره أو الوقوف ضد إرادته ماتوا مجانين أو شهداء في
سبيل قضية غير مفهومة؛ لذلك ستجد أسماءهم معلقة في المتاحف وفي
كتب التاريخ، في الحقيقة هؤلاء هم مَنْ حاولوا تغيير النظام، والنظام
في الحقيقة لا يتغيَّر ولكنه يُبجِّل مَنْ يحاول معرفة سرِّه فيمنحه الموت
وكذلك الخلود، ولكن الموت تلك الكلمة الرهيبة، اتركها وشأنها الآن،
افعل كل شيء وكأنها لحظتك الأخيرة حتى وإن كنت تدرك أنها بالفعل

لحظتك الأخيرة؛ لأنه في الحقيقة لا توجد لحظة أخيرة لأي شيء إلا عندما نؤمن بذلك، أنت بحاجة للراحة، يبدو عليك الإرهاق، أنا رجل عجوز من وجهة نظر الزمن ولديَّ من الخبرة ما يكفي لأدرك أنك الآن مرهق جدًّا من مشوارٍ طويلٍ تحاول فيه الحفاظ على التوازن دون السقوط، ومَنْ لا يسقطون لا يعرفون أبدًا الصعود».

كان وقع الكلمات غريبًا جدًّا على أدهم، لم يشعر بنفسه إلّا وهو يتناول طعامه في صمت بينما انكب الرجل على جريدة فرنسية دون أن يرفع رأسه عنها، تخبَّطت الأفكار في رأس أدهم، وامتلأت معدته بمقدارٍ مناسبٍ من الطاقة، انطفأت عيناه وكذلك عقله، لم يشعر بشيء، لم يتذكر شيئًا سوى تلك اللحظات الأخيرة وهو ينظر للقطع وهي في يده قبل أن يغافله قاتل اليقظة.

الفصل الثامن والعشرون

وقف خمسة من الرهبان على اليمين وخمسة مثلهم على اليسار تفصل بين كل منهم مسافة لا تزيد على متر واحد يرتدون زيهم الكهنوتي ولكن لم يكن بلونٍ أسود أو أحمر، بل كان لونًا أزرق قاتمًا، في غرفة فسيحة، رؤوسهم مغطاة والنصف الأعلى من وجوههم، كان سقف الغرفة على شكل قُبّة زجاجية ذات إطار خشبي، تفوح منها - الغرفة - رائحة زكية حيث كانت رائحة البخور ودخانه ينتشران في أرجاء الغرفة فبدا المنظر بكامله مهيبًا، الأرضية كانت مصقولة بنوعية من سيراميك أسود كبير الحجم يعكس الرؤية كمرآة حين النظر إليه، وكان يجلس في المنتصف العبد العظيم، أو الحكيم، على كرسي كبير بدا ملكيًا من هيأته المهيبة، ذا مسندين عاليين، ووسادة حمراء مزركشة بنقوش غريبة، يتوسطها نقش باللغة العبرية يتكون من أربعة حروف، يحيطه إطار ذهبي مُرصَّع بأكاليل، بينما يستند الكرسي على أربعة أقدام، كل قدم في نهايته رسم لـ «المينوراه» - الشمعدان السباعي - في المواجهة، في المنتصف، بينما وقف بين كل كاهن من الكهنة رجال تراوحت أعمارهم بين الخمسين والسبعين عامًا، يرتدون ثيابًا عصرية مختلفة ولكن لا تخلو من الوقار،

حيث بدوا ذوي نفوذ وسلطة، منهم ثلاثة يرتدون «الكيباه» - أو الـ
وتُعرف أيضًا بـ «اليارمولكه»، وهي غطاء رأس صغير ومستدير الـ
يرتديه الرجال اليهود، يقفون في هيبةٍ واحترامٍ في ظل هذا الطا
الغريب، في الحقيقة لم يكن الأمر طقسًا بقدر ما كان اجتماعًا مهمًا
الجميع بدوا قلقين إلى حد أن ذلك كان باديًا على نظراتهم المتبا
بينما كان الرُّهبان مطأطئين الرؤوس، يشبكون أيديهم أمامهم على
بطونهم في خشوع.

«تعلمون جميعًا لِمَ نحن هنا»، قال العبد العظيم بنبرة صوته الهـ
الحكيمة التي لم تخلُ من الجدية، «نحن بصدد حدثٍ كنا في انتظـ
جميعًا».

«أعتذر يا سيدي»، قال الرجل الأقرب ذو النظارة السميكة ء
يمينه، «كيف استطاع أن يصل إلى القطعة في فرنسا؟! حتى الآن
يمكنني تصور الأمر، لقد تخيلت أنه مثل سابقيه وأنه لن يجتاز شيئًا».

«نحن لا ندرك الحقيقة ولكن وحده الله يعلم ذلك»، قال الـ
العظيم بنبرةٍ هادئةٍ، «كل ما علينا فعله أن نساعده كما ساعدناه والـ
وحده مَنْ سيظهر لنا ما يتوجَّب علينا فعله فيما بعد، إن كان هو المخلّـ
فسيأتينا في يومٍ من الأيام، وإن لم يكن فلن يصل إلى هنا وسيخيب ـ
جميعًا، ولكن علينا مراقبته جيدًا، لو فشل لحصلنا على ما حصل ء
لنحافظ عليه وهذه هي مهمتنا الأساسية»، أخذ نفسًا عميقًا بعد صمـ
ثقيل، «لقد عشنا لفترةٍ طويلةٍ ونحن نحمي هذا السر، ربما لا يبدو الأ

.رًا للباحثين وللواثقين من الحقيقة ولكن وجود دليل مادي سيؤكد كل شيء، لقد أُنشئت هذه الجماعة خصيصًا لتمحو آثار جرائم مَنْ سبقونا، سامحهم الله».

«لكنه يبحث عن مجد شخصي»، قال الرجل في نهاية الغرفة معترضًا وهو أحد مَنْ يرتدون الكيباه فوق رأسه، «والمخلِّص لا يبحث عن مجد شخصي».

«الطريق يا أصدقائي دائمًا ملفع بالألم»، قال العبد العظيم وهو ينهض من مكانه، «الألم وحده يحقِّق المستحيل، يخلِّصنا من خطايانا، لما حدث منذ قرون طويلة، وحده الألم القادر على محو أعمق وأكبر خطايانا، كل هؤلاء الذين بحثوا عن الحقيقة وصلوا لها بعد أن تجرَّدوا من كل شيء، تصوَّفوا في حياتهم ونبذوا كل ما فعلوه، والآن لنواجه الحقيقة التي نحن بصددها، بأن ما كنا نبحث عنه وحاولنا نزعه من الحُماة ثم فشلنا فاتفقنا أن نحميه من بعيد قد تم الحصول عليه الآن، أي بمعنى أدق لم يعد ملكًا للحماة بعد الآن».

«أتظن أنها الأيدي السليمة؟!»، قال الرجل الأخير باستياء، «إنها أيدٍ مدنسة ولا أعلم حقًّا كيف يمكن لك أن تقبل كل ذلك؟! تدَّعي يا سيدي أيضًا أنه المُخلِّص؟! لا يستطيع عقلي قبول ذلك!»، سادت همهمة بعد ذلك بين جميع الموجودين.

أشار العبد العظيم بيده فسكت الجميع احترامًا، «بالفعل أنت محق»، قال الحامي، «ولذلك قمت بالإبلاغ عنه بنفسك دون أن ترجع

إلينا في تركيا وارتكبت باسمنا العديد من الجرائم، لكن ألم تفكر كيف استطاع أن يفلت كل مرة وفي لحظة فاصلة؟! كيف استطاع أن يُدرك حقيقة وجود القطعة في فرنسا؟! وكيف للشيخ في سيناء أن يُقرَّ بأنه هو المُخلِّص؟! كل الدلالات تؤكد أنه هو وكل ما علينا أن نُقدِّم له ما نستطيع من مساعدة، لكننا للأسف لا نستطيع مساعدته بشكلٍ كاملٍ لأننا لا نعرف سوى الخطوط العريضة، إن القدر يساعده بشكلٍ لا يقبل الشك وبالتأكيد هناك سبب لذلك، اخجل من نفسك لأنك كنت على وشك عرقلة القصة بكاملها، تعبَّد لله واطلب منه الصفح، أنت ترتكب الخطأ القديم نفسه الذي ندفع ثمنه جميعًا الآن، في النهاية إن لم يكن هو فسنحصل على الأبناء التي أرهقتنا في حمايتها وهي متناثرة في بقاع مختلفة من هذه الأرض، وبذلك نكون قد ضمنًّا الهدوء والسلام اللذين طالما نشدناهما».

سار الرجل الأخير بعصبية نحو الباب الكبير المصنوع من خشب الصندل، والمزين بنقوش عبرية وعربية مختلفة متداخلة، نظر خلفه للعبد العظيم نظرة طويلة، «اعذروني»، قال الرجل بوجهٍ محتدمٍ وهو ينزع الكيباه من فوق رأسه، «لا أستطيع تصديق ما يحدث! ولن أستطيع الموافقة عليه»، وغادر بخطواتٍ واثقةٍ لا تخلو من العصبية.

نظر العبد العظيم إليه وهو يغادر حتى فارق عينيه بحزنٍ ثم نقل بصره بين جميع المتواجدين بنظرةٍ ذات معنى، حيث عَمَّت المكان همهمة انتهت بالصمت، «مَنْ لا يؤمن فعليه وحده أن يتحمَّل نتيجة أفعاله»، قال

العبد العظيم ثم جلس على الكرسي، نظر إليه الجميع نظرة طويلة ثم أقروا بتسليمهم لما يقوله.

«لقد اقترب الموعد»، قال العبد العظيم، «علينا جميعًا أن نكون مستعدين للأحداث القادمة، لم يعد هناك وقت لأي شيء»، عليكم فقط أن تكونوا مستعدين وهذا كل ما أطلبه منكم، الله وحده يعلم الحقيقة ووحده مَنْ يملك الحكمة».

روما

«القوادون يملأون العالم لكنهم تطوَّروا وأصبحوا أكثر نُضجًا ومكرًا»

الفصل التاسع والعشرون

«سيد أدهم»، قال المتحدث عبر الهاتف حينما خرج أدهم من القطار بعد رحلة استغرقت إحدى عشرة ساعة تقريبًا، «عليك أن تتَّجه إلى فندق كويرناليه، لا تجذب الأنظار يا سيد أدهم فما زال أمامنا الكثير، سأطلعك على التفاصيل فيما بعد، بالمناسبة لقد كنت قاسيًا جدًّا مع جيلان، فهذه التحفة الأنثوية لا تستحق هذه المعاملة البشعة»، شعر أدهم بابتسامته الباردة المنتصرة وهو يختم كلماته، أكد لنفسه أنه ليس هناك مَنْ يُضاهي هذا الشخص بشاعة، تعجَّب في نفسه من اختيار القطار كوسيلة نقل رغم أن الطائرة مُتاحة وأسرع وأكثر راحة، وضع تصورات مختلفة للأمر برُمَّته، هل فعلوا ذلك من أجل سلامته التي ينوون التضحية بها في أول فرصة؟! وعلى الجانب الآخر يعلم بشكلٍ لا يقبل الشك بأنهم يحتاجون إليه، لو كانوا يريدون بصدقٍ الانتقام منه لشيء ما في نفوسهم لانتقموا منه منذ اللحظة الأولى، فكل الحقائق السابقة تؤكد له أنهم قادرون على فعل أي شيء وكل شيء، إنهم يعرفون شخصه بشكلٍ لا يقبل الشك، لقد درسوه قبل أن يُقدموا على تلك المهمة المجهولة والغامضة، ربما

أُتيحت لهم الفرصة ليمدُّوه بنوعٍ من الراحة النفسية أولًا، «راحة نفسية»، قال أدهم في نفسه بنبرةٍ ساخرةٍ ثم ابتسم ابتسامة باهتة موجعة.

حلقات كثيرة مفقودة لا يعلم بدايتها حتى يكتشف سر عملها ليعلم كيف ستكون النهاية التي بدت له بعيدة جدًّا وكارثية بشكلٍ كبير، حتى وإن نفَّذ مهمته، فلن تكون نهايته سوى الموت أو السجن حتى الموت، أو ربما في النهاية السجن داخل أسوار نفسه، «أعتقد أن هذه الأخيرة أكثر قسوة وأشد انتقامًا»، فأدهم ما زال مسجونًا داخل فكرة موته القريب، تذكر ذلك بقلبٍ يسوده الألم رغم أن الأمر كان بالنسبة له قبل كل ذلك مجرد رحلة يعمها السلام، لم تكن كذلك في الحقيقة في جزء منه، لم يحاول نبش ذكرياته المريرة الناتجة عن تلك الأفعال التي أقدم عليها في ماضيه والتي جلبت له العار والخزي بينه وبين نفسه، يعلم أن الشجعان وحدهم هم الذين يواجهون أنفسهم بالحقيقة، والحقيقة أن أدهم لا ينتمي إلى هؤلاء، فكل تلك الأعمال الشيطانية التي برَّرها لنفسه تُعدُّ عبئًا ثقيلًا على نفسه، عبئًا لم يستطع يومًا أن يفتحه أو يفكر فيه رغم اقتراب الموت منه.

«سيد أدهم»، قال الطبيب بنبرةٍ حزينةٍ، «كل التحاليل والأشعة تؤكد أنك تقترب من الموت، لن أكون سوداويًّا للغاية ولكن أنت تعلم أن طرق العلاج في هذا المجال تتطوَّر يوميًّا وهناك أمل كبير في شفائك».

«شفائي»، قال أدهم بسخرية، «أشفى من مرض ولكنني سأعود أكثر مرضًا، بلا ذاكرة، بلا حياة، ربما لن أتذكر مَنْ أكون، دكتور، كل ما أطلبه منك ألَّا يعرف أحد عن هذا الأمر شيئًا، فهذا هو دوائي الوحيد».

«يمكننا أن نوفِّر لك كل ما تطلب»، قال عامل استعلامات الفندق بالإنجليزية بلكنة إيطالية مقاطعًا ذكريات أدهم، «لقد تم حجز غرفة لك يا سيد أدهم عن طريق الهاتف، كل شيء معد لك»، نظر أدهم إليه طويلًا وكأنه يستعيد الواقع، نظر حوله لبُرهة، ابتسم ابتسامة باهتة قبل أن يومئ برأسه بملامح لا تحمل أي معنًى، ثم جاء أحد العاملين لمرافقته إلى غرفته، دخل أدهم غرفته وأعطى العامل بقشيشًا، وطلب منه زجاجة فودكا، لم يعرف بعدما ذهب العامل لمَ طلبها! في الحقيقة كانت هناك فكرة واحدة تُلحُّ على رأسه، الهرب من واقعه الدميم وذكرياته التي باتت ثقيلة مؤلمة، الهرب فكرة لا تتحقق بسهولة فهي تحتاج لقوى توازي قوة صمود مَنْ يحاول الفتك بتلك الفكرة، ما يريد الفتك به ليست مجرد ذكريات تتخلَّلها أفعال مخزية، أو جثث أصبح أصحابها يطاردونه في أحلامه، لم تكن فكرة الموت أيضًا، لكن كانت هناك فكرة واحدة تنخر في عقله، عدم الفهم، تلك الفكرة كانت كافية لأن توجِّه له الضربة القاضية، تلك الفكرة جعلت منه عبدًا على عكس شخصه المتمرد بطبعه، سيطرته الواضحة على حياته وعلى كل مَنْ هم حوله، شخصه الجموح الذي لم ييأس أبدًا منه رغم العقبات والآلام ورغم كل شيء.

نظر حوله على غرفته وهو يخلع سترته، كانت غرفة فسيحة مزينة بديكور فريد، تضم مفروشات كلاسيكية، الأرضية خشبية تقبع فوقها سجادة صغيرة مستديرة لها لون أصفر فاتح، كان هناك سرير أنيق أيضًا في انتظاره يرتدي ملاءة ذات لون قشدي، وعلى الحائط كان التلفزيون

المسطح الحديث الذي لا يتناسب مع ديكور المكان مُعلقًا، نظر على يساره فوجد بابًا مغلقًا تظلّله ستارة ذات لون قشدي رائعة مزركشة بلون بني غامق، فتح الباب فاكتشف أنها الشرفة، شرفة واسعة، وقف فيها قليلًا يستنشق الهواء الذي سمح له بالدخول عبر رئتيه فأعطاه إحساسًا بالانتعاش والهدوء النسبي إلى حدٍّ ما، يستطيع أن يشتم عبق الحضارة الرومانية، فهو لا يبعد كثيرًا عن الكولسيوم «Coliseum» أو ما يسمى المدرج الفلافي، باللاتينية Ampatrum Flavium وبالإيطالية Anfiteatro Flavio أو Colosseo.

دلف إلى غرفته مرة أخرى ونظر إلى الكرسيين المريحين المتقابلين في مواجهة مكتب صغير كلاسيكي الطراز، حينها دق باب غرفته، حينما تأكد من أنه العامل أمره بالدخول وكان معه زجاجة الفودكا الروسية التي طلبها، وضعها على طاولة في وسط الغرفة وانصرف في الحال بعد أن ترك طردًا متوسط الحجم بجانبها، وقد أخبر أدهم بأن أحدهم قد جاء وتركه له، اتصل أدهم مباشرة بالاستعلامات بعد شعور بالتشكك اعتاد عليه ليتقصّى عن أمر المرسل، في الحقيقة لم يستفد كثيرًا من المعلومات، فقد كان المرسل ساعي البريد نفسه، فإن الطرد المرسل بعد التدقيق فيه وجد أنه مرسل من إنجلترا وبالتحديد من لندن بتاريخ أسبوعين مضيا من تاريخ اليوم، وقد وصل بمجرد وصول أدهم، مَن الذي يملك تلك الدقة سوى المجهول؟! ذلك اللعين الذي يثبت قدراته اللا محدودة ويتبجّح بها في وجهي هازئًا بكل الأعراف التي تتيح للمهزوم طلب الرحمة من المنتصر.

جعله الأمر أكثر تشككًا، «لماذا إنجلترا تحديدًا؟!»، سأل نفسه، فتح الطرد سريعًا، وجد به ساعة جيب قديمة فقط ذات سلسلة ذهبية، الميناء بلون ذهبي بينما العقربان الوحيدان الدقائق والثواني يأخذان لونًا برونزيًّا، إطارها الخارجي مزخرف بلمسة برونزية أيضًا دقيقة ورائعة، متوقفة تشير إلى الساعة العاشرة تمامًا، كانت هناك ورقة أيضًا، «حسب الساعة ستنطلق من مكانك، لا يوجد أمامك الكثير، عليك أن تبرزها في يدك ليتَّضح لك كل شيء، ميعادنا بالقرب من الكولسيوم»، قرأ أدهم الرسالة مرات متوالية، نظر في ساعته فوجدها تدق الثانية عشرة ليعلن يوم جديد مجهول عن قدومه، صبَّ لنفسه كأسًا من الفودكا، جرعها كاملة ثم ترك نفسه ليهوي على الكرسي الوثير، نظر من خلال الشرفة المفتوحة، لتقابله روما ببهائها ليلًا، مدينة الحب، التي قضى فيها أيامًا لم ولن ينساها فيما تبقَّى من أيام حياته المعدودة، شرد بعيدًا وهو ينظر إلى الساعة، في الحقيقة لم يكن أدهم في هذه اللحظة ينتظر النهاية؛ لأن ذلك الأمل قد تبدَّد من داخله، انطوى كصفحةٍ قديمةٍ أهلك حروفها الزمن، فالنهاية بالنسبة له كانت الشيء الوحيد المخيف الذي تمنَّى لو أنه لا يحدث، ولكنه بالتأكيد وفي جزء منه كان مُدركًا أنه سوف يحدث، سوف يحدث بشكلٍ سيقبله رغم أي شيء، وهذا الجزء الأخير كان كافيًا لأن يجعله صامتًا مُتيقظًا حتى الساعات الأولى من الصباح.

الفصل الثلاثون

وقف أدهم في مواجهة المبنى الذي يقع فيه الفندق الذي يمكث فيه، اكتشف أن المبنى قديم يعود طراز بنائه إلى القرن التاسع عشر، شعر بالراحة مع نسيم الصباح ورائحة الورود التي عبرت من خلال الحديقة الصغيرة التي تقع في المنطقة الخلفية والتي يضمها المبنى أيضًا، ساحة متوسطة الحجم توجد بها بعض الطاولات للنزلاء إن أرادوا تناول طعامهم في الهواء الطلق وسط الحديقة الصغيرة الممتلئة بالورود الإيطالية، كانت القطع المثلثة في حوزته، الأبناء العظام، يدرك جيدًا أنها الشيء الثمين الواجب الحفاظ عليه، علم من عامل الاستعلامات أنه يمكن الوصول إلى الكولوسيوم خلال عشر دقائق سيرًا على الأقدام، لم يتردَّد للحظة في فعل ذلك، فهو يحتاج ولو لتمشية أخيرة ليحسب كل شيء بذهن أقرب إلى الصفاء، يدرك جيدًا أن الحصول على الصفاء كاملًا هو أمر بعيد المنال، أعاد كلمات الرجل الذي قابله داخل القطار، وكذلك كلمات الشيخ غانم الحكيمة، لم تأتِ تلك الكلمات وفي هذا التوقيت هباءً..

نعم إن كنت سأموت فلمَ الخوف؟!

يُدرك أنه على طريق مرتبط ارتباطًا وثيقًا بما يحمله في جيبه، وقف وأخذ نفسًا عميقًا، أخرج القطع من جيب سترته، ألصقها ببعضها، اتحدت تمامًا، قلبها بيده مفكرًا، وجد أن خلفيتها مصقولة بشكلٍ لم يلاحظه من قبل، إنها ليست مجرد لعبة تكوين كلمة أو رمز، هناك شيء آخر غامض يتعلق بهذه الرموز، «أعتقد أنني في حالة بحث عن الأخ الرابع الأخير، هذا شيء مفهوم، لكن ماذا سيحدث حين اتحادها جميعًا؟!»، أخرج أدهم هذه الكلمات بصوتٍ هامسٍ مسموع ولكنه بدا غريبًا له، كرَّر الجملة الأخيرة مرة أخرى مبتسمًا ابتسامة عريضة وكأنه شعر بأنه يفك الرمز المحير منذ بداية رحلته المثيرة الدموية الغامضة، في الخلفية كانت هناك كلمة غير واضحة لن تكتمل إلا بالأخ الأخير، كلمة بالعبرية أيضًا، يا ترى ما هو الحرف المتبقي؟! مَنْ يكون الأب والمعلم الكبير ومَنْ هو الجد؟! سؤال واحد ألحَّ عليه وهو يقف في مواجهة قوس النصر الذي لا يبعد كثيرًا عن الكولوسيوم، أو قوس تيتوس وهو قوس تشريفي، يعود إلى القرن الأول للميلاد، يقع في شارع فيا ساكرا، روما، إلى الجنوب الشرقي من المنتدى الروماني، «إلى أين سيكون المرور؟!»، ذلك السؤال ألحَّ عليه كثيرًا، وهو ينظر مليًا بعينين واسعتين إلى قوس النصر متابعًا تفاصيله المعمارية التي تبرز تفوّق المعماريين الرومانيين في ذلك الوقت، شعر بنشوةٍ ورغبةٍ كبيرتين في الاستمرار، وصل أمام الكولوسيوم، أخرج الساعة من جيب سترته وأمسكها من السلسلة الذهبية بشكلٍ غريبٍ ومُلفتٍ ولكنه لم يأبه لذلك لأنه في الحقيقة كان

في انتظار المجهول الذي طالما بحث عنه، ومن أجل ذلك لن يأبه لأي شيء حتى إن كان ذلك سيتسبب في لفت أنظار العالم كله .

دخل إلى الكولوسيوم بعد مرور نصف ساعة من الانتظار المميت، من المكالمات التي لم تحدث، من الأفكار غير المرتبة، المشوشة بشكل كبير، حينها وجد مجموعة من السياح ملتفة حول مرشد سياحي يدعوهم للتجمع حوله باللغة الإنجليزية، لم يجد شيئًا مريبًا، لم يعرف ماذا يفعل! وقف بشكلٍ هادئ، ثائرٍ في داخله، حاول بقدر الإمكان كبت جماح صرخاته التي حلم بإطلاقها في الفراغ الساكن، في الجدران، في الناس الذين لا يعرفونه ولا يعرفهم، المهم أن تخرج كل تلك الآلام منه، فالصرخة هي الشيء الوحيد الذي يُعبِّر عن الفرح والحزن أيضًا، ربما كانت الصرخة هي اللغة الوحيدة المشتركة للتعبير عن كل أحاسيسنا إن تجردنا للحظة من محاولاتنا للإبقاء على سلوك الحضاريين المزيف، هكذا اعتقد في هذه اللحظة، لفت انتباهه المرشد السياحي حينما رأى ساعة متدلية من جيب سرواله، ساعة كلاسيكية ذات مينا ذهبية، عقاربها تبدو برونزية مع إطار برونزي مميز، نظر إلى الساعة في يده طويلًا، نقَّل بصره بينها وبين الساعة التي معه، اقترب من حشد السياح المتجمع حوله بحماسٍ شديدٍ ليتأكد مما يراه، كان شابًّا فارع الطول، ذا ملامح بارزة، شعرًا طويلًا، عينين حادتين لونهما عسلي فاتح مميز، حاجبين ثقيلين بنيين، وشفتين ممتلئتين بشكل مثير، لديه شامة صغيرة على وجنته اليمنى، يبتسم طوال الوقت بشكلٍ يجذب الفتيات والنساء بشكل

خاص، يرتدي سروالًا من الجينز الضيق، وقميصًا أبيض مفتوحًا يُظهر صدره المشعر، ابتسم الشاب وهو يشير بيده على نفسه قائلًا بثقة كبيرة: «أنا توني ديفيتو مرشدكم السياحي في الكولوسيوم اليوم، لا تقلقوا سأترككم تتجوَّلون كما تشاءُون، عليكم فقط أن تدركوا أن الكولوسيوم هو مدرج روماني عملاق يقع في وسط مدينة روما، تم تشييده إلى شرق المنتدى الروماني، ويرجع تاريخ بنائه إلى عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول فيما بين عامي 70 و72 بعد الميلاد تحت حكم الإمبراطور فلافيو فسبتزيان، وتم الانتهاء منه بشكلٍ أساسي عام 80 في عهد تيتوس، إلا أنه قد أضيفت له بعض التعديلات في عهد دوميتيان، تم بناء المدرج الأكبر في العالم من الخراسانة والحجارة، ويعد المدرج بمثابة العمل الأكبر الذي شيدته الإمبراطورية الرومانية، حيث يعتبر واحدًا من أعظم الأعمال المعمارية والهندسة الرومانية، وطُبعت صورة الكولوسيوم على قطعة الستات الخمس من النسخة الإيطالية، سنستعرض كل جزء فيه خلال تجولنا به، ولديَّ سعة صدر كما ترون من خلال صدري الواسع لأن أجيب على كل أسئلتكم»، وضحك الجميع، قام أحدهم بسؤاله: «ما هو الهدف الحقيقي من بناء الكولوسيوم؟»، ابتسم توني ابتسامة هادئة وهو يقول بثقة: «قديمًا، كان الكولوسيوم يُستخدم في تقديم عروض قتال المصارعين والمسابقات الجماهيرية، وصيد الحيوانات والمعارك بين السجناء والحيوانات، وإعدام السجناء، والمعارك البحرية الصورية وإعادة تمثيل المعارك الشهيرة والأعمال الدرامية التي كانت تعتمد على الأساطير الكلاسيكية».

«متى تم آخر تطوير له؟!»، قال أحد السائحين الذي بدا أنه أمريكي، «في الحقيقة هو قيد التطوير»، قال توني مشيرًا بيده، «وسيتم تسليمه هذا العام بعد أن تبرَّع رجال الأعمال الإيطاليون بمبلغ ضخم من أجل إحيائه مرة أخرى، وتسمح عملية الترميم الجديدة للمبنى بزيادة سعته الاستيعابية للزوار بنسبة خمسة وعشرين بالمائة، كما أنه مر بالعديد من مراحل الترميم وأكثرها شهرة هي تلك الأخيرة التي كُشف من خلالها عن أكثر كنوزه الخفية والسرِّية عقب عملية تنظيف واسعة لمنطقة مغلقة منذ عقود، حيث كشف عمال النظافة عن جداريات حية بألوان نابضة بالحياة تعود لما يقارب ألفي عام»، «ومتى تمت عملية النظافة الأخيرة؟»، قال أدهم بصوتٍ عالٍ وهو ينظر إلى توني من خلف كتف رجل يقف أمامه، نظر إليه توني مبتسمًا، «عام 2000»، لمح توني الساعة في يد أدهم فنظر إليه نظرة طويلة ذات معنى لبرهة، ثم سرعان ما تداركها وهو يرسم ابتسامة مصطنعة متوترة حيث اتجه بالسائحين إلى منطقة المقاعد وقام بشرح ترتيبها وأهميتها التاريخية، وبعد نصف ساعة لم تغفل خلالها عينا توني عن أدهم، أعطى لهم استراحة ليتفقَّدوا المكان بأنفسهم على أن يلتقوا مرة أخرى خلال نصف ساعة، اتجه توني إلى أدهم بعصبية ووقف في مواجهته وهو ينظر إلى الساعة في يده، «أتُدرك أن تلك الساعة تخص جدي؟!»، قال توني محدقًا في أدهم بتحدٍّ، «من أنت وكيف وصلتك هذه الساعة؟!»، لم يعرف أدهم ماذا يقول ولكنه لم يتوقع أن يكون الأمر كذلك! «أنا لا أعرف شيئًا عن هذه الساعة»، قال أدهم بنبرة صادقة، «ولن أستطيع إخبارك عن كيفية الحصول عليها، كل ما أعرفه الآن أنه وبشكلٍ

ما كان يجب الالتقاء بك وقد يكون هذا الشكل غامضًا بالنسبة لك.. ولكنه بالتأكيد أكثر غموضًا بالنسبة لي»، نظر إليه توني نظرة متشككة، مفعمة بالحيرة من ردِّه عليه، «يمكنك أن تأخذها إن شئت»، قال أدهم، «لكن مَنْ يكون جدك؟! وكيف يملك ساعة من هذا النوع القديم؟! إنها تبدو ذات قيمة عالية، ربما لا تُقدَّر بثمنٍ إن سألتني عن رأيي فيها!»، نظر إليه توني متشككًا للحظات، «مَنْ تكون إن لم تكن لصًّا أخرق؟!»، قال توني بصوتٍ هامسٍ تشوبه العصبية حتى لا يلاحظه أحد، ولكنه صوت مسموع، وهو يقترب بوجهه من أدهم، بينما كان يبتسم ابتسامة مصطنعة في وجه الغرباء كلما وقعت أعينهم عليهما حتى لا يشعرون بشيء، «سآخذها رغمًا عنك ولكن ليس هنا»، ابتسم أدهم بثقة، «توني، هذه الساعة من ضمن تلك الأشياء التي تم اكتشافها أسفل الكولوسيوم؟!»، قال أدهم بثقة، «أستطيع أن أشعر بذلك، لو كانت ملكك بالفعل لأخبرت الشرطة فورًا في إدارة الكولوسيوم وتم القبض عليّ، خذ الساعة، ولكن أنا لم آتِ إلى هنا لأي سبب تفكر فيه الآن ولست لصًّا، ببساطة لست كما تتخيل ولا تتوقع أي سيناريو للموضوع برمته، أرجوك أنا بالفعل في حاجة إلى مساعدتك»، مدَّ أدهم يده بالساعة ليعطيها له، «لكن قل لي بالله عليك مَنْ يكون جدك؟».

نظر إليه توني نظرة طويلة ثاقبة مُفكرًا، يحلِّل ما يقوله أدهم، يتأكد في نفسه من صدقه، انتزع الساعة من يد أدهم ثم قال وهو يدير له ظهره، وبعد فترةٍ من الشرود والصمت الثقيل، «إن جدي هو ليناردو ديفيتو المسئول عن عملية التنظيف الأخيرة للكولوسيوم».

الفصل الواحد والثلاثون

قال توني بعينين لمعت فيهما الذكريات: «والذي عثر على كنوزه المخبأة التي ذكرتها سابقًا، بالمناسبة إنهما ساعتان وليست ساعة واحدة فقط، كانت إحداهما لجدتي والأخرى لجدي، وقد سُرقت الأخيرة ليلة وفاة جدي الغامضة، فقد مات إثر أزمة قلبية مفاجئة، لم يذكر الأطباء شيئًا لنا سوى أنه مات لأنه لم يتحمّل خبرًا سيئًا، لا أحد يعرف ما هو ذاك الخبر السيئ الذي أدى لموته! ولا أعرف كيف عرفت أن الساعة تعود إلى الكنوز المخبأة؟! لقد وجدوا العديد من اللوحات الجدارية وكذلك مقتنيات أخرى تعود إلى عهود مختلفة، لن تصدقني إن قلت لك إن هاتين الساعتين تعودان إلى ما قبل مائتي عام، إنهما ثروة ولكن سُرقت إحداهما وتُوفيت جدتي إثر صدمتها بوفاة جدي مباشرة».

جلس أدهم على أحد مقاعد الكولوسيوم، يسع الكولوسيوم من خمسين ألفًا إلى ثمانين ألف شخصٍ، تم ترتيب المدرجات بشكلٍ هرمي بما يتوافق مع الهرم الاجتماعي لسكان روما؛ في المقدمة الأمامية للمدرج وبالقرب من الساحة الرملية كانت هناك منصّة يتم حجزها باسم الإمبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ، حيث إن الرومان كانوا قد حفروا

أسماءهم على المقاعد المخصصة لهم، أما الأقسام الأخرى الحجرية من الطوابق الثاني والثالث والرابع فكانت موزَّعة من الأسفل نحو الحلبة إلى الأعلى حسب الترتيب الطبقي الاجتماعي، حيث كان يجلس في الطابق الثاني طبقة الأشراف والفرسان وتلك هي المنطقة التي يجلس فيها أدهم الآن، شعر بأنه فارس في مواجهة طلسم غريب لم يتبين وقعه الغامض حتى الآن، تزداد الأمور غموضًا مع كل خطوة، أخذ نفسًا عميقًا وأغمض عينيه، سمع زئير الأُسود وهي تمر عبر الأنفاق تحت أرض الكولوسيوم لتصل إلى ساحة القتال، شعر بنسمة هواء باردة كتلك التي يصفونها قبل الموت، خفيفة ناعسة، خفت صوت الجماهير تمامًا في أذنيه، انسابت يده وهو يمسك بالقطع، لم يكن السيف سلاحًا، العقل هو الشيء الوحيد الذي سيهزم مخاوفه، سيهزم الأُسود، ويجلب له المجد، أطلق صيحة مدوية في جوفه، تمنَّى لو أن يُطلقها في الفضاء.

لمعت عيناه وهو ينظر إلى توني الذي يجلس بجواره، «بالتأكيد لم يكن الحصول على الساعتين أمرًا سريًّا»، فكر أدهم بصوتٍ مسموعٍ، «بالتأكيد هناك مَنْ يعرف»، نظر إليه توني نظرة متشككة، لم يُجبه ولكنه نهض من مجلسه، نظر إلى السماء، تنهَّد تنهيدة طويلة بعد فترة ليست قصيرة من التفكير والصمت الثقيل.

«السيد روبرت بانكروفت»، قال توني بلهجة حزينة.

نظر إليه أدهم بعينين جاحظتين وهو ينهض من مكانه، «مَنْ يكون السيد روبرت بانكروفت؟!»، قال أدهم بلهجةٍ مُلحَّة.

«إنه أحد المسئولين في الشرطة القضائية بإيطاليا»، قال توني دون أن يُدير وجهه لأدهم، «وقد كان مشرفًا على إتمام عملية نقل المقتنيات التي تم إخراجها من الكولوسيوم، في الحقيقة لم تكن الساعتان فقط، أقصد ما تم تسريبه من ضمن المقتنيات، ولا تسألني لأنني لا أعرف أكثر من ذلك، هذا ما قاله لي جدي قبل وفاته، لا أعلم لماذا أُخبرك بكل ذلك؟! لكن أستطيع أن أميز اللصوص جيدًا وأنت لا تبدو لي لصًّا، عودة تلك الساعة تعني لي الكثير، الكثير جدًّا، لقد حصلت على كل المعلومات التي طلبتها، انتهى الأمر، الآن سأنصرف».

وضع أدهم يده على كتف توني بسرعة قبل أن ينصرف، «أرجوك»، قال أدهم بنبرةٍ متوسلةٍ، «لا وقت لديَّ، يمكنني أن أقول وبكل صدق إنني في حاجة ماسة لمساعدتك، الأمر بالنسبة لي حياة أو موت، لا أريد شيئًا أكثر من معلومات عن السيد روبرت بانكروفت».

نظر إليه توني نظرة حزينة، «لا أعرف عنه شيئًا، صدقني، لا أعرف عنه سوى أنه حي يُرزق، رجل مسن، زرته مرة واحدة منذ فترة لأخبره بوفاة جدي، في الحقيقة إنه لا يتذكر العديد من الأشياء ولا أعتقد أنه سيفيدك في أي شيء، ولا بأس من توصيلك إلى هناك، ولكن لتنتظر حتى أنتهي من عملي»، نظر إليه أدهم نظرةً مُفعمةً بالامتنان، آملًا في نفسه أن يحصل على مراده حتى ينتهي من كل هذا السخف.

وقف أدهم في مواجهة السيد روبرت بانكروفت الجالس في حديقة منزله الخلفية، ما زال يحتفظ بشعره الذي تحوَّل إلى اللون الرمادي، كان

ضخمًا، له أنف مفرطح وملامح حادة، وعينان ناعستان خلف نظارة سميكة، يرتكز بيديه الكبيرتين على عُكّازٍ عاجيٍّ مميزٍ، ينظر في الفراغ، كانت هناك سيدة ثلاثينية في منزله، تعتني به بعد أن قامت ابنته الوحيدة بتوظيفها من أجل ذلك لانشغالها معظم الوقت في العمل، لم يكن السيد بانكروفت رجلًا مُسنًّا فقط، بل كان مُصابًا بالزهايمر ولا يتذكر إلا القليل في أوقات متقطعة، هكذا أخبرتهم مديرة المنزل، جلس أدهم في مواجهته وهو ينظر إليه نظرات طويلة، لم يكن يدري تحديدًا ماذا عليه أن يقول، لكن عليه أن يقول شيئًا، «سيد روبرت، إنني هنا من أجل الساعة.. هذه الساعة»، قال أدهم.

«إنه لا يتحدث الإنجليزية يا سيد أدهم»، قال توني.

أعاد توني الكلمات على السيد بانكروفت بالإيطالية، كان الأخير ينقل بصره بين الاثنين وكأنه يتعرَّف عليهما، «أنت ابن السيدة لومي بيسكي»، قال السيد روبرت بنبرة رجل عجوز موجهًا كلماته إلى أدهم، «لقد كانت امرأة رائعة وجميلة»، وغاصت عيناه فجأة في موجة من الذكريات، أطرق أدهم برأسه إلى الأرض بعد أن ترجم له توني كلمات السيد بانكروفت، أومأ برأسه وهو يشعر بالإخفاق في مهمته، لم يكن يدري تحديدًا ماذا عليه أن يفعل ضد إرادة الزمن التي حالت دون ذاكرة الرجل الوحيد، الرجل الذي يحمل معلومات قد تفيده، لم يكن متأكدًا، لم يكن يدري إن كان يسير بالفعل في الاتجاه الصحيح، العديد من الأفكار السوداء مرَّت بمخيلته في هذه الأثناء بشأن ليلى، تمنَّى لو أن يموت، تمنَّى ذلك بقوة.

«أتذكر أنها ماتت، أليس كذلك؟!»، قال السيد بانكروفت، «هذا الزمن الكئيب يسرق منا كل شيء، أعتقد أنه يسرقه لهدفٍ ما، ربما أدرك مدى سخافتنا وأن أخطاءنا لا يمكن أن يكون عقابها سهلًا، لقد كانت امرأة قوية ولكن انظرا أيها الشابان لكل شيء، مَنْ يملك فينا القوة أمام غموض الزمن وغطرسته؟! أعتقد أنك لا تعرف أيضًا أنها كانت على علاقة سرِّية بأحد المسئولين الكبار في مجلس الشيوخ»، ضحك ضحكة لها رنين مميز، «لا بد أنك تعرف ذلك، فقد فُضحت كل أسرارها حينما استولوا على أرضها بحجة أنها أرض تخص الدولة، لقد أغضبتهم كثيرًا ومَنْ يُغضب أصحاب النفوذ يخسر كل شيء حتى الأرض»، صمت لثوانٍ ووضح في عينيه وميض غريب ومؤلم، «الأرض لا تتمثل في القطع السخيفة التي نتوق لامتلاكها، ولكن الأرض هي كل ما يحتضنك في سقطاتك وصعودك، أعتقد أن لكل منا معنى مختلفًا عن مفهوم الأرض»، كان توني يترجم كل ما يقوله سيد روبرت، وفجأة نزع أدهم الساعة من جيب توني وهو يشهرها في وجه السيد روبرت، «هل تتذكر هذه الساعة أيها العجوز؟»، نظر إليها السيد بانكروفت طويلًا متأملًا وكأنه يراها لأول مرة، بينما ترجم توني ما يقول، مد يده القوية المرتعشة وأمسكها بهدوء وهو ينظر إليها عبر نظارته السميكة، كانت أنفاس أدهم مسموعة في هذه اللحظة، قفز الرجل من مكانه صائحًا، «المجد لروما، المجد لروما»، وانطلق في طريقه إلى داخل المنزل المبني على الطراز الفيكتوري، لحقه أدهم وتوني بعد تبادل نظرات غريبة فيما بينهما، كان الرجل رغم سنه المتقدمة قادرًا على السير قدمًا باستخدام عكازه القديم

المميز، وصل إلى مكتبه بعد أن التفت حوله كثيرًا وكأنه يبحث عن شيء ما، «ها هو المكتب اللعين»، قال ساخرًا من نفسه، «لقد تحول كل شيء في هذا المنزل منذ رحلتي الأخيرة»، كان يطبق يديه على الساعة وينظر إليها من وقتٍ لآخر، ثم يتلفت حوله باحثًا عن شيءٍ ما، جلس على الكرسي الوثير خلف مكتبه، بينما وقف أدهم وتوني وهما ينظران بغرابة وتوتر وترقب أيضًا، فتح العديد من الأدراج وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، هرش رأسه بيده، عاد للخلف، نظر لأدهم وتوني، «مَنْ أنتما؟»، سأل الرجل بلهجة غريبة ومتشككة.

اقترب منه توني مبتسمًا، «المجد لروما»، قال توني بنبرة جدية كالمحاربين.

«نعم.. نعم، أنتما المحاربان»، قال السيد بانكروفت عائدًا إلى حماسه، «لقد كانت هنا، الساعة العاشرة، إنها تشير إلى البلاطة في الخريطة، أعتقد أنها ما زالت هناك، من المستحيل أن يصل إليها أو يمسها أحد، ذلك هو الدليل الوحيد، لكن أين؟! أين هي تلك اللعينة؟!».

«عمَّ تبحث أيها القائد؟!»، قال توني.

«عن الخريطة، عن الخريطة أيها الغبي، لقد كانت معي»، قال السيد بانكروفت بسخرية وتهكم وهو يبحث مجددًا في أدراجه.

«إنه يتحدث عن خريطة»، قال توني موجهًا كلامه إلى أدهم المتوتر بشدة، في الحقيقة كان يشعر بحماس شديد وكأنه في لعبة مثيرة، «لقد

تذكرت أين توجد اللعينة»، قال السيد روبرت صائحًا، ترجم توني لأدهم الكلمات الأخيرة دون أن ينظر إليه وهو يشعر بحماس لا يعرف سره، فقد بدا الأمر له غريبًا ومشوقًا أكثر مما تخيل، هناك سر عظيم يتعلق بالأمر برمته، كلمة خريطة كافية لأن توقظ فينا كل أحلام الطفولة المتهورة والخيالية عن الكنوز المدفونة في أعمق البحار، وفي جوف الجبال، وخلف المنازل المسكونة، وفي تلك المناطق التي طالما رسموها لنا في حكاياتنا السرية قبل النوم، اقترب الاثنان بهدوء، ساد الصمت الملتهب الذي يسبق ظهور الحقيقة الغائبة، ينظران إلى الرجل بنظرات مترقبة، أمسك عصاه بهدوء، رفعها على المكتب أمامه ووضعها بشكل أفقي، مد يده بعد ابتسامة ارتسمت على وجهه، «أصدقكم أعزائي»، قال روبرت بنبرة غامضة، «لقد كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل».

تنتهي العصا بقطعة نحاسية مستديرة كقاعدة لها، تشبه أغطية الزجاجات، فتحها بهدوء، أحدثت صريرًا له وقع مميز وهي تُفتح، جحظت عينا الاثنين وهما يتبادلان نظرات الدهشة فيما بينهما وبين السيد بانكروفت، العصا مجوفة، أمسك الرجل بعدما انتهى من ذلك بالعصا من منتصفها، رجَّها قليلًا ثم جعل قاعدتها على يده وهو يرجها نحو الأسفل حتى انزلقت منها ورقة بدت قديمة للغاية، «أيها السادة، إنها خريطة السر الأعظم، علينا أن نحررها من مرقدها الأخير»، ترجم توني الكلمات وهو لم يتخلَّ بعد عن دهشته وحماسه اللذين تشاركهما مع أدهم، كانت عينا العجوز لامعة بشكل مثير وهو يمد يده إلى توني

ليعطيه الخريطة التي كانت أسطوانية الشكل، فتحها بهدوء ونظر فيها،. أدهم، ابتسم الرجل ابتسامة غامضة، «حتمًا ستقودكما إلى الخلاص حرِّرا روما من تلك الأسطورة».

«ما هي الأسطورة؟!»، قال أدهم بنبرة مثيرة بينما ترجم توني.

شرد الرجل قليلًا مفكرًا، شعر الاثنان بأنه غاب مجددًا عن الواقع عنهما وعن كل شيء، «الأسطورة»، قال روبرت وهو يهز رأسه، «لا أعرف الحقيقة كاملة، لكن حتمًا ستقودكما الخريطة إلى أحد الأبناء المقيدين في غياهب الظلام، في الحقيقة هذا الابن تحديدًا، يقبع في نقطة من النور، حيث ستجد الشمس تطل عليه في بيت من بيوت عيسى، عيسى الذي دفع ثمنًا باهظًا لكل خطايانا، حرِّروه من مرقده»، سكن للحظات ثم صاح، «روما ستتحرر أخيرًا على أيديكما، لقد انتظرت هذه اللحظة طيلة حياتي ولم أستطع يومًا الإقدام عليها، فالدماء التي سالت كثيرة، كثيرة للغاية، الآن أستطيع أن أُحضِّر نفسي لمراسم تسليم حكم روما من أجل الحرب المقدسة، الآن قوما بعملكما، لن أقبل بأي تقصير، فأنا سأنتظر تخليص الجميع من الألم، تذكرا جيدًا، لا يجب أن تحضروه إلا بعد التأكد من أن كل شيء آمن، العاشرة والعاشرة كما تشير الساعة، كما تشير الساعة أيها المحاربان، إنها كلمة السر الوحيدة».

خرج الاثنان من المكتب وهما يتبادلان النظر.

«توني»، قال الرجل العجوز فاستدار الاثنان، «مَنْ هذا الحيوان برفقتك؟».

ابتسم توني ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى أدهم، ثم نقل بصره إلى الرجل العجوز مرة أخرى، «إنه مجرد صديق بائس»، قال توني بالإيطالية مبتسمًا.

«لا تُحضره مرة أخرى إلى منزلي»، قال الرجل العجوز بحزم، «والآن انصرفا».

«ماذا كان يقول لك؟ ولماذا ابتسمت؟!»، قال أدهم متسائلًا.

«يقول إنك رجل عظيم»، قال توني مبتسمًا ابتسامة كادت تكون ضحكة، «والآن دعنا نفعل ما ينبغي علينا أن نفعله».

الفصل الثاني والثلاثون

جلس الاثنان في الساحة الخلفية لفندق كويرناليه، كان الليل يهيمن على سماء روما، حبال الزينة المضاءة كانت تحمل روح البهجة، أصوات الضحكات تحيط بهما، الوجوه متلألئة، كذلك القُبل التي تخلقها روما بين العشاق فتبدو أفلاطونية مختلفة سارحة في ليلٍ متلألئ لا يكاد ينتهي، كل ذلك جعل الجو كله يبدو لامعًا مثيرًا في ليلة تناغم فيها مع البشر بشكل يجعل الحب يتوق إلى الخروج إلى النور، فإن لم تكن روما، مدينة الحب، تعكس كل ذلك فأي مدينة يمكنها أن تفعل ذلك؟! العديد من الأسئلة كانت تدور في عيني توني، لم يكن أدهم يحمل أي إجابات عن أي شيء، لكن هناك إجابة واحدة، قد تبدو إجابة تحتاج لإجابة أخرى أيضًا، أن ما يبحث عنه هو شيء عظيم، سر عظيم، جميع المغامرات والرموز تثبت له ذلك، ولكن الإجابة الأخرى: ما هو ذلك الشيء العظيم الذي يبحث عنه؟! شك للحظة في أن ذلك الشيء هو الذي يبحث عنه وليس العكس أو كما يعتقد، بداية من الفكرة التي لمعت فجأة في عقله منذ أسابيع قليلة حينما وقع تحت تأثير حمَّى إحساسه بالنهاية، وحتى المرجع الذي وقع بين يديه لم يكن مصادفة، هكذا هي

النهايات، جَمُوحٌ مجنونة تأتي أحيانًا قبل موعدها، لم يكن أدهم يدري لمَ تم اختياره تحديدًا للقيام بهذه المهمة الصعبة؟! إن لم تكن مستحيلة! لقد تأكد في وقت لاحق أنه بالفعل تم اختياره من القدر، رغم أن الأمر برمته بدا له غريبًا، يا ترى ماذا إن حصل على الأبناء جميعًا؟! ماذا ستكون النتيجة؟! هل سيُقتل كما قُتلت آسيل وفاطيم وجيلان؟! تمنى ذلك إن كان سيكون فداءً لليلى، تعجب من تفكيره، من ذلك الوميض الغريب الذي شرع يدخل قلبه، إن لم يكن دخل بالفعل منذ بداية رحلته الغامضة والغريبة، لم يكن يومًا مضحيًا بالمعنى الحقيقي للتضحية، ولكن تظل تلك إحدى الصفات التي حاولت كثيرًا الظهور إلى ذلك العالم لكنها بعد ذلك كانت تسقط أمام كبريائه وتعنته وكرهه لنفسه قبل أي شيء، رغم ما تميز به من كرم، لكن ذلك الكرم لم يتعدَّ أبدًا بضعة جنيهات أو خدمة أيًا كانت بسيطة أو كبيرة في موقفٍ ما لينال كل التمجيد والطاعة ممن يخدمهم، جالت في خاطره ذكرى وهو يرتشف كأسًا من الفودكا الروسية الثقيلة فامتعض في نفسه وحَزِن، تذكر تلك الأمنيات عن النفوذ والمال والسيطرة التي جعلته في الماضي يوافق على كل شيء أيًا كان، لقد كان يعلم أنه انتهى ربما من آخر مفهوم يملكه عن الشرف والضمير وربما عن الحب أيضًا، أصبح الدنس صفة تلازمه بينه وبين نفسه، لقد صرَّف الكثير من البضائع المشكوك فيها تحت تأثير فتنة المال، العديد من الصفقات المشبوهة تمت بتوقيعٍ من الشيطان نفسه، لم يكن يدري أحيانًا لمَ يشرب بهذه الطريقة من وقت لآخر! هل كان ضميره هو الدافع لكل ذلك؟! حتى خبر اقتراب موته، لم يهزه كثيرًا، لم يؤثر فيه وكأنه

كان في انتظاره، لم يعلن ذلك لنفسه بشكل كامل، علم أن الكتابة كانت الفعل الوحيد الذي يُطهر نفسه، تجعله يرضى بعدما اقترف من أجل الصعود أرذل طرق السقوط، اللعبة التي دخلها كانت باسم حركي لن تضيره، تصريف البضاعة عبر ذوي النفوذ من خلال الوزير لن يكون له يد فيه، لكنه خرج منها بلا اسم، بلا هوية، بلا حياة، والعودة كما قال فاطيم أمر مستحيل الحدوث، يعلم ذلك جيدًا، يدركه في أعماقه كما يدرك ما يواجهه الآن، لكن جاء قوّاد ليؤكد له الحقيقة، قوّاد، تلك الكلمة جعلته يسخر من نفسه ومن العالم ومن كل شيء، خاف أن يسأل نفسه سؤالًا: مَنْ هو القوّاد الحقيقي في هذه الحياة؟! مَنْ يقود النساء إلى راغبي النزوات أم مَنْ يقود بالأفكار المزيفة عقول مَنْ حوله تحت عنوان الطهارة والرُّقي، مَنْ يقود بالأفكار المسمومة تدمير بلاده تحت عنوان الجهاد والحرب المقدسة؟!

«كنيسة البانثيون».

خرج أدهم من أفكاره على صوت توني ونظر إليه نظرة لم تبدُ أنها عادت إلى الواقع بشكلٍ كاملٍ، «بانثيون، هل تعرفه؟!»، قال توني مرة أخرى حيث شعر بأن أدهم لم يسمعه، هزَّ أدهم رأسه متسائلًا حيث لم يبدُ عليه أنه قد خرج بالفعل من داخل أفكاره المتلاطمة، «إن الخريطة تشير إلى كنيسة البانثيون»، أعاد توني كلماته، «البانثيون تعني معبد كل الآلهة، مبنى في روما كان أصلًا مبنيًا كمعبدٍ لجميع آلهة روما القديمة، يُعتبر أفضل مبنى روماني أثري من ناحية الحفظ، وربما يكون أفضل

مبنى محفوظًا من ذلك العصر في العالم، وقد ظل المبنى في استخدام متواصل طوال تاريخه، أعتقد أن بعض الترميمات ما زالت قائمة الآن داخله، لقد كنت هناك منذ أسبوعين تقريبًا وقد أكد لي صديق مقرب ذلك، فهو يعمل في ذلك المجال، إنه الوحيد القادر على مساعدتنا، لنتَّجه غدًا إلى هناك ونُلقي نظرة، سأقوم بالاتصال به الآن، لنرى ما يمكن فعله».

نهض توني من مجلسه وأمسك هاتفه الخلوي واتصل برقم بينما ظل أدهم ناظرًا إليه ثم نقل بصره إلى الخريطة التي أمامه، بدت له قديمة جدًّا، مهترئة الجوانب، تم استخدام ورق متين – أو نوع من الجلود لا يعرفه أدهم، كانت اللغة المستخدمة في توضيح الأماكن غير مفهومة بالنسبة له، لم يدرِ كيف فسَّر توني الخريطة بهذه البساطة، وحينما عاد توني إلى مكانه كان أدهم ينظر إليه نظرة طويلة متسائلة يشوبها الشك، نظر إليه توني مبتسمًا، «كما قلت لك إنه يخضع للترميم»، كان يُشير إلى مكانه على الخريطة، «جزء منه بمعنى أدق يخضع للترميم»، نظر إليه أدهم ثم إلى الخريطة مرة أخرى مفكرًا..

«أعتقد أن البانثيون يقع في باريس»، قال أدهم متسائلًا، «لقد كان أحد الأماكن التي عملت من خلالها في إحدى رواياتي السابقة؟»، قال أدهم مشيرًا بيده بإيماءة متسائلة، «أنت تتحدث عن البانتيون ويمكن نطقها بانثيون أيضًا»، قال توني مبتسمًا، «إنها تعني باليونانية كل الأرباب، هو مبنى بالحي اللاتيني في باريس يضم رفات بعض عظماء الفرنسيين

.هم فرانسوا بارتلمي وبيير جان جورج كانابي وهو عالم فسيولوچيا ،فيلسوف مادي، وأيضًا جان باتيست بابان وهو كونت سانت كريستو الشهير، وقد تم بناء البانثيون ليكون كنيسة لسانت جينيفيف، تقع في الحي الخامس في مونتانيي سانت جنفياف، والبانثيون يطل على أرجاء باريس كافة. كان مصممه جاك جيرمان، وإذا نظرت إلى المبنى ستجد أنه كان ينوي الجمع بين خفة وسطوع الكاتدرائية القوطية مع المبادئ الكلاسيكية، لكن الخريطة كما ذكرت لك تشير هنا إلى روما نفسها؛ إذا نحن نبحث في البانثيون الروماني وليس الباريسي كما هو موضح بالخريطة».

شردت عينا أدهم قليلًا، «كيف قمت بترجمة الخريطة؟!»، قال أدهم بهدوء متعجبًا، «لا تبدو لي مكتوبة بأي لغة أعرفها، لا الفرنسية ولا الإيطالية ولا الإنجليزية ولا حتى الإسبانية!».

«إنها مكتوبة باللاتينية»، قال توني مبتسمًا، «لقد درست اللاتينية من أجل عملي كما أنني مولع بالأعمال التاريخية ولذلك اخترت المجال الإرشادي في عمل السياحة، في الحقيقة أقوم بتحضيرات واسعة في الحقبة الوسطى من العصر الروماني المجيد، دراساتي كلها منصبة على الأعمال المعمارية وسرها الدفين التي بنيت من أجله، أدهم أعترف لك بأنك لم تأتِ مصادفة، في الحقيقة أيضًا لم تُسرق هذه الساعة من خلال سارق متهور قرر أن يفعل ذلك طلبًا للمال، فمَنْ يفعل كل ذلك بهذا الترتيب شخص ذكي للغاية، أنا لست بهذا الغباء لتمر عليَّ الأمور مرور

الكرام ومساعدتي لك ليست من منطلق أنني أدين لك بشيء، أعتقد أنني سدَّدت لك الدين منذ مقابلتك بالسيد روبرت بانكروفت، كما أنني فعلت ذلك بعد تأكدي من صدقك من خلال تيهك الواضح في كل شيء، وفرضًا أنك لم تكن تائهًا، وكنت ممثلًا بارعًا فولعي بالأمر كله يجعلني مصممًا على السير قُدمًا معك حتى النهاية»، صمت للحظة وقد لمعت عيناه الجميلتان، «في الحقيقة أيًا ما تكون النهاية فإنها حتمًا ستكون نهاية مثيرة».

شعر أدهم بثقلٍ غريبٍ بعدما انتهى توني من كلماته، شعر بألمٍ مع جملته الأخيرة، فدس في حلقه قرصًا من التامول وهو ينظر بعينين تائهتين إلى توني، تذكر على الفور كل الضحايا الذين ساعدوه في طريقه المرصَّع بالدماء والقتل والهرب، «حتمًا ستكون نهاية مثيرة»، ترددت كلمات توني - الذي كان مبتسمًا ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى الخريطة أمامه - في أذني أدهم.

«أتمنى ألا تكون نهاية مثيرة»، قال أدهم في نفسه وهو يبتسم ابتسامة باهتة.

الفصل الثالث والثلاثون

وقف الاثنان في ساحة كنيسة البانثيون، قرأ أدهم النقش على الإفريز في مدخل الرواق إلى البانثيون:

«M. AGRIPPA. L. F. COS. TERTIVM. FECIT»

«في عهد أدريانو تم إعادة بناء هذا المبنى كليًّا»، قال توني دون أن ينظر إلى أدهم حيث وضح أنه متأثر جدًّا بعمله وبتاريخ بلاده: «ولم يظهر اسم هذا الإمبراطور في النقوش بسبب رفضه أن يشخص اسمه في الأعمال المنفذة في فترة حكمه، فهو يختلف تمامًا عن سلفه تراخانو، أنا أحب هذا الرجل، في الحقيقة أعشق كل الرجال الذين ينكرون أنفسهم في سبيل أهدافهم السامية».

«أتقصد أن هذه الكنيسة بُنيت على أنقاض بناءٍ آخر؟»، قال أدهم متعجبًا.

«نعم»، قال توني وهو يبحث عن شيء ما وسط جموع السائحين بعينين مترقبتين قلقتين، «كما تم تغيير اتجاه هذا المعبد السابق ووضعت واجهته الرئيسية إلى الجهة الشمالية، كان يتكون هذا المبنى من صف من

الأعمدة باعتباره الرواق، وكذلك ساحة واسعة مستديرة وبنية منشوريه متوسطة، فقد شغل الرواق الكبير والمبنى المتحد مع الساحة مساحة المعبد السابق، في حين أنه تم بناء مقصورة في ساحة ميدان أغسطس والذي فصل البانثيون عن كنيسة نبتون، وقد تم تشييد ساحة من الأروقة على جوانبه الثلاثة أمام هذا المعبد ورُصف بألواحٍ من الحجر الجيري كما ترى.. ها هو هناك».

التفت أدهم إلى المكان الذي يشير إليه توني، كان يقف هناك شاب فارع الطول ذو لحية قصيرة جذَّابة وشارب كث يُضفي عليه وسامة نادرة، يرتدي سترة برتقالية تناسب عمّال البناء، بدا لأدهم ثلاثيني العمر، اتجه نحوه توني وسلَّما على بعضهما بعضًا بحرارة على الطريقة الإيطالية التي يصيح فيها الطرفان مع تلك الضحكة المميزة، أشار توني إلى أدهم طالبًا منه أن يأتي، وقام بتقديم أحدهما للآخر، لم يكن أدهم يدري شيئًا عن الخطة التي أعدها توني من أجل ما جاءا من أجله، كما كان قلقًا للغاية بسبب عدم تلقيه ولو اتصال واحد حتى الآن، لكنه وفي جزء منه كان يُدرك أنه مُراقب بشكلٍ أو بآخر، ولو كانت الأمور تنذر بالسوء لعرف ذلك بشكلٍ قاطعٍ لا يقبل الشك، بشكل لا يطيق معه الانتظار، اتجه الثلاثة في اتجاه المكان الذي يتم الترميم فيه، ويسمى البروناوس، يتكون البروناوس من ثمانية أعمدة على الواجهة، وأربعة أعمدة على الجانبين، لم يكن هناك سوى عاملين اثنين تقريبًا، بينما كان العمال الآخرون في نهاية المكان يقومون ببعض الأعمال، أمرهم صديق توني،

الذي اتضح أن اسمه ستيف، بالانصراف لتأدية عمل آخر حتى تخلو القاعة لهم، نظر ستيف إليهما نظرة طويلة، ثم وجَّه كلمات بالإيطالية لم يفهمها أدهم وانصرف في الحال بعد أن أخرج توني مبلغًا غير قليل من المال موضوعًا في مظروف أخذه من أدهم قبل ذلك بوقتٍ قصيرٍ مُعللًا بأن المال يُسهل كل شيء ويفتح أي طريق مغلق، مع ملاحظة أن أدهم استعان بالمال الذي حصل عليه من الخزانة التي اخترقها بإسطنبول، «إنه يقول إن أمامنا عشر دقائق لننتهي مما نفعل»، قال توني بقلق، فتح الخريطة ونظر إليها طويلًا، أخرج الساعة من جيب سترته، أعاد كلمات السيد روبرت بانكروفت.

«عشر دقائق؟!»، قال أدهم منفعلًا ومندهشًا، «أتعتقد أنها كافية؟!».

«إن تحدثت أكثر من ذلك فلن تكون كافية»، قال توني مبتسمًا.

«لا أعرف الحقيقة كاملة، لكن حتمًا ستقودك الخريطة إلى أحد الأبناء المقيدين في غياهب الظلام، في الحقيقة هذا الابن تحديدًا، يقبع في نقطة من النور، حيث ستجد الشمس تطل عليه في بيت من بيوت عيسى، عيسى الذي دفع ثمنًا باهظًا لكل خطايانا، حرروه من مرقده».

«إن الخريطة تشير إلى هذا المكان تحديدًا»، قال توني بصوتٍ هامسٍ يمكن سماعه وهو يقترب من أدهم ناظرًا إلى البلاطات الحجرية بعد أن أعاد الكلمات السابقة على نفسه وهو يفكر بعمق، «الساعة تشير إلى العاشرة، لكن ما الذي كان يقصده السيد بانكروفت تحديدًا؟!»، قال توني متسائلًا، «الساعة الآن ستدق العاشرة صباحًا»، نظر أدهم إلى القبة

الكبيرة المفتوحة من أعلى لتدخل منها الشمس، أخذ الساعة ووقف في المنتصف بعد أن أتته فكرة غريبة، أمسك الساعة ونظر إلى اتجاهاتها، ونظر إلى ماذا تشير، كانت تشير إلى عمودين متقاربين داخل البناء، بينهما مسافة قصيرة لا تتعدَّى أقدامًا قليلة، انتقل سريعًا إلى هناك، ونظر إلى الأرضية وقام بعدِّ البلاطات الموجودة، كان عدد البلاطات اثنتي عشرة بلاطة، طلب من توني الذي كان يراقبه بشغفٍ أن يأتيه بأي أداةٍ حادَّةٍ، بالفعل قام توني بذلك سريعًا مستخدمًا شاكوشًا من الأدوات التي كانت على الأرضية والتي تخص العمال المنهمكين في عملهم، ضرب أدهم البلاطة العاشرة والتي كانت تقع قبل البلاطة قبل الأخيرة من قاعدة العمود ضربة قوية، ثم أتى بضربة ثانية وثالثة حتى انكسر الحجر تمامًا، تعجَّب أدهم من أنه لم يجد شيئًا سوى صد حجري كبير يشبه الصخرة أسفل الحجر المتكسر تمامًا بعد ضربات عنيفة، شعر بخيبة أمل، كان توني ينظر له بقلق وحيرة، لم يدرِ ماذا يقول أو ماذا عليه أن يفعل! لكنه كان يفكر بسرعة، «هناك شيء ناقص»، صاح توني بشكلٍ مثيرٍ وهامسٍ، لقد قال السيد بانكروفت قبل أن نغادر: «فأنا سأنتظر تخليص الجميع من الألم، تذكرا جيدًا، لا يجب أن تحضروه إلا بعد التأكد من أن كل شيء آمن، العاشرة والعاشرة كما تشير الساعة، كما تشير الساعة أيها المحاربان، إنها كلمة السر الوحيدة»، هز أدهم رأسه متسائلًا وقد وضح عليه عدم الفهم، «إذا ربطنا اتجاهات الساعة بكلماته الأولى عن النور»، قال توني مفسرًا، «فإنه يتضح لنا أننا نبحث في المكان الخاطئ»، نظر إليه أدهم وهو يرمش بعينيه محاولًا الاستيعاب.

«الشمس لا تنشر أشعتها هنا»، قال توني مبتسمًا، «بالتأكيد يقصد عمودين آخرين، فكما ترى أن المكان يتكوَّن من ثمانية أعمدة، ولا يظلّلها جميعًا نور الشمس، هذا هو المقصود، أن نبحث في المكان الذي تنيره الشمس، فلقد وقفت في الاتجاه الخاطئ بعيدًا عن مواجهة الساحة التي تؤدي إلى المحرابين خلف الساحة الكبرى، وبالنسبة لجملة السيد روبرت بانكروفت عن الألم حينما قال: خلِّصوا روما من الألم، فإنه طلسم آخر قذفه لنا الرجل العجوز، هل تدري أنه قد تم مؤخرًا تسجيل بعض النقوش ذات الصلة بحركة الاستعادة التي تمت في عصر سيبتيموس سيفيروس، وجدي رحمه الله يكره هذا الرجل جدًّا، فلقد سبب الألم والخزي في حقبته رغم براعته في القانون والفلسفة»، ظل أدهم ناظرًا إليه وقد بدت عليه الحيرة والتخبط من كم المعلومات التي يعرضها توني.

«حينما انتقل سيبتيموس سيفيروس»، قال توني موضحًا، «ليكون قائدًا عامًّا للقوات الرومانية في بانونيا، وفي ذلك الوقت قام الحرس الإمبراطوري البريتوري بانتفاضة ضد الإمبراطور برتناكس واغتياله في 28 مارس 193م، وأعلن الحرس أن التاج سيكون من نصيب الذي سوف يمنحهم أكبر عطاءٍ، وتقدم بعض القادة بعروضهم من العطاء للجنود، وعرض عليهم أن يقدم لكل جندي مبلغًا قدره (12000) دراخمة حين يجلس على العرش، وخرق العرف الروماني ودخل في إبريل/ نيسان 193م بقواته العسكرية روما، رغم أنه لبس ثيابه المدنية، حينذاك أعلن

مجلس الشيوخ تسميته إمبراطورًا، إن السيد بانكروفت يشارك جدي الكره نفسه لهذا الرجل، لم يقذف لنا العجوز سوى رمزية معينة وعلينا فقط فك شفرتها».

انتقل توني سريعًا بحماس شديد إلى المنتصف ونظر إلى الشمس ثم إلى المكان الذي تنصب عليه الأشعة وأمسك الساعة بيده، ثم أشار إلى أدهم وهو يهرول تجاه عمودين آخرين تنير الشمس ما بينهما، ضرب بقوة بشاكوش كبير على الأرض بعد أن عدَّ عشر بلاطات، ولكن هذه المرة كانت البلاطة العاشرة تقع عند نهاية عمود على عكس الأخرى، حتى تكسرت تمامًا، ظهر تجويف أسفلها، نظر توني إلى أدهم نظرة تحمل الحماس والترقب، مد يده داخل التجويف، لم يجد شيئًا في البداية، كانت ضربات قلب أدهم تعلو بشكلٍ ملحوظٍ إلى الدرجة التي يكاد يسمعها فيها من فرط الحماس والقلق، شعر توني بأن هناك مادة بلاستيكية أسفل يده، بإصبعيه السبابة والوسطى ليده اليسرى استطاع أن يقبض عليها، أخرجها بهدوءٍ حتى لا يُسقطها بعد أن سقطت منه مرتين قبل ذلك كلما حاول إخراجها، كان كيسًا من البلاستيك يحوي في داخله قطعة من القماش، فتحه توني بسرعة ثم أمسك بقطعة القماش التي كانت تحوي شيئًا صلبًا في داخلها، بهدوءٍ فكَّها حتى ظهرت القطعة المثلثية الرابعة، الابن الرابع، كان مكتوبًا عليها بشكل لا يقبل الشك حرف عبري آخر، قلبها توني في يده متعجبًا، نظر إلى أدهم نظرة متسائلة، «هل تكبَّدنا كل هذا العناء من أجل هذه؟!»، فكر توني في نفسه، لم يكن الأمر غريبًا

على أدهم، رغم الأسئلة التي كانت تدور في عيني توني إلا أنه لم يأبه لها؛ لأنه استعاد أمله مرة أخرى، بألا يموت الشيء الوحيد الطاهر في حياته، ليلى، التي يرى فيها خلاصه الوحيد ليشعر في لحظاته الأخيرة بأنه فعل شيئًا يستحق الحياة، فما أصعب تلك الحياة التي نعيشها دون أن يكون هناك دافع أو هدف تحقق يجعلنا نشعر باستحقاقنا لهذه الحياة.

خرج الاثنان وهما يحملان القطعة الرابعة، كان على أدهم أن يشرح لتوني كل شيء حتى هذه النقطة، الأمر كان أشبه بالمستحيل بالنسبة له، انتقلا سريعًا إلى فندق كويرناليه الذي يقيم فيه أدهم، كان توني يشعر بحماس شديد وهو في انتظار القصة كاملة من أدهم، لم يكن أدهم يعلم ماذا عليه أن يفعل! لكنه قرَّر ألا يحكي له أي شيء وأن يحاول الهرب حتى لا يُعرِّض حياة توني للخطر بأي شكل من الأشكال، فتكفيه الدماء التي نضحت بسببه حتى هذه اللحظة.

الفصل الرابع والثلاثون

كان هناك شيء ثقيل يغور في قلب أدهم وهو ينظر لابتسامة توني العريضة وهو يلهو كطفل صغير متسامرًا مع العاملين في الفندق بعد أن أمرهم بزجاجة شامبانيا فرنسية، «لتكن ليلة رومانية بنكهة فرنسية»، هكذا قال توني وقد ملأه الحماس، يا ترى أين ستقوده تلك الابتسامة؟! ذلك السؤال كان يُلحُّ على أدهم من وقت لآخر وهو ينظر إلى هاتفه الذي ذهب في سبات عميق منذ فترة ليست بالقصيرة، نهض أدهم من مجلسه حيث شرعت الذكريات تطارده.

«لن أتوقف عن الاتصال، الأمر أشبه بصعود أعلى جبل للوصول إليك»، قال أدهم مداعبًا بصوته ذي الرنة المميزة.

«لأنني نجمة»، قالت ليلى ضاحكة.

لم يعنِ الأمر بالنسبة لأدهم مجرد فتاة سرقت قلبه، فلم يسرق يومًا أحد قلبه، طواعية يهبه لمن يشاء ثم يسلبه وقتما شاء حينما يقرر ذلك، ليلى لم تكن سوى الطُّعم الثمين لإتمام عمليته كاملة، تذكر ذلك الوقت الذي ستكون فيه رهينة إن لم تتم عمليته بالشكل الكامل بعد الاتفاق مع

والدها الوزير وبعد أن وضع كل ما يملك في عمليته، آماله وطموحاته وماله وأحلامه اللا متناهية، فلا أمان لوزير يخون منصبه، يخون نفسه وكل شيء، احتقر تلك اللحظات وهو يدمدم في نفسه متذكرًا العمليتين الصغيرتين اللتين قام بهما دون أن يتدخل في أي شيء من خلال التاجر المصري الذي أوصله في النهاية إلى الرأس الكبير، لم يكن أدهم يريد الانخراط في الأمر أكثر من ذلك، عملية كبيرة كافية لينقضي كل شيء، تذكر كيف كان اللقاء بينه وبين الوزير في إيطاليا خلال حفل أنيق أعده أحد رجال الأعمال المتورطين في عالم تجارة كل ما هو ممنوع، تلك الآفاق التي فتحها له التاجر الكبير في مصر الذي رأى في أدهم المال قبل كل شيء، وتأتي الجرأة والطموح لتتم العملية كاملة، هنا بدأ الصراع، فسقط الوزير وأصبح تاجرًا، وسقط أدهم فأصبح لا يقل عن فاطيم قوَّاد النساء، القوادون كثيرون في هذا العالم، ربما يعيشون بيننا باسم الطهر والعفاف والشرف، القوادون لغتهم معروفة نجدها أحيانًا بين كلمات الكتب والروايات، في رؤية المخرج عن فيلمه، في رأي السياسي وتبريراته المريضة لأجل كسب كفة النظام وشهوة العبودية المطلقة، في زهو الرجل بغطرسته ورجولته المفتعلة على صفحات التواصل الاجتماعي، في المقاهي وفي كل مكان تطأه أقدامهم، القوادون بالفعل يملأون العالم لكنهم تطوروا وأصبحوا أكثر نضجًا ومكرًا.

«أين أنت يا أدهــم؟!»، خرج من أفكاره على صوت ليلى، أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يرد، لم ينطق بكلمة ولكنه سمع الكثير من الكلمات

التي توبّخه على عدم طمأنتها عليه خلال المدة الماضية، لم يستطع أن يردع دمعة سقطت حينما غافله ظهور الحقيقة المُرة وهي تلوث شرفها وسمعتها، «الكاتب الشهير قاتل، الكاتب الشهير يتاجر في الشعب، الكاتب الشهير زير نساء ويضاجع المومسات»، عناوين مختلفة ستتناول شرفه ومسيرته بلا رحمة، بلا رادع، ستصرخ ليلى لأنها لن تطوله لتقتله بيديها، ستصرخ لأنها ستسقط حتمًا أمام الكذبة الكبرى التي عاشتها طوال عشر سنوات هي بالفعل كل عمرها، ستحرق العالم ندمًا وربما ستموت قهرًا.

«أنا آسف»، قال أدهم مرتبكًا، «الكثير من الأعمال»، أخرج قرصًا من التامول ودسه في حلقه، «هل أنتِ بخير؟!».

«نعم، لقد زرت والدي اليوم، ليس في صحة جيدة، كما جاءني صديقك حسن عبد الرحمن وأعطاني بعض الأوراق المهمة، لم يحاول الاتصال بك لأنك أخبرته بذلك».

«أية أوراق؟!»، قال أدهم متوترًا ومندهشًا.

«لا أعرف ولكنها كلها بالإنجليزية ولم أفهم منها شيئًا»، قالت ليلى بنوعٍ من اللا مبالاة، «أعتقد أنها تخص عملًا ما في إنجلترا، لقد تم إرسالها اليوم عبر البريد، انتظر ثانية يا أدهم، سأحاول معرفة اسم المرسل»، بعد ثوانٍ من الانتظار المرهق، «لا يوجد اسم مرسل سوى حرفين: Y.E، هل تعرف شخصًا يُدعى إسحاق إلياكيم، أعتقد أن هذا الاسم يهودي!»، صمت أدهم تمامًا وقد شعر بألم في رأسه مختلطًا بالذهول والحيرة،

«اتصل بإسحاق إلياكيم، لندن»، أردفت ليلى، بلع أدهم ريقه وهو ينظر إلى توني الذي كان ينظر إليه نظرة ثابتة متسائلة، أغلق أدهم الخط بعد أن أخبر ليلى بأنه سيتابع الأمر وأمرها بأن ترسل له الأوراق عن طريق الحساب الإلكتروني الخاص به ليقرأها بنفسه.

دسَّ الهاتف في جيب سترته ومشى بخطوات وئيدة متمهلة تجاه توني، ابتسم توني وهو يشعر بالحماس مجددًا وسأله إن كان بخير، أومأ أدهم برأسه شاردًا، مدَّ توني يده لأدهم بكأس ممتلئة بالشامبانيا الفرنسية، أخذها أدهم شاردًا، مفكرًا، إسحاق إلياكيم؟! مَنْ يكون هذا الرجل أيضًا؟! يا ترى ماذا عليَّ أن أفعل هذه المرة؟! دق جرس هاتفه مقاطعًا كل أفكاره، كان حينها توني يصب كأسًا أخرى لنفسه، معبرًا عن ضجره من هاتف أدهم، «أغلق هاتفك اللعين»، قال توني بنبرة حماسية لا تخلو من الضجر، «ودعنا نهنأ بليلتنا فلدينا الكثير لنتحدث عنه».

أشار له أدهم بأنها المكالمة الأخيرة، لقد كان الرقم الذي طال انتظاره، ابتعد أدهم قليلًا وهو يرد على الهاتف، «سيد أدهم، أنت تُبهرني في كل مرة، أستطيع أن أقول إنك تحدَّيت ذكاء الجميع، إن الله يحبك، يحبك جدًّا، كن على ثقة من ذلك، لكن أرجوك لا تشرب الشامبانيا، فليست كل الشامبانيا محببة»، التفت أدهم سريعًا إلى توني وقلبه - الذي أصبح أكثر ثقلًا من ذي قبل - يغور في قدميه، «سيد أدهم، القدر هو القدر، لا يُمكن تغييره، كل تلك الآمال عن عرقلة مسيرته أو الوقوف ضد إرادته مجرد مؤامرة ضعيفة تبنَّاها بعض المجانين، إن بحثت عنهم

، جدهم جميعًا مجرد رفات في مقابر قد لا نستطيع الوصول إليها، لا
.م ‌ر ف مكانها أحد، منبوذين في حياتهم، مجهولين في مماتهم، ننتظرك
ف إنجلترا، رحلتك خلال ساعة ونصف من الآن»، أغلق أدهم الهاتف
. هعًا وهو يجري تجاه توني، ضرب الكأس من يده، «لا تشرب يا
، ني»، نظر إليه توني متعجبًا، «ماذا حدث؟! هل جننت؟!»، ظل أدهم
.اظرًا إليه بدهشة، مترقبًا، شاعرًا بآلام متفرقة في رأسه وجسده كاملًا،
ا م يكن يدري ماذا عليه أن يفعل! اقترب توني مرة أخرى ليمسك بكأس
ادهم ليشربها، «أنت بالتأكيد مجنون لتضرب الكأس من يدي، اجلس،
.اذا حدث لك؟!»..

أمسك توني بطنه فجأة، انحنى بشدة وهو يصرخ من الوجع، اقترب
.نه أدهم وقد شعر بشلل في جميع أجزاء جسده، «توني، اصمد،
سأطلب لك الإسعاف حالًا»، قال أدهم بنبرةٍ حزينةٍ لكنها قوية مثابرة،
صرخ في العاملين بأن يطلبوا الإسعاف حالًا، كانت هناك مادة بيضاء
.خرج من جانبي فم توني وقد احمرَّ وجهه تمامًا حتى أصبح قاتمًا أقرب
إلى الزرقة، جسده ينتفض انتفاضات متقطعة قوية وهو ينظر إلى أدهم
.عينين ذاهلتين، واضح أنه يريد أن يقول شيئًا، لكنه لم يستطع.

لم يستطع على الإطلاق..

لندن

«إن الموت في حد ذاته هو أكبر دافع للحياة»

الفصل الخامس والثلاثون

«هل سمعت يومًا عن العاصفة الداخلية؟! أرجوك لا تفهمني بطريقة خاطئة، فأنا لا أتخذ هذا الطريق أبدًا في مناوراتي الفكرية، الحقيقة أن كلًّا منًّا يتعرض لعاصفة داخلية لكنه وببساطة تامة لا يعرف، لا يعرف أنه يقف الآن كلعبة ورقية في مهب الريح، وأستطيع أن أقول وبمنتهى الثقة إن الريح تنتصر دومًا، لكنها تجلب لنا في النهاية الحقيقة كاملة، لندرك مدى سخافتنا وضعفنا وقوتنا أيضًا، نحن نرتبك مع العالم المرتبك رغم أننا أحيانًا نُظهر عكس ذلك، إن الضعف يولد القوة والقوة تولد أفكارًا مخربة تجعلنا نخلق أناسًا غيرنا لا نعرفهم ولا نستطيع أن نتعرف بهم على العالم، فنتيه في المنتصف، نصبح مزيفين لأننا ببساطة قررنا أن نهرب من العالم داخل حقيقة لا تناسبنا، داخل كذبة سوداء تجعلنا نموت، نموت من سخرية العالم منا في النهاية، إنها لعبة معقدة للغاية، لا أنصحك بمحاكاتها، أرجوك اقبل كونك لعبة ورقية واكتشف الحقيقة لتحصد النسيم الأخير الذي يداعب سلام عقلك قبل قلبك».

تذكر أدهم تلك الكلمات من إحدى رواياته وهو يجلس وسط ضجة كبيرة في صالة الانتظار بمطار فيوميتشينو أو مطار ليوناردو دا فينشي، لم

يكن يدري في الحقيقة ماذا عليه أن يكون! لعبة ورقية في مهب عاصفة داخلية، تلك العاصفة التي أتته مع أيامه الأخيرة، آخر أيام الأرض، ليكتشف الحقيقة، حقيقة نفسه وحياته وكل شيء، كان مشتتًا، لم يكن يدري تحديدًا كُنه حياته، الرسالة التي وُلد من أجلها، أطرق برأسه إلى الأرض، شعر بامتعاض، ألم في أسفل معدته، شعر بالجوع، لم يكترث، لم يفهم حقيقة شعور الإنسان! ما هو مفهوم الغريزة الحقيقية بالنسبة له؟! لماذا تكبّد كل هذا العناء؟! في النهاية سيموت وسيموت معه كل شيء، تذكر مرة أخرى كلماته، فهاجمه أدبه الذي عاش معه أجمل وأنقى أيام حياته، تحوله من الأديب المحترف إلى الأديب الحرفي وشتان ما بين الاثنين، هل طبيعته غير السوية هي التي خلقت منه مَنْ يكون بعد تطهره في البداية من خطيئته بين الكلمات والأوراق فجاءت احترافية الكتابة لتجلب له الغطرسة فيتحول لشكل إنساني خالٍ من الإنسانية؟! غريزة تقوده بدلًا من أن يتحكم بها؟! أم أن الخطيئة لم تُنسَ؟! لم تحجب أشعتها السوداء عن دمامة فعله! فأصبح كل شيء حالك السواد غير واضح، فانحرف مرة أخرى تائهًا بين أروقة الحياة الضالة؟! لم يكن يعرف ولكنه ببساطة ابتسم في نفسه ابتسامة باهتة؛ لأنه حين دقَّق النظر تأكد أنه الآن مجرد لعبة ورقية آمنت بالعاصفة الداخلية.

خرج من أفكاره على النداء الأخير للطائرة المتجهة إلى لندن، حمل أشياءه المتبقية، الأبناء الأربعة، المال المتبقي، الأوراق، حمل أيضًا أوجاعه وأمله وابتسامة تحنُّ إلى الماضي البعيد الذي لا يقترب.

وصل إلى أكبر المطارات الدولية، مطار هيثرو الدولي في لندن، ذانت الأعداد توحي له بأنه يوم الحشر، اليوم الأخير، حتى ذلك الإيمان بهذا اليوم كان باهتًا، مكتوبًا بلغة لا يفهمها بشكلٍ يقيني، غير واثق منها، ذانت تشبه أوراقًا صفراء قديمة مهترئة ضاعت معظم حروفها من أثر الزمن والألم، الحيرة والخوف، الكبرياء والنفور، النفور من كل تلك الكلمات التي تتحدث عن قوة واحدة تتحكم في كل القوى، ابتعد بفكره من تلك المنطقة التي طالما آلمته وأحدثت به شرخًا كبيرًا، أخذ نفسًا طويلًا واتجه سريعًا إلى خارج المطار ليتنفس الصعداء، لم تكن القطع القديمة تعيقه في المرور عبر المطارات لأنها دائمًا كانت بحقيبته وقد وجدها جميع العاملين في الجمارك مجرد قطع قديمة لا قيمة لها، لو يعلمون حقيقتها لعلموا أنها الشيء الوحيد الذي يحمل القيمة الحقيقية بالنسبة له، بالنسبة لمن قَتل وقُتل، بداية من صحراء سيناء وحتى المنطقة التي تطأها أقدامه الآن.

استقل سيارة أجرة من المطار، كان الجو ينذر بالسوء، مدينة الضباب التي لا ترحم، يا ترى ماذا تخبئ له بعدما حيَّرته سيناء وأرعبته إسطنبول وأفزعته باريس وآلمته روما؟! المدن العريقة تحفر بعمق فلسفتها وبشكل مختلف فيه.

«لندن»..

نطق بها همسًا وكأنه يتأكد من شيءٍ ما، حاول أن يرسم المجهول لكنَّ يديه مرتعشتان لا تقويان على فعل أي شيء سوى الامتثال لحقائق

الأمور التي يتعرَّض لها، تلك الأمور التي تُرسم له، وما عليه إلا القيام بعملية التلوين، يعلم تمامًا أنه يجب أن ينتقي ألوانه بذكاءٍ وعنايةٍ تامة، إن لم يفعل ذلك سيتشوه كل شيء، ستُحرق اللوحة وسيحترق معها لتتحول كل الأشياء والحقائق بل والحياة نفسها إلى مجرد رماد.

ما هي الحقيقة التي يبحث عنها هؤلاء المجهولون؟! بالتأكيد أن المتحدث معه طول الوقت ليس أكثر من مندوب لهم؟! شريك لهم؟! لا يهم، الأهم في كل ذلك، أنه من المستحيل أن يقوم شخص واحد بكل ذلك، أن يُرتب له هذه الرحلة بهذا الذكاء الحاد، علم أدهم في نفسه أنه أحد المجهولين أيضًا، وضح ذلك عليه لأنه امتعض وظهر ذلك على ملامحه، في الحقيقة أن أدهم يكمل لهم اللعبة، القطع الناقصة المختفية من خلال طلاسم قام هو وحده بحلها، إنهم لا يعرفون سوى الخطوط الرئيسية، أما الأمور الصغيرة، تلك الأمور التي تعطي للموضوع شكلًا عميقًا ومختلفًا وأيضًا كاملًا، هو فقط مَنْ يكتبها، مَنْ يصنعها وإن لم يفعل، بالتأكيد هناك ضحايا مجهولون يمكن استخدامهم، ورجل الأعمال المغربي خير دليل، انتابه الفزع فجأة حينما تذكر رجل الأعمال المغربي وحينما هبط بفندق The Marylebone والذي اختاره تحديدًا لولعه به منذ فترة طويلة ولأنه الأقرب إلى شارع أُكسفورد الشهير، يقع على بعد خمسمائة متر من المحلات التجارية في شارع Oxford بما في ذلك Selfridges وJohn Lewis ومحلات الأزياء في شارع Bond. كما أنه يبعد مسافة أقل من كيلو ونصف الكيلو متر عن Oxford Circus وSoho وHyde Park.

ظل ناظرًا إلى موظفة الاستقبال لمدة طويلة وكأنه ينتظر منها شيئًا،
ظر إلى هاتفه بشرودٍ وكأنه ينتظر شيئًا ما، لم يأته شيء من كلاهما،
«هل تأمر بشيء يا سيد أدهم؟!»، سألت موظفة الاستقبال نورا بقلق،
، التي تعرفه بشكل شخصي، ابتسم ابتسامة باهتة، شعرت نورا بأنه على
ير ما يرام وخصوصًا من هيأته التي بدت مرهقة للغاية، كما شكله
الذي تغيَّر بعد قص شعره ولحيته التي نبتت بشكلٍ كبيرٍ، فهم أدهم من
ظرتها ما يدور في رأسها، أمرها أن تُحضر له العشاء وزجاجة ويسكي
في الغرفة، انطلق في طريقه حتى وصل إلى غرفته، كان هناك جهاز
للكمبيوتر، فتحه ودخل من خلال الإنترنت على حسابه الشخصي،
وجد العديد من الرسائل، من صديقه حسن، من بعض المعجبين وبعض
الرسائل الخاصة بالعمل، لا يهم كل ذلك، رسالة واحدة كان ينتظرها،
إنها هنا، رسالة من ليلى تحمل الأوراق المجهولة، فتح الرسالة سريعًا،
خلال تحميل الملف الذي يحوي الأوراق أتاه العشاء، أعطى العامل
المشيئًا، كان متوترًا بشكل كبير، قلبه يخفق بسرعة كبيرة وكأنه يعلن عن
لحظاته الأخيرة، يعلم تمامًا أنه مع فتح الملف سيفتح مهمة جديدة، شعر
باقتراب النهاية، تمنى ذلك حتى أصبحت بالنسبة له كل شيء، لينتهي
ذلك الكابوس، بل لينتهي كل شيء.

تم التحميل بنجاح..

أثارته الجملة، جلس بهدوءٍ وهو يجرع كأسًا من الويسكي دفعة
واحدة، كانت الأوراق مكتوبة بلغة لا يعرفها، لغة قديمة لا تنتمي للغة

يعرفها، لكن في النهاية كُتب بخطٌ بدا كأنه خط اليد: «Y.E»، وبجا،
«اعثر على إسحاق إلياكيم»، وفي نهاية الأوراق كُتب بخطٌ واضح
يقبل الشك: «في النهاية ستجد السر، والسر سيأخذك إلى إسحاق».

تذكر أدهم فجأة بشعور غريب ما آل إليه الأمر واعترافه لليلى بـ
شيء وهو بمطار فيوميتشينو قبل قيام رحلته إلى لندن، رحلته من سـ
مرورًا بإسطنبول وإزميد، وصولًا إلى باريس وانتهاءً بروما التي خيّـ
ظنه، لم تكن للأسف النهاية، لم تكن المحطة الأخيرة، قصَّ عليها كـ
شيء بإيجازٍ، بقلبٍ يعتصره الألم والخطيئة، عن كل تلك الفترات الـ
خانها بها، عن كل تلك النساء التي دنَّسته ودنَّسها، عن علاقتهما الـ
كانت في الحقيقة ليست أكثر من مصلحةٍ ولهوٍ غريبٍ، بكت كثيرًا علـ
الهاتف وهو يقص دون توقفٍ كل شيء وكأنه يتضرَّع إلى الله باكيًا فـ
مسجد ساجدًا بين يديه، كأنه يعترف لكاهن في غرفة الاعتراف داخـ
كنيســة، كأنه في الدير يقسو على نفسه من أجل الوصول للتوبة، والتو
تبدأ طريقها إلى القلب بالاعتراف، كان عليه أن يفعل ذلك، لم يكن يشعـ
بأي شيء سوى رغبته الشديدة في التخلص من ذلك العبء الثقيل، وكل
تلك النزوات والخطايا التي أرهقته طوال حياته، اعترف قبل وصول
النهاية، وفي النهاية اعترف بموته القريب المحتوم.

أقسمت بكل شيء إنها ستركب حالًا إلى لندن لتلحق به، نسيت كل
شيء ولم تتذكر سوى موته، توسَّل لها بألَّا تأتي، لم تسمعه، لم يكـ
يدري لماذا ستأتي ليلى إلى لندن بعد كل ما سمعته؟! هل ستأتي لتقتله

بنفسها؟! لتمنحه الموت المرتقب؟! أم ستأتي لتمنحه القبلة الأخيرة؟! لم يستطع تصديق تلك الأخيرة رغم أن دموعها لم تمنحه شيئًا ولا معنى آخر سوى تلك الحقيقة الأخيرة! تعجب من وجود بعض البشر الذين يملكون قوة لا تضاهيها أي قوة على وجه الأرض، المسامحة والغفران، تلك القوة لا يملكها سوى المخلصين والشجعان، مَن ارتوى بحب الاستمرار بابتسامة، مَن تخلَّصوا من آلامهم الداخلية، مَن انتزعوا الحقيقة كاملة من وسط العاصفة الداخلية والعتمة الإنسانية، ترجَّاها ألَّا تأتي وحدها على الأقل وأن تجلب معها صديقه حسن، بعد توسلات متواصلة وافقت، جرع الكأس الأخيرة من الويسكي مرة واحدة قبل نومه، جرعه وكأنه يجرع الموت أيضًا على مرة واحدة.

الفصل السادس والثلاثون

نهض أدهم في الظهيرة وهو يشعر بصداعٍ غريبٍ يدك رأسه، نظر حوله مستطلعا بعيون زائغة، نظر بعصبية مرة أخرى حتى وجد هاتفه وقد أوشكت طاقة بطاريته على النفاد، شكر الله في نفسه بأنه لم يفصل بعد، فحص المكالمات فلم يجد أي شيء، تذكر بصعوبة ما حدث في الليلة السابقة، لعن نفسه ولعن الخمر والمسكنات التي جرفته إلى ما فعله بالأمس، كيف سيستطيع حمايتها وحماية حسن أيضًا وهو لا يستطيع أن يحمي نفسه، بسرعة قام بالاتصال بليلى ولكن كان هاتفها مغلقًا فتأكد أنها غادرت مصر، اتصل بصديقه حسن وكان الأمر مماثلًا لحالة ليلى، قام بالاتصال بشركته التي يديرها صديقه وتأكد له ما انتوته ليلى، إنهما في الطريق إن لم يكونا قد وصلا بالفعل.

فتح جهاز الحاسوب الخاص به في الغرفة، نظر إلى الأوراق التي أرسلتها ليلى عبر بريده الإلكتروني الخاص، كان ملحقًا بها خريطة صغيرة، لم يكن عليها أي نوع من العلامات، قرأ الأماكن الموضحة بها بسهولة، كلها توجد في لندن، لم يفهم المغزى الحقيقي من كل ذلك، تذكر الأبناء الأربعة، نظر إلى حقيبته بهدوء بجانب عينه، أخرجها من

مكانها، شبكها جميعًا بعضها ببعض طبقًا للترتيب الذي حصل ءا ،
به، سيناء، إسطنبول، روما، باريس، من اليسار إلى اليمين، لم يظهر أ
شيء، لم يبدو شيئًا مختلفًا، مجرد أربع قطع مثلثية قديمة مرتبطة ببعض ،
كلعبة المكعبات أو «البازل»، وضعها مرة أخرى في الحقيبة، فكر ءا
في الأمر برمته، ماذا عليه أن يفعل الآن؟! لقد أتم العملية كاملة، أ
كلمات اللغز على نفسه، ذلك اللغز الذي قاده إلى ما هو عليه الآن، إ
تلك المنطقة التي يقف فيها الآن.

«أربعة أبناء، كل ابن يوجد ببلد، الأب ينتظرهم بجانب المعلم الكـ
لن يُفتح الباب إلا باتحاد الإخوة الأربعة، حينها وحينها فقط سيـ
الجد بمرور الجميع، حينما يحدث كل ذلك سيكون العبور من الـ
إلى النور، ومن الموت إلى الحياة أمرًا سهلًا، لكنه النور الذي سيُلطخ
الشوارع بالدماء، سيُرمّل النساء، سيُيتّم الأبناء، سيجعل الكره والحـ
شعارًا لا استغناء عنه، إنه الميثاق الوحيد على الجريمة التي جعلت
البشر آلهة».

مَنْ يكون الأب؟! ومَنْ هو المعلم الكبير؟! العديد من الأ
شرعت تطرأ على أذهم دون الوصول إلى أي إجابة، دق جرس ا
فانتزعه من أفكاره، نظر إليه بهدوء وترقب، لقد اكتمل كل شيء با
لهم، لقد حصلوا على مبتغاهم دون أن يحصل على إجابة شافية، لقا
ثمن هؤلاء الأبناء، ثمنًا باهظًا، دماء أُريقت من أجل شيء ربما في ا
سيكون بلا معنى، بلا طائل، لماذا ورَّطه هؤلاء في كل ذلك؟! ولكن

الذي ورَّط الآخر؟! فهو مَنْ بدأ الطريق، لقد وجدوه في طريقهم، فضوله الجموح المجنون كان القائد لكل ذلك، كما قال الشيخ غانم الأحداث ستكون بطلة روايته، ردَّ على هاتفه بترقب، «سيد أدهم، مرحبًا بقدومك إلى لندن، المحطة الأخيرة، لقد انتهينا من كل شيء، لكن وبكل أسف ستنتظر قليلًا، سننتظر حتى قدوم ليلى»، وأغلق المتحدث الهاتف.

أرعبته الجملة الأخيرة بشكل كبير، استشاط غضبًا، شعر بأن دماءه ساخنة، سبَّ ولعن بأعلى صوته، صرخ تحت تأثير الغضب الذي يجول في جسده كقائد أضاع انتصاره، حينها فقط ودون مقدمات انفتح باب غرفته دون طرقات استئذان، ارتعد أدهم للحظة، تسمر في مكانه، توقف صراخه، لم يكن يدري ماذا عليه أن يقول، أصبح فجأة ساكنًا.

الفصل السابع والثلاثون

احتضنها بعاطفةٍ لم يسبق أن احتضنها بها في يوم من الأيام، منذ أن عرفها وأصبحت زوجته، ليلى التي لم تنتظر لحظة لتخبره عن وصولها إلى لندن، إلى الفندق، لقد اقتحمت غرفته ووقفت تتأكد من كونه هو، ذلك الرجل الذي أفقدها صوابها طوال عشرتها معه، تلك المدة التي تمثل لها كل شيء، لم يعلم أدهم كيف لم يشعر بهذا الإحساس من قبل، رغم كل النساء التي باتت في حضنه طوال حياته التي لا تقدر بالوقت الذي عاشه ولكنها تقدر بالخبرات التي قد تمنحه بدورها - إن كان ذلك التعبير ممكنًا - مئات الأعوام، أمسك دموعه بصعوبة بالغة أمام دموعها التي بلَّلت كتفه في هذه اللحظة الأشد صدقًا في حياته، لم يكن يدري ماذا عليه أن يقول، لقد قال كل شيء قبل ليلة واحدة، كان الأمر ثقيلًا وصعبًا عليه حينما أخبرها بالحقيقة كاملة، لقد نزع حينها من على قلبه أثقل أنواع الخزي، لقد وهبها حقها في معرفته حقيقته الضالة، ولم يمنحها الشيء الوحيد الواجب منحه، الحب، لكنه منح نفسه في النهاية راحة جزئية من شيء ثقيل، لم تكن راحة كاملة لأنه في جزء منه وفي داخله هناك وحش غاضب، ينتظر الثأر لكل ما لحق به، لكنه في الحقيقة لم يكن يدري مَنْ تحديدًا عليه الثأر منه!

وقف حسن متلعثمًا وهو يتابع ذلك المشهد، لم يكن يعرف ماذا عليه أن يقول! لكنه بلا سابق إنذار سقطت منه دمعة، لقد أخبرته ليلى بشيء واحد وهو اقتراب الموت من صديقه الوحيد، من أبيه غير الشرعي، لم يشعر بأي شيء حينها لأنه لم يستوعب الصدمة، كيف يموت أدهم؟! ماذا سيكون مصير عالمه من بعده؟! إلى ماذا ستؤول حياته دون حاميه الوحيد؟! فنحن لا نبكي على مَنْ يفارقنا حزنًا عليه ولكن نحن نبكي حزنًا على أنفسنا، لقد تحققت الأفكار التي طالما خاف التفكير بها، لعن نفسه لمجرد التفكير سابقًا بها، أراد أن يحتضنه ولكنه بقي يتابع ذلك المشهد وأدهم يمسح بكفي يديه دموع ليلى ويبتسم ابتسامة حنونًا حزينة في وجهها، ابتسامة النهاية الملعونة المرتقبة.

حينما شعر أدهم بغفلته عن حسن ابتسم له ابتسامة هادئة لم يبتسمها طول صداقتهما، شعر أدهم بتأنيب الضمير وهو ينظر إلى صديقه البدين، صاحب القلب الطيب، الذي لم يخطئ يومًا في حقه، لم يعامله يومًا سوى باحترام، لم يُغضبه تحت أي سبب أو أي ضغط، لم يشكُ من معاملته الفظة له يومًا، في المقابل لم يعامله أدهم يومًا كصديق، أطرق برأسه إلى الأرض شاعرًا بالخزي والعار والألم، رفع رأسه وقد عادت ابتسامة أخرى تطلب منه الغفران، ابتسامة لا تحمل أي معنى سوى طلب المسامحة والأسف له على كل تلك المدة الطويلة الخالية من المشاعر الصادقة وتقديم البرهان على الرابط القوي، على كل تلك الأخطاء والمعاملة الفظة التي تخلو من الحب والاحترام، احتضنه أدهم

بقوة وهو يلف ذراعيه حوله، «سامحني يا صديقي الوحيد»، قال أدهم بصعوبةٍ بالغةٍ وبصدقٍ بالغٍ أيضًا، «لو تذكرت شيئًا واحدًا لأدهم يدعوك لكرهه فسامحه، وحده الله يعلم معاناتي»، انهمرت دموع حسن وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة لكن كان يمكن معرفة معانيها، بأنه يسامحه، لا يتذكر له سوى احتوائه، لا يتمنى شيئًا على الإطلاق سوى رفضه للموت مُفرِّق الأحبة وهادم العلاقات الطيبة دون احترام لقدسيتها.

خبط أدهم على كرش حسن وهو يعود للخلف وابتسم وهو يداعبه ناظرًا إلى ليلى، ابتسم الجميع مكفكفين دموعهم، أمرهم أدهم بأخذ بعض الراحة في الوقت الراهن حتى يتسنى له القيام ببعض الأعمال، انطلق حسن إلى غرفته بينما بقيت ليلى في غرفة أدهم وهي تجلس على حجره كطفلة تقبّله على وجهه دون أن يتبادلا الكلمات.

قام أدهم بإخراج الأبناء الأربعة من حقيبته وهو ينظر إلى ليلى نظرة طويلة ذات معنى، وضعها بين يديها، أمسكت ليلى بالقطع وهي تنظر بتأملٍ وتعجبٍ لها، «هذه القطع هي التي أوصلتني إلى هنا»، قال أدهم، «السبب في كل شيء»، كنت أبحث عن شيء يجعلني خالدًا، يبدو أن الخلود له معنى آخر مع هذه الرحلة، هل تستطيعين مساعدتي؟! أنتِ الخبيرة هنا، أعلم أنه طلب فظ بعد كل ما عرفتيه ولكنني وبعد كل هذه المدة اتضح لي أنني لا أملك شيئًا حقيقيًا غيركِ».

لم ترد ليلى حيث نقلت بصرها بين الأبناء وأدهم، أمسكت دموعها التي كادت تسقط تحت وطأة كلماته الأخيرة ثم جاءت بصفحة المرجع

التي أعطتها له والتي قادتهما إلى ما هما عليه الآن، قرأت اللغز لأكثر من مرة، أمسكت بالأبناء وشرعت في تركيبها واحدًا تلو الآخر بجوار بعضها بعضًا، لمعت القطع المثلثية بشكلٍ مدهشٍ لثانيتين ثم خبا ذلك الطيف مرة أخرى، اندهشت ليلى وكذلك أدهم، «لقد قمت بتركيبها قبل ذلك»، قال أدهم، «ولم يحدث أن رأيت ذلك الوميض بهذه الصورة».

«ربما لأنك ركبتها بطريقة خاطئة»، قالت ليلى، «إن الكلمة هنا لها معنى مهم وغريب أيضًا، هل عرفت ذلك؟!».

لمعت عينا أدهم حيث قد نسي معرفتها باللغة العبرية ونظر بهدوء إلى الأجزاء فوجد أنها رتبتها حيث المنطقة: سيناء، إسطنبول، باريس، وأخيرًا روما، ولكن من اليمين إلى اليسار، لقد جمعت الأبناء بنفس الترتيب الذي حصل به عليها وكان خطؤه الوحيد أنه رتَّبها من اليسار إلى اليمين كاللغة الإنجليزية بينما هي رتبتها من اليمين إلى اليسار كما ينبغي وكما هو معروف في اللغة العبرية، «هل هي كلمة؟!»، قال أدهم، «لقد تخيلت أنها رمز ما».

«في الحقيقة، هي كلمة ورمز في آنٍ واحدٍ».

نظر إليها أدهم دون أن يتفوَّه بكلمة، بدا عليه عدم الاستيعاب، لم يكن يفهم ما ترمي إليه.

«أعتقد أنك كوَّنت الحروف بطريقة خاطئة»، قالت ليلى وهي تشرح بطريقتها الأخاذة التي يعشقها أدهم حينما تتحدث عن التاريخ، «إن اللغة

عبرية كاللغة العربية، عليك أن تكتب من اليمين إلى اليسار، وفي حالتنا جب أن نركبها من اليمين إلى اليسار، ولذلك حين ترتب الحروف نكل صحيح ستجد الكلمة هي مسيًّا، والمسيًّا تعني: المخلِّص».

«المخلِّص؟!»، تساءل أدهم بحيرة ودهشة.

«المخلِّص أسطورة يهودية، يعتقد فيها اليهود منذ بداية عهدهم هناك العديد من الجمعيات السرية والمعروفة أيضًا التي تتبنى هذه أسطورة، مثل جماعة شهود يهوه، وهم جماعة تمزج بين المسيحية ليهودية وتدعو الناس للعمل من أجل عودة السيد المسيح وتجعل لك مشروطًا بإقامة هيكل سليمان من جديد، وذلك يعني بالطبع إزالة مسجد الأقصى من مكانه وأنت تعلم النتيجة، إن ذلك الأمر يعمل على جيج الحرب بين المسلمين وغير المسلمين باعتبار أن هذا المخلِّص ينتظره المسلمون المقدِّسون للمسجد الأقصى».

نظر إليها أدهم متأملًا ما تقوله، فكر للحظات في كلماتها، «هل رفين شيئًا آخر عن هذه الجماعة؟!»، قال أدهم بحماس وترقب.

«تقصد شهود يهوه؟ إنها طائفة مسيحية»، قالت ليلى، «ظهرت عام 18 في ولاية بنسلفانيا الأمريكية مع جهود وأفكار تشارلز راسل، اعية الذي رفض العديد من الاعتقادات المسيحية مثل شفاعة ديسين وإحراق العصاة في الجحيم وأفضلية شخص على آخر، وعلى غم من الصورة القاتمة التي رسمها الإعلام العربي، فإن جماعة شهود

يهوه جماعة مسالمة لا تهدف إلا لغاية واحدة وهي التعريف بالإله يهوه والتبشير بملكوت السماء في الأرض».

تنهدت ليلى ثم نهضت من مجلسها وفكرت للحظة وأدهم يتابعها، «لكن لا تنسَ»، قالت ليلى، «إن فكرة المخلِّص فكرة معروفة منذ قديم الأزل حيث إن المسلمين أيضًا يؤمنون بهذا الاعتقاد في شخص المهدي المنتظر، الذي سيأتي ويملأ الأرض عدلًا بعد أن امتلأت بالظلم والانحلال، ولأكون صادقة معك فإن فكرة المخلِّص هي فكرة يهودية الأصل وليست إسلامية كما يعتقد البعض أو الغالبية العظمى، لقد ظل اليهود خلال القرنين السابقين لظهور السيد المسيح ينتظرون المخلِّص المسمَّى عندهم المسيًّا أو الماشيح، وهو الذي سوف يحقق وعد الله لأبنائه بامتلاك الأرض، إن القطع الموجودة بين أيدينا الآن مكتوبة باللغة العبرية ولكنك لم تلتفت إلى الجملة في الخلف».

«لقد انتبهت لها ولكنني لا أعرف اللغة لأعرف معناها؟!»، قال أدهم مندهشًا.

«إنها مكتوبة بالآرامية وهي اللغة التي كان يتحدث بها السيد المسيح في ذلك الوقت، وأنا لست ضليعة بها لكنها كلمة معروفة وتعني يشوع».

«السيد المسيح؟!»، قال أدهم وقد بدا أنه مصعوق.

«بالضبط»، قالت ليلى، «لكن كلمة المخلِّص التي تكونها الأحرف كلمة معروفة لكل باحث مهتم بالتاريخ، الكلمة حسب الترجمة هنا

تعني: مسيًا؛ لذا فالأمر مرتبط باليهود وبالسيد المسيح أيضًا، وإن قارنت كل الأحداث معك ستجد أن آخر ما أرسلته لك والذي أتذكره جيدًا بأن عليك أن تصل إلى شخص اسمه إسحاق إلياكيم، وهو اسم يهودي، الأمر لا يحتاج إلى التفكير أو الذكاء»، سكتت للحظة وهي تتنهد تنهيدة لا تخلو من التفكير والحزن أيضًا، «أدهم بصدق بالغ أنا خائفة جدًّا، لقد مررت بتجربة قاسية وأعلم أنك لا تستطيع العودة من هذا الطريق الآن وأنت مهدد بالتدمير تمامًا، لكن فكر جيدًا قبل اتخاذ أية خطوة، أنا معك حتى النهاية ومهما كانت النتيجة، لا تستمر في هذه المغامرة، أرجوك».

ابتسم أدهم ابتسامة باهتة وهو يعطي ظهره لها، «لم يعد هناك مجال للعودة يا ليلى، لقد تقرر الأمر منذ أن وطأت قدماي سيناء، ربما منذ أن أمسكت بذلك المرجع اللعين».

صمت أدهم للحظة وهو يفكر، «لكن ماذا تعرفين أيضًا عن تلك الجماعة شهود يهوه؟!».

ابتسمت ليلى، «يبدو أن الموضوع أثارك، لكن بصدق بالغ لا توجد جماعة مقدسة أو مثالية، ستجد دومًا الجيد والخبيث، في النهاية ستجد أن لكل شيء غاية أكبر ومصالح قد تقودك في النهاية إلى مصالح دموية فردية تهدف للخراب، فمثلًا تلك الجماعة ذُكر عنها الكثير، فهم يؤكدون أن كلمة يهوه تعني اسم الله، وهو يرد في الكتاب المقدس: مزمور، ولكن المترجمين استبدلوا بالاسم لقب: الرب، يُكِنُّ الشهود أيضًا مقدارًا كبيرًا

من الالتزام تجاه عقيدتهم، وحرصًا أشد في حضور الاجتماعات التي تُعقد مرتين في الأسبوع في القاعات العامة».

«هل تقولين إنها جماعة تعمل على الملأ وليست سرية»، قال أدهم مندهشًا.

ضحكت ليلى، «نعم بالطبع، كانت تُعرف حين إنشائها باسم مذهب الراسلية أو الراسليين نسبة إلى مؤسسها تشارلز راسل، في حين أن ذلك الأخير كان يطلق عليها اسم: فجر الألفية، كما عُرفت أيضًا باسم الدارسون الجدد للإنجيل، وعرفت بعد ذلك باسم: جمعية برج المراقبة والتوراة والكراريس Watch Tower Bible and Tract Society ثم استقر الأمر أخيرًا وعرفت باسم: يهوه، نسبة إلى يَهْوَه، إله بني إسرائيل على ما تُردد توراتهم».

«وكلَّم الله موسى قال له أنا الرب. أنا الذي تجلَّيت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إلهًا قادرًا على كل شيءٍ وأما اسمي يهوه فلم أعلنه لهم» (سفر الخروج 6: 2-4).

صمتت للحظات ثم قالت: «يثير البعض جدلًا عن هذه الجماعة؛ لأنهم لا يؤمنون بالروح وبخلودها ولهم معابد خاصة بهم يسمونها القاعة الملكية أو بيت الرب، كما أنهم يعادون النظم الوضعية ويدعون إلى التمرد، ويعادون الأديان إلا اليهودية، وجميع رؤسائهم يهود، والكارثة أيضًا التي تنتشر عنهم أنهم يعترفون بقداسة الكتب التي تعترف بها اليهودية وتقدسها وهي تسعة عشر كتابًا، وهذا ما يثير جدلًا كبيرًا

حولهم، وكما تدرك أن لكل مذهب بيته ورئيسه، وهنا الأمر يختلف حيث يرأسهم العبد العظيم أو ما يعرف بالحكيم، ويعرف مقره بـ: بيت إيل، أي بيت الله، كما أنهم يتبنّون المينوراه، وهو الشمعدان السُّباعي، وتخيل إلى ماذا يرمز الشمعدان السباعي؟!»..

«رمز اليهود الديني والوطني»، قال أدهم بدهشة، ابتسمت ليلى وهي تومئ برأسها دون أن ترد.

«هل كل ذلك صحيح؟!»، قال أدهم مفكرًا، «أعني كل ما يُشاع عنهم، فأنتِ تدركين أنه على مر التاريخ ما وُجدت جماعة تُعادي مصالح آخرين إلا وقاموا بتشويهها».

«لا أعرف يا أدهم»، قالت ليلى، «إنني باحثة ولست مخوّلة هنا بالحكم ولست أحدهم لأحكم عليهم، لكن دعني أخبرك بأنهم ينشرون دعوتهم من خلال زيارة البيوت وبالطرق المكتوبة أيضًا حيث إنهم يملكون العديد من المجلات مثل مجلة Awake، والتي تُنشر بتسع وتسعين لغة، وتصدر شهريًا، كما يقومون أيضًا بنشر مجلة أخرى تعرف باسم برج المراقبة The Watchtower، وتُطبع هذه المجلة بمئتين وثلاث عشرة لغة، وتتناول شرح مبادئ الكتاب المقدس بأكثر من ستمائة لغة حتى باللغات التي ينطق بها عدد قليل من الأشخاص الساكنين في المناطق النائية، وموقعهم على الإنترنت يزود المعلومات بمئات اللغات، وهم متهمون دائمًا بأنهم جماعة يهودية، ولكن الشهود ينكرون ذلك دائمًا، ومن الأشياء المهمة التي يجب أن تعرفها أنه مسموح لهم رسميًا بمزاولة أعمالهم في لبنان والسودان».

صمتت للحظة وهي تفكر، «هناك شيء أخير يجب أن تدركه»، قالت ليلى، «إنهم لا يؤمنون بأن المسيح قد صُلب كما تعتقد طوائف العالم المسيحي، بل على عمود أو خشبة كما هو موجود في أسفار الكتاب المقدس؛ لذلك لا يضعون الصليب على الصدور أو البيوت، كما أنهم لا يستخدمون الصور والتماثيل في عباداتهم».

صمت أدهم لبرهة مفكرًا في كل ما قالته ليلى، ربَّت كتفها وهو يومئ برأسه متفهمًا ومنهيًا النقاش، ثم ابتسم ابتسامة باهتة قلقة، ولم يقل شيئًا.

كانت ليلى مرهقة للغاية، قام أدهم بحجز غرفة لشخصين في هذه الأثناء ثم طلب من حسن أن يأتي ويأخذ غرفته، انتقلا إليها سريعًا ثم نام بجوارها على السرير حتى نامت بين ذراعيه، تركها بهدوء، كان يفكر بعمق فيما يحدث، شعر بأن هناك جزءًا ناقصًا، حلقة مفقودة في المتصف، لم يكن يدري في هذه اللحظة بأنه كان صائبًا بهذا الشأن، ولم يكن يدري أيضًا بأنه، وفي مكان آخر، هناك العديد من الأشياء التي تحدث.

أشياء قد تقلب كل شيء.

الفصل الثامن والثلاثون

نزل أدهم من الغرفة بعد أن اطمئن على ليلى وجلس في بهو الفندق ليحصد بعض الهواء المنعش بعيدًا عن كآبة الغرفة، حينها لمح إليسًا المسئولة عن ترجمة رواياته إلى الإنجليزية ومديرة النشر في الدار التي تعاقد معها على ترجمة جميع أعماله، أربعينية العمر تبدو عشرينية من اهتمامها بنفسها، نحيفة للغاية، لها عينان زرقاوان، وأنف صغير قوقازي، وشفاه رفيعة، طويلة مقارنة بطول النساء، لم يتعجب كثيرًا من وجودها لأنه في الحقيقة تعوَّد ذلك، كانت تقف في مواجهة الاستعلامات وحينها كان الشاب المسئول يشير عليه، ابتسم أدهم ابتسامة ساخرة وهز رأسه ساخطًا على كل شيء، أتنقصه جثة جديدة؟! اقتربت منه بوجهٍ يتهلَّل فرحًا واحتضنته بشدة وهي ترحب به، جلست تتبادل الحديث معه عن أخباره مبدية تعجبها من تغير مظهره والإرهاق الشديد البادي عليه، لم يُعلِّق كثيرًا على كلماتها لأنه ببساطة في انتظار السبب الذي أتى بها، فلا يوجد شخص على وجه الأرض يعلم بقدومه إلى لندن خارج إطار مغامرته الغريبة الدموية، «لقد حصلت لك على المعلومات المطلوبة»، قالت إليسا، «لا أعرف لمَ تريد الحصول على هذه المعلومات! لكنها بصدقٍ بالغٍ أجهدتني حتى يتسنَّى لي الحصول عليها»، حينها كانت تفتح

حقيبتها الخاصة، أخرجت منها بعض الأوراق ثم ناولتها له، «أحمد الله أنك أعطيتني وقتًا كافيًا لذلك»، قالت إليسا وهي تبتسم، «لكن قل لي لمَ تحتاج إلى هذه المعلومات؟! هل هي رواية جديدة أم صفقة جديدة؟!».

لم يكن أدهم يفهم شيئًا واحدًا سوى أن هناك بعض التعليمات الواجب الحصول عليها، وإليسا هي الوسيط المتاح والأكثر أمانًا، أخذ منها الأوراق بابتسامة مصطنعة ثم فتحها وشرع في قراءتها، لم تتوقف حينها عن طرح الأسئلة ولكنه لم يأبه لذلك لأنه كان شغوفًا بمعرفة خطوته القادمة، فهو يحمل أربعة أبناء ولا يعرف أكثر من ذلك، يملك المفتاح لكنه لا يعرف مكان الكنز ولا هويته، ببساطة لا يملك سوى المفتاح الذي يفتح المجهول عنه وعن كل مَن يعرفهم.

انتهى من قراءة الأوراق سريعًا ولم يفهم منها شيئًا تقريبًا، الأوراق تتحدث عن صفقة تجارية لها علاقة بسوق الكتب، لم يكن يفهم تحديدًا ما ترمي إليه الأوراق! رفع رأسه ونظر إليها، «متى تم الاتصال بكِ؟!»، سأل أدهم.

«منذ ثلاثة أيام تقريبًا، اتصل بي..»

«مدير أعمالي، أعرف»، قال أدهم مبتسمًا بسخرية.

«بالضبط، أخبرني أنه عليَّ تسليمها بمجرد وصولك وأخبرني عن ميعاد وصولك إلى لندن والفندق أيضًا، ما يحيرني لمَ تلك العجلة في كل ذلك؟ ولماذا لم تحاول أن تكلمني أنت؟ أنا قلقة».

«اهدئي»، قال أدهم، «لا يوجد شيء ولكنني لم أكن بمصر، لقد كنت في رحلة طويلة وسافرت العديد من البلاد، بصدق أنا لم أسترح على الإطلاق منذ مدة طويلة».

«هذا واضح»، قالت إليسا وهي تربت كتفه.

«هل تعرفين شخصًا اسمه إسحاق إلياكيم؟!»، سأل أدهم بنوع من الحذر وتمنى بعد انتهاء سؤاله ألا تكون قد سمعته.

«إسحاق إلياكيم؟! إنه اسم يهودي! أعتقد أنني سمعت هذا الاسم من قبل في مكانٍ ما! لا أتذكر تحديدًا، لكن يمكنني الاستفسار عنه، هل يوجد في لندن؟».

«أعتقد ذلك».

«لا تقلق، غدًا على أقصى تقدير سأطلعك على المعلومات التي وصلت إليها بشأنه».

رغب أدهم في إنهاء اللقاء عند هذا الحد؛ لأنه أراد أن يقرأ الأوراق بمفرده مرة أخرى وحتى لا يورِّط إليسا معه أكثر من ذلك، استأذنها ووعدها بمقابلتها في الغد.

انتهى من مقابلته، شعر بإعياء شديد، ركب المصعد متجهًا إلى غرفته، كان حسن صديقه يقيم في الغرفة المجاورة له، حيث أقام حسن في نفس الغرفة التي كان يمكث بها أدهم قبل مجيئه هو وليلى، ابتسم في نفسه وقرر أن يمر عليه، كان الباب مفتوحًا، اتضح له ذلك على بعد أمتار قليلة

من الغرفة، شيء في نفسه حدثه بأن هناك خطبًا ما، ليس شيئًا جيدًا على الإطلاق، أسرع خطاه، دلف إلى الغرفة سريعًا، لم يكن هناك أي أحد. كانت الغرفة مقلوبة رأسًا على عقب، دار أدهم حول نفسه وهو يتلفت باحثًا عن أي شيء يقوده إلى صديقه، شعر بالرعب بعد ثوانٍ حينما تذكر أن ليلى وحدها، جرى سريعًا إلى غرفتهما، وجدها كما هي نائمة في السرير كملاكٍ حالمٍ، أخذ نفسه بصعوبة ولكنه أغلق الباب عليها ثم انطلق جريًا نحو المصعد، كان يفكر بالعديد من الأشياء المزعجة، لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل! العديد من السيناريوهات المفزعة تدور برأسه، وصل إلى البهو، نظر في كل مكان باحثًا عن حسن، لم يجده على الإطلاق، اندفع خارج الفندق ونظر حوله في كل مكان، لم يجد شيئًا غريبًا أيضًا، عاد مرة أخرى بسرعة والقلق يعتصره، وقف عند الاستعلامات وسألهم عنه، قال له الشاب العشريني المسئول الذي يقف هناك إنه كان بصحبة بعض الرجال منذ دقائق معدودة، وقد كان مغشيًّا عليه حتى إنهم علَّلوا الأمر حينما لفت انتباههم بأنه فقد توازنه من التمادي في شرب الخمر، لقد رحلوا منذ خمس دقائق على أقصى تقدير، وقف أدهم مفزوعًا يفكر فيما حدث، لم يكن يدري مَن يكون هؤلاء! لن يكون سببًا في موت صديقه الوحيد أيضًا، صعد سريعًا إلى غرفته وأيقظ ليلى من نومها فنهضت مفزوعة، أمرها أن تجهز نفسها للرحيل في الحال، حاولت أن تفهم ما يجري، لم يعرف ماذا يقول لها، لكنه في النهاية أخبرها بكل شيء على عجل، «لقد خطفوا حسن»، صُعقت من الخبر وكادت تصرخ، لكنها أمسكت عن صرختها التي بدورها وضحت في

عينيها الجميلتين الفزعتين، بدت بعد ذلك متوترة وعصبية وألقت العديد من الأسئلة، كان ذهنها مشوشًا، ولم تكن تستوعب ما يحدث من أثر الإرهاق واليقظة التي لم تحصل عليها كاملة بعد، دق جرس هاتف أدهم، «سيد أدهم، نعتذر عمّا حدث، في الحقيقة لم يكن صديقك هو الرجل المنشود بل أنت، ولكن أخطأ رجالي ولم يكن بيدهم فعل أي شيء سوى إحضار كل مقتنيات الغرفة وصديقك أحدها، لقد أسعفك الحظ، فكما قلت لك سابقًا أنت رجل محظوظ، من أجل سلامة صديقك لا تحاول العبث معنا، ستحضر الليلة ومعك كل شيء، لا تحاول الهرب، انتظر في شارع أكسفورد في تمام التاسعة مساء»، وضحك ضحكة خبيثة، «لا ترهق نفسك فصفقة الكتب تعني وجود سوق كتب في نهاية الشارع، هناك انتظر»، صمت للحظات، «أعرف أنك لست جبانًا ولكن حينما يتعلّق الأمر بالموت فالجميع يهربون يا سيد أدهم، الجميع»، وأنهى المكالمة.

كانت ليلى ترتدي ثيابها على عجلة بينما وقف أدهم قليلًا وهو يفكر بما قاله له المتحدث المجهول الذي بدا صوته غريبًا هذه المرة، خرج من تشوشه البادي عليه وشرع بجمع كل الأغراض الخاصة به وانطلقا سريعًا من الفندق في اتجاه شخص تعرفه ليلى جيدًا حيث كانت تستعين به عندما تأتي إلى لندن لكي يوفر لها شقة لأنها تكره الفنادق كثيرًا، وما إن استقر الاثنان في شقة بإحدى ضواحي لندن حتى وجد أدهم نفسه معلقًا بين فكي كماشة عملاقة، عليه إنقاذ صديقه وفي الوقت نفسه

حماية ليلى من مجهول لا يعرفه، ولكن الشيء الذي لم يستطع مقاومته في داخله، ما هو السر الحقيقي الذي يدفع رجلًا ما أو مجموعة أيًا كانت غايتها لتكبد كل هذه المشقة وقتل كل هؤلاء بلا سابق معرفة؟ ولكن بقي السؤال الحقيقي الغامض الذي آلمه طوال رحلته: إلى ماذا يقود الأبناء الأربعة بالضبط؟!

الفصل التاسع والثلاثون

وقف أدهم في شرفة الشقة التي استأجرتها ليلى، شعر بأنه مراقب، في الحقيقة كان متأكدًا من ذلك لأنه بعد ذلك أجرى اتصالًا مع إليسا من خلال هاتف آخر من الشارع تحسبًا لأن يكون هاتفه مُراقبًا أيضًا، أخبرها بحاجته إلى مكان يأوي إليه لا يعرف عنه أحد شيئًا سواها، وعليها أيضًا أن تقوم بذلك الموضوع بسرية تامة ولا يعرف أحد المكان حتى هي إن استطاعت، كما أخبرها ببعض الأمور الأخرى التي يحتاج إليها، حينما عاد وجد ليلى متوترة للغاية، وقف مفكرًا، شيء واحد كان عليه استخدامه كاملًا لمصلحته الشخصية ومصلحة ليلى قبل أي شيء: ذكاؤه. جلس في الشرفة حيث كان الوقت يقترب من فترة العصر ولم يبقَ على ميعاده مع المجهول سوى سويعات.

أخذ نفسًا عميقًا وشرع في إلقاء الأسئلة على نفسه، أخذ في حساب كل شيء بالمعنى الحياتي الدقيق، كان يُدرك تمامًا أنه يقف الآن على عتبة الموت، ليس موته ولكن موت أهم جزء فيه، ذلك الجزء الذي وصل إليه بعد مشقة وألم ودماء دفع ثمنها أشخاص كل ذنبهم أنهم وُجدوا في حياته، لن يتحمَّل دفع مزيد من الدماء لأجل شيء هو في الحقيقة لن

يمنح له سوى الموت وليس الخلود كما اعتقد في بداية طريقه المتهور الغامض، لن يقبل خسارة أخرى ولن يكون مجرد مُنفِّذ لبعض التعليمات كقاتلٍ مأجورٍ أو عاملٍ في مطعمٍ وضيعٍ.

أدرك بعد تفكيرٍ لم يطل أنه يملك القوة أيضًا للمضي قُدمًا والحفاظ على حياة حسن وليلى، ولكن عليه أن يقوم بحساب الأمر بشكلٍ دقيق دون الوقوع في خطأ واحد، وإلا ستكون النتيجة كارثية، صفا ذهنه بصعوبة وهو يرسم خطته في رأسه بعد أن أيقن بأنهم لن يستطيعوا فعل أي شيء لحسن طالما أنه يملك الأبناء الأربعة، ولكن تنقصه المعلومات الحقيقية حولهم، معلومات عن عدوه الحقيقي الذي تمادى بشكلٍ مرفوضٍ تمامًا، فكيف يمكن محاربة العدو دون دراسته؟!

نزل بهدوءٍ بعد أن أخبر ليلى بجزءٍ من خطته، لم توافقه في بداية الأمر ولكنها في النهاية انصاعت له لأنها لم تكن تحمل حلًّا آخر بجانب خوفها الذي وقف بينها وبين تفكيرها كحائطٍ عملاقٍ مصنوعٍ من الفولاذ، أدركت أن عليها تسليم كل شيء للقدر ولعقل أدهم ومحاولة مساعدته بقدر الإمكان بجانب عدم الاعتراض عليه في أمور قد تسوقهما للهلاك.

حينما عاد بعد نصف ساعة تقريبًا كانت قد قامت بكل ما طلبه منها، قامت بقص شعرها الطويل على طريقة «الجرسون»، ثم قامت بصبغه بلون أشقر مستعينة بالأدوات التي جلبها خصيصًا من أجل ذلك، كما جلب لها بعض الملابس التي تختلف تمامًا عن ذوقها في اختيار

ملابسها، ولم تنسَ أيضًا أن تضع العدسات الزرقاء على عينيها فبدت في النهاية بعد كل ذلك شخصًا آخر، بينما قام هو بقص لحيته وجلب شعرًا مُستعارًا معه «باروكة»، ارتدى ثيابًا عادية تتنافى مع ذوقه المعتاد، لم ينسَ ان يتوخَّى الحذر في كل خطوة، حيث أخبرها بالحقيقة، بأن كل تلك الأشياء لم يشترها ولكنها تُركت له في خزانة بإحدى محطات القطار عن طريق أحد العاملين لدى إليسا بدار النشر، فربما تكون هي الأخرى مراقبة، فإن توخِّي الحذر في هذا الوقت الصعب أمر ضروري للغاية ولا يمكنه المجازفة بأي شيء.

انطلق الاثنان بشكل طبيعي لا يلفت الأنظار في طريقهما إلى شمال لندن بهيأتهما الجديدة، دلفا إلى داخل سيارة أجرة وسط الزحام، أشار إلى السائق بأن يتوقف عند إحدى محلات الأنتيكات الشهيرة وأمره بالانتظار، لم يترك ليلى ثانية واحدة، لم تكن تفهم ماذا يفعل أدهم لأنه بداية من هذه النقطة لم يكن يُطلعها على أي شيء، فقد شعر بأن ذلك لن يكون ضروريًا تحسبًا لأية ظروف قد تقع فجأة، دق جرس هاتفه داخل المحل، نظر إليه لثوانٍ وابتسم دون أن يرد ثم أغلقه تمامًا، اشترى مجموعة من الأنتيكات ثم غادر المحل ووضع كل شيء في سيارة الأجرة، ثم أخبر ليلى بأنه نسي شيئًا، فتح حقيبة السيارة الخلفية ثم أخذ الأبناء الأربعة من الحقيبة، دلف إلى داخل المحل ثم عاد بعد مدة طويلة شعرت خلالها ليلى بالقلق، كان يحمل حقيبة جلدية سوداء صغيرة، وقد ظهرت على ملامحه ابتسامة، ثم قام ببساطة بإلقاء هاتفه الخلوي في سلة

المهملات، ركب بجوارها مبتسمًا ابتسامة لم ترها منذ مدة طويلة، تلك الابتسامة تعرفها جيدًا، لا يبتسمها أدهم إلا حينما يكون قد فاز بشيء أو انتصر في معركة ما، حينما سألته ابتسم لها دون أن يرد ثم وضع سبابته على شفتيها ناظرًا بجانب عينه إلى السائق مشيرًا بإيماءة تكاد لا تُرى من رأسه بأن تنتظر حتى يخبرها بكل شيء.

أمر أدهم السائق بالتوقف في أحد الشوارع بعد نصف ساعة تقريبًا من السير، نزلا من السيارة ومعهما كل شيء، ثم دلف إلى أحد المحال واشترى هاتفًا خلويًّا جديدًا، بعد دقيقة لم يتفوَّه فيها أدهم بكلمة أوقف سيارة أجرة أخرى ثم ركبا فيها وانطلقا إلى المكان الذي أعدته إليسا لهما كما أخبرها، كانت شقة تقع في أحد شوارع شمال لندن الهادئة.

حينما دخلا إلى الشقة بعد أن وجد المفتاح موضوعًا أسفل سجادة صغيرة مخصصة لمسح الأقدام أمام الباب، ابتسم أدهم وهو يخلع الباروكة من فوق رأسه الأصلع، ونظر إلى ليلى نظرة طويلة ثم احتضنها، لم يكن يعرف ماذا ستكون الخطوة القادمة ولكنه وفي داخله كان يُدرك أنه يسير في الاتجاه الصحيح.

الفصل الأربعون

لم يفتح أدهم الحقيبة السوداء التي بحوزته، لم يأتِ على ذكر أي شيء لليلى القلقة التي كانت تقف في الشرفة وقد تجرَّدت من معظم ملابسها، العديد من الأشياء كانت تدور في مخيلتها، تفكر فيما آلت إليه الأمور، في الحقيقة كانت تفكر في حياتها التي عاشتها ولم تتضح لها سوى أنها حياة مزيفة، تلك الحقيقة كانت تؤلمها بشكل بالغ، أرادت أن تبكي من أجل كل شيء، ربما ندمًا، لكن في الحقيقة كان الندم هو آخر شيء يمكن فعله في هذه اللحظات الصعبة، امتلكت إحساسين أحدهما يكره جزءًا من أدهم والآخر يحبه ويسامحه، كانت تدرك أن الجزء الأخير أقوى من الجزء الأول، بل أقوى من نفسها الضعيفة أمام حبها الوحيد دون مبالغة، ذلك الحب الأفلاطوني التي طالما تباهت به أمام صديقاتها وكل مَنْ حولها، بل أمام العالم بأسره، يسقط دون مقدمات، في غفوة منها، بضربة قوية ضربتها يد خائنة لا تكترث لأي شيء، نزلت دموعها وهي تدخن في الشرفة، شكلها الذي تغير لم يغير من ملامحها التي بدت كئيبة للغاية فأظهرتها أكبر من سنها بعمرٍ آخر قد يفوق عمرها الثلاثيني بأعوامٍ كثيرة، في النهاية نفخت الدخان بألمٍ ونفورٍ واستسلامٍ أيضًا.

أدرك أدهم جيدًا ما يدور في قلب زوجته، وقف مستسلمًا ومتألمًا، في الحقيقة لن يستطيع أن يفعل شيئًا، والتمادي في الاعتذار سيجعل الجرح عميقًا أكثر مما هو عليه، الاعتراف وحده كلَّفه من نفسه الكثير والآن يُكلِّفه كل شيء، ما أسوأ أن تسقط الأقنعة الزائفة في وقت قررنا فيه أن نتبنى الحقيقة، نتبنى مخاطرة نَزعِه ومواجهة العالم بحقيقتنا لننعم بما تبقَّى من حياتنا بنفسٍ مستريحةٍ مع العالم، وما أصعب أن تتحوَّل اللحظات الأخيرة إلى كارثةٍ نظهر فيها على عكس ما عرفنا العالم، لعن كل شيء في داخله ولكنه في النهاية استسلم للحقيقة أمامه وهو يقف في مواجهة ليلى مبتسمًا ابتسامة باهتة للغاية، ابتسمت بدورها والدموع تسيل على وجنتيها في صمتٍ مؤلمٍ، فهي لم تملك الحق الوحيد كامرأة وزوجة في انتزاع حقها ممَّن آلمها، خانها، أحدث جُرحًا لن يداويه شيء ولا حتى الزمن، لن تستطيع أن تصرخ في وجهه وأن تؤلمه بكلماتها كما آلمها بأفعاله المشينة، لم تملك حتى حق العتاب البسيط الذي يملكه أبسط زوجين على وجه الأرض..

تبًّا لكل شيء..

دق جرس هاتفه في اللحظة التي شرع فيها الليل يغرس مخالبه في أنحاء لندن، نظر إلى الهاتف نظرة طويلة ذات معنى، أخذ نفسًا عميقًا ونظر إلى ليلى التي بدا عليها القلق أكثر من ذي قبل، فتح الخط واستمع للمتحدث، بعد دقيقة من الصمت بعد انتهاء المكالمة، نكَّس رأسه وشرع يفكر، كانت إليسا المتصلة به، لقد وصلت إلى معلومات كثيرة

من إسحاق إلياكيم، إنه رجل أعمال يهودي يعيش في وسط لندن؛ لذلك لم يكن وقع اسمه غريبًا عليها، لقد حدَّدت له ميعادًا معه لأنها في وقت لاحقٍ أخبرته ببعض المعلومات البسيطة، وأخبرها أيضًا إن كان في وسعها تحديد موعد معه فلتفعل دون الرجوع إليه، وهذا ما حدث بالفعل، والغريب في الأمر أن إسحاق إلياكيم بنفسه حينما علم باتصال مندوب عن أدهم طلال، اتصل بالمندوب - وهي إليسا - وتحدث إليها بصفةٍ شخصيةٍ، أخبرها بصيغةٍ غريبةٍ بأن عليه ألَّا يتحرَّك وألَّا يأتي بنفسه، وعليه أن يتَّبع التعليمات التي أخبرته بها، في الحقيقة أكد على نقطة واحدة، هي أن ينتظر أدهم في نهاية شارع أكسفورد من الناحية الشرقية في تمام الثامنة والنصف صباحًا، وعليه أن يرتدي بدلة سوداء بدون ربطة عنق، وأن يُمسك في يده وردة من ورود السوسن.

الفصل الواحد والاربعون

في تمام الساعة التاسعة مساءً كان أدهم يقف في شارع أكسفورد كما أخبروه مسبقًا، أمام سوق الكتب الموضح في أوراق إليسا، وعلم وقتها أن وجود إليسا لم يكن أكثر من طُعم، وربما ليُحمِّلوه ضحية أخرى، فكر في كل شيء منذ بداية رحلته ولكن هذه المرة بشكلٍ أعمق، كان تفكيره صافيًا رغم الآلام التي شرعت تدب فيه بشكلٍ غريبٍ وخصوصًا في رأسه، علم أنه المرض الذي شرع يتملَّك منه، ما كان عليه أن يفكر طويلًا في ألمه لأن ذلك سيُعيق كل شيء، أخذ قرصًا مسكنًا للغاية اشتراه من صيدلية قريبة في وقتٍ سابق وهو في طريقه إلى شارع أكسفورد، اطمأن على ليلى تمامًا قبل أن يغادر وأوصاها بأن تهرب قدر ما استطاعت إن شعرت بأي خطر، لم يكن يستبعد أيضًا مراقبة المطارات من قبل المجهولين الذين يهددون حياته لكنه في النهاية أجزم بأن بعد كل هذه الاحتياطات ستكون فرصة النجاة بالنسبة لليلى كبيرة، لولا عِنادها وإصرارها على البقاء معه لأرسلها على أول طائرة إلى مصر.

كان بهيأته العادية دون الباروكة، بطريقته في الملبس المعروف بها، لم يكن يحمل الهاتف الذي اشتراه قبل ذلك، نظر يمينًا ويسارًا ولم

يجد ما يريب ولكن لم تغب عينه التي تمسح الشارع ككاميرا حسَّاس، دقيقة للحظة واحدة، كان متنبهًا بشكلٍ مثير، فجأة ظهر رجل في نهاية الثلاثينيات يبدو إنجليزيًّا من هيأته في مواجهته وهو يبتسم ابتسامة باردة غامضة، كان يقف على الرصيف الآخر المواجه لأدهم، يشبك يديه أمامه، يرتدي بدلة سوداء مغلقة ونظارة طبّية تلمع عيناه الخضراوان من خلفها، نظر أدهم إليه نظرة طويلة قلقة لأنه تأكد أن الأمور بدأت تشتعل وما تلك إلا الإشارة الأولى.

بعد نصف دقيقة تقريبًا انتبه أدهم لرجلٍ آخر يقف إلى يمينه على بعد مترين منه يرتدي الثياب نفسها ولكنه كان أسود البشرة، كان يقف صامتًا بملامحه الجامدة الباردة التي لا تُبشِّر بخيرٍ، وإلى اليسار أيضًا كان يقف رجلان يرتديان الملابس نفسها، وقد بدا أنهما توأمان ولا يزيد عمراهما على ثلاثين عامًا، اقتربوا منه جميعًا - عدا الرجل في الجهة المقابلة له - في التوقيت نفسه حتى أصبح مُطوَّقًا بهم، ابتسم الرجل الذي كان في مواجهته على الجانب الآخر ابتسامة باردة ومخيفة وأومأ برأسه لأدهم بما يعني ألا يحاول المقاومة.

انطلق أدهم في صحبتهم دون أن يتكلموا معه حتى وصلوا إلى سيارة دفع رباعي سوداء من نوع «فورد – Ford» مركونة أمام أحد المحال في الربع الأول من شارع أكسفورد، ركب الجميع السيارة، الرجل الأسود أخذ كرسي السائق بينما ركب الرجل الذي كان في مواجهته على الكرسي المجاور له، وفي الخلف ركب أدهم رغمًا عنه في المنتصف بين الشابين التوأمين الآخرين.

وضع الشابان عصابة على عيني أدهم الذي لم يقاوم للحظة واحدة ولم يتفوَّه بكلمة، لم يتكلم أيضًا أي شخص من هؤلاء، سمع جملة واحدة جاءت من الكرسي الأمامي وتأكد فيما بعد أنها آتية من الرجل الأول الذي لمحه.

«لا تثق في النعاج فالذئاب تتقاتل لأجلها».

الفصل الثاني والاربعون

دخل أدهم بصحبة الرجال الأربعة إلى بناية قديمة من مباني لندن
.قع في الشمال الشرقي منها بعد قطع مسافة طويلة حيث أخذ الطريق
.ا لا يقل عن ساعة تقريبًا، استطاع أن يسمع صوت بابٍ كبيرٍ يُفتح وهو
.معصوب العينين كما استطاع أن يشم رائحة بخور شرقية وتأكد بعد ذلك
.أنها رائحة المسك النفاذة الرائعة والمميزة، أجلسه أحد الشابين برفقته
في هدوء حيث استطاع أن يسمع صوت خطوات مرافقيه على الأرضية
المصقولة بسيراميك له رنين خاص، حينما خلعوا عصابته من على عينيه
لم يستطع الرؤية في البداية، فرك عينيه أكثر من مرة حتى استطاع أن
يستعيد النور الذي صاحبه أيضًا صداع مؤلم هاجمه فجأة، كانت الغرفة
التي يجلس فيها كبيرة، لا يوجد بها سوى طاولة كبيرة كتلك التي تُستخدم
في الاجتماعات، ومجموعة من الكراسي الجلدية الحديثة وكان الجلد
أسود اللون، استطاع أيضًا أن يرى في مواجهة الغرفة وفي مواجهته تمامًا
لوحة كبيرة معلقة على الحائط، مرسومًا عليها «المينوراه»، أو الشمعدان
السُباعي، تعجب للحظة ثم نقل بصره حوله فوجد التوأمين يقفان على
جانبيه، وكان هناك أيضًا على الحائط الأيسر للغرفة شاشة عرض بحجم

كبير، بينما جلس الرجل في نهاية الثلاثينيات في مواجهته، «أهلًا بك سيد أدهم»، قال الرجل بلكنةٍ إنجليزيةٍ رائعةٍ، وباردةٍ أيضًا، «نعتذر عن تلك الطريقة التي أحضرناك بها إلى هنا ولكن أنت تعلم أن الأمور يجب أن تسير على هذا النهج، أعرف تمامًا أن العديد من الأسئلة يدور في خلدك لتعلم السر الحقيقي لطريقك الطويل الغامض، لو كنت مكانك لقتلني الشك أو قتلت نفسي ولكنك رجل قوي».

لم يتكلم أدهم وظل ناظرًا إليه نظرة طويلة منتظرًا الدخول في الموضوع الذي أتى به إلى هنا، بمعنى أدق في انتظار معرفة السر الذي قلب حياته، وحوَّل أجزاءً منه إلى الجحيم، وإن كان في وقت لاحق اكتشف أن أجزاءً أخرى منه تحولت إلى طريق النور، تذكر جملة من اللغز الغامض في الكتاب الذي أشعل فتيل النهاية، «سيكون العبور من الجهل إلى النور ومن الموت إلى الحياة أمرًا سهلًا».

«لكن للأسف يا سيد أدهم»، قال الرجل وهو يشير بيده، «لن أكون أنا مرشدك للنور»، انفتح الباب فجأة ودخل رجل خمسيني العمر، ذو ملامح حادة، يرتدي الكيباه، اتضح أنه الرجل نفسه الذي عارض الحكيم وغادر اجتماعهم الأخير، ابتسم ابتسامة هادئة وهو ينظر إلى أدهم واتجه إلى الكرسي في صدارة الطاولة الكبيرة وجلس بهدوء، أومأ الجميع له برؤوسهم احترامًا، بينما وقف الرجل الذي كان يتحدث منذ دقائق بجواره، تبادلا نظراتٍ ذات معنى، ثم وجَّه الرجل الخمسيني عينيه الحادتين إلى وجه أدهم، بدا له الرجل مرعبًا لسببٍ لا يعلمه رغم

ظهره العجوز وعينيه الزرقاوين الغائرتين اللتين تعكسان مكرًا يشبه د الثعالب، مما أصابه ببعض التوتر، كان طويلًا وصاحب بنية لا ن بها مقارنة بعمره، كان يرتدي زيًّا كهنوتيًّا بلون أسود يشبه ملابس حاخامات، وكانت الفكرة الأولى التي طرأت على رأس أدهم أن وضوع بأكمله أمر ديني، لم يشك للحظة في هذا الأمر من قبل، ولكنه د له بشكل قاطع الآن.

«سيد أدهم»، قال الرجل بصوت جهوري قوي، «لديك ما يخصنا».

بلع أدهم ريقه وحاول بقدر الإمكان ألا يبدو خائفًا بينما استرسل جل بعد صمت: «ولدينا أيضًا ما يخصُّك، المعادلة سهلة يا سيد هم»، وابتسم ابتسامة خبيثة، «دعنا نتبادل ممتلكاتنا في سلام دون أن تسبب في وقوع حوادث أخرى، ليغفر لنا الله خطايانا».

نظر إليه أدهم نظرة طويلة مفكرًا فيما يقوله بأكبر قدرٍ من الهدوء، ن أنتم بالتحديد يا ...»

«يمكنك أن تناديني: المُعلم»، قال الرجل بخيلاء.

تعجب أدهم من وقع الكلمة لسببٍ غامضٍ ولكنه تذكر اللغز، «لم جلب شيئًا معي»، قال أدهم، «ولن أجلب شيئًا إلا بعد أن أفهم ما يجري ».

أخذ الرجل نفسًا طويلًا قبل أن يتفوَّه بكلمة، «بعض الأمور لا يُستحب همها إن سألتني عن رأيي، أنت تدرك جيدًا مصير كل مَنْ حاول أن يفهم ان يعرف يا سيد أدهم»، ونظر في عيني أدهم نظرة متحدية.

تأكد أدهم في هذه اللحظة أنه يجلس أمام مَنْ دبَّر كل ما حدث أو هكذا اعتقد في هذه الأثناء، بينما استرسل المُعلم: «أنت لا تـ هنا القوة بأي شكل، فيمكنني بإيماءة بسيطة إنهاء حياة صديقك، يمكنني أيضًا قتلك، ولكنني لا أحب استخدام تلك الأساليب إلا لخـ الله فقط».

«وهل تعتبر نفسك أداة الله في الأرض؟!»، قال أدهم ساخرًا.

«الله دومًا يحتاج للرجال في الأرض، على مرِّ العصور كان هـ رجال يحاربون باسمه ومن أجله، أنت رجل مثقف وتعي جيدًا أقول».

«كل هذه الكلمات مجرد افتراء على الله، الله لا يحتاج لكم، أنتم تحاربون من أجل مصالحكم مدَّعين أنكم رجال الله وتتخذونه عـ لجرائمكم، الله لم يطلب سفك الدماء ثمنًا لتوطيد مكانه في الأرضـ هو وحده مَنْ يملك الحكمة في تحقيق ذلك ولسنا نحن، لسنا مخوا بميثاق رسمي منه»، نظر إليه الرجل نظرة هادئة، حيث حافظ على هد بشكل كبير، بينما تعجب أدهم نفسه من وقع كلماته التي خرجت وكأنه قديس، لم يكن يعلم السر خلف هذه الكلمات وكيف خرج منه! لكنه في وقت لاحق اكتشف حقيقة وجذر هذا الأمر.

«لكننا نملك شيئًا هامًّا يخصك وأنت تعرف ذلك»، قال المُعلم مشـ بيده للرجل بجواره، فأمسك بجهاز التحكم الخاص بشاشة العرض ضغط على زرٍّ فانفتحت، كانت الشاشة شبه مظلمة، غرفة تفاصيـ

،امنة، في منتصفها يجلس على كرسي رجل مقيد وقد بدا من بنيته أنه حسن، اقتربت الكاميرا منه، بالفعل كان حسن، في حالة يُرثى لها، بدا من وجهه أنه تعرَّض للضرب وقد وضح بشكل متشككٍ بأنه مغمى عليه بينما تلطَّخ وجهه وقميصه بالدماء وقد كان العرق يتصبب منه.

حين حاول أدهم النهوض من مجلسه غاضبًا، أجلسه الرجلان بجواره، حيث وجد أن كلًّا منهما يُشهر مسدسًا في وجهه بينما ابتسم المعلم له ابتسامة قاسية، «أرأيت يا سيد أدهم؟!»، قال المُعلم ببرود، «نحن لا نود أن نقسو عليك أكثر من ذلك، أعطنا القطع وخذ صديقك وأعدك بسم الله بأنني أبدًا لن ألحق الأذى بك».

نظر أدهم إليه نظرة طويلة، ثم نظر إلى حسن لثوانٍ وهو يشعر بغصةٍ وألمٍ وعجزٍ أيضًا في موقفه هذا، إنهم يضغطون عليه، ورغم الضعف الذي شعر به أمام ما يحدث إلا أنه وفي جزء منه كان يدرك أنهم لن يستطيعوا فعل شيء طالما أن الأبناء بحوزته.

«هل تقصد الأبناء الأربعة؟»، قال أدهم مبتسمًا بتحدٍّ.

نظر الرجل إليه مبتسمًا ابتسامة عريضة لكنها بدت منزعجة، «نعم يا سيد أدهم، الأبناء الأربعة بالتحديد هي ما أقصد».

«وماذا تخص هذه الأبناء؟!».

نظر المعلم إلى الرجل بجواره نظرة ذات معنى، فقام الرجل بالإشارة إلى التوأمين فخرجا من الغرفة، بينما بقي المعلم والرجل فقط، «ولماذا

تريد أن تعرف يا سيد أدهم؟! لن يتغير شيء لو عرفت، وكما ذكرت لل
إن معرفة بعض الأمور تعرضنا للخطر وربما للموت، ليست المعر
أمرًا محببًا في كل الأمور، بعضها يجب تجنبه وها أنت ترى بنفسك ما
كلَّفت المعرفة كل مَن اتصل بك وحاول مساعدتك!».

«لم يتبقَّ سواي ممَّن يعرفون وبالتأكيد سيكون مصيري مثلهم»، قال
أدهم ببرودٍ مُصطنع بعد أن تأكد أنهم مرتكبوا الجرائم، «كان من الممك
لكم ألا تقتلوهم ولا أعرف السبب الحقيقي خلف قتل أبرياء لم يعرفو
شيئًا ولن يعرفوا شيئًا إن كانت الحياة كتبت لهم».

«كيف يمكن التحكم في رجل خسر نفسه يا سيد أدهم؟!»، قال المعل
بهدوء، «أنت رجل صعب المراس كما نعرف، لكي نتحكم في رجل
يهدده الموت»، وابتسم ابتسامة خبيثة، «علينا أن تكون قبضتنا قوية، تلـ
المومس التركية كان الخيط الذي سيدفعك للتقدم خوفًا على سمعتك
بعدما رأيت نفسك في مشاهد مخلة وضد كل الأعراف الأخلاقية، وفي
النهاية خلَّصنا العالم من مومس تدفع بمَن هم مثلك إلى الجحيم، بيـ
فاطيم لم يكن سوى حشرة يجب دهسها، رسول الشيطان على الأرض
لقد عرف أكثر من اللازم، أما البقية فأنت مَن دفعتهم في طريقك رغـ
أنك كنت تملك القوة لعدم إيقاعهم في قدر محتوم لا هرب منه؛ لذلك
لا تلمنا نحن، أستطيع أن أقول بمنتهى الصدق إنك استطعت أن تحل
الألغاز تحت تأثير هذا الضغط الشديد ولولا ذلك ما فعلت، أنت مدين
لي بالشكر، لا تتعجب ولا تنظر إليَّ هكذا يا سيد أدهم، فلقد استطعـ

ابرئك من خطاياك، وحده الألم القادر على ذلك وأنا ببساطة الألم
الذي كنت تحتاجه، ولكن المعرفة لا أستطيع أن أقدمها على طبق من
ذهب، فالحقيقة أكبر منا جميعًا، كما أنني أيضًا لا أدري ما تنوي فعله
بمعرفتها، وعليك أن تعلم أنك لن تستطيع أن تهدد كيانًا يبلغ من العمر
ما يقارب مائة وخمسين عامًا، كل ما أستطيع أن أقوله لك إننا مجموعة
تحمي شيئًا مهمًّا، هذا جانب من اختصاصها، نحميه بأي طريقة كانت،
اعترف بأننا لم نستطع الحصول على الأبناء رغم محاولاتنا، ولقد آمن
بك بعض المهرطقين والمخبولين الذين يتصوَّرون أنهم على علمٍ
وحكمةٍ بهذا العالم واعتبروك مخلِّصًا، وهذا الأمر الأخير لا يصدقه
حتى أعتى مجنون في هذا العالم، لكنهم بصدق صدقوا قدرتك على حل
ما لم نستطع الوصول إليه، لقد حاولت كثيرًا إيقافك عمَّا تفعل لشكي
بك وفي قدرتك على ذلك، ولكن للأسف كانوا يقدمون لك المساعدة
دون أن تشعر، وفي الوقت نفسه أنت رجل محظوظ للغاية، ولا أعلم لمَ
بعض الرجال أمثالك محظوظون إلى هذا الحد؟!»، أخذ المعلم نفسًا
طويلًا، ونقل بصره إلى شاشة العرض، ثم أشار إليها بيده، «ما ذنب هذا
المسكين أن يدفع ثمن معرفتك، أعطنا الأبناء وإلا قتلته أمام عينيك».

نهض أدهم من مكانه، «لن تحصل على شيء إلا عندما أعرف كل شيء يتعلَّق بهؤلاء الأبناء، لن تستطيعوا قتل حسن لأنني في موقف أقوى منكم».

«أنت مخطئ يا سيد أدهم»، قال الرجل بنبرة قاسية وباردة، «مخطر جدًا وقد أسأت تقديرنا حتى هذه اللحظة وهذا يتعارض تمامًا مع شخصك الذكي ولكنه يتناسب مع غطرستك وغرورك، سأطلبها للمرة الأخيرة، أعطنا الأبناء الآن»، أنهى كلماته بلهجة صارمة.

نقل أدهم بصره بين المعلم والشاشة التي تعرض المأساة التي يعيشها حسن في هذه اللحظة، الكثير من الأفكار تدب في رأسه، كان مشوشًا، يشعر بالاختناق والخوف الشديدين، يكاد يسمع دقات قلبه المتسارعة. «لا أملكها»، قال أدهم بعِناد، «ليست معي».

نظر الرجل إليه نظرة طويلة باردة ثم ابتسم في النهاية، «وهو كذلك، أعدك بأنك لن تنساها مرة أخرى، لن تنساها على الإطلاق»، ثم نقل بصره بين الشاشة وأدهم بنظرة مخيفة.

حينها نظر أدهم إلى الشاشة التي وقف فيها رجل يرتدي زي الرهبان، وأطلق النار على كتف حسن ليصرخ من الألم ويتلوّى في مكانه على الكرسي المقيد به، صرخ أدهم: «حسن»، نظر بغضبٍ إلى الشاشة ثم نقل بصره إلى المعلم وحين حاول التحرك لمهاجمته هوى على رأسه شيء ثقيل من الخلف فأفقده وعيه.

أفقده وعيه تمامًا.

الفصل الثالث والاربعون

كان الليل والهدوء يخيمان على الشارع في هذا التوقيت المتأخر، وضع أدهم يده على رأسه الثقيل وهو يحاول النهوض، في البداية حاول اكتشاف ما حدث له، تذكر ما حدث في الثواني التي سبقت غيابه عن الوعي، ثم همس باسم حسن مفزوعًا وهو ينهض من مكانه، وجد نفسه في أحد شوارع لندن، قابعًا بجانب صندوق كبير للقمامة في أحد الجوانب، نظر في ساعته فوجدها الثانية والثلث تقريبًا، استدار حول نفسه بعصبية يستكشف المكان بخوفٍ، أخذ نفسًا طويلًا، شعر باختناق شديد، حاول بقدر الإمكان الخروج من حالته العصبية وقتل ذلك الصداع الذي يدك رأسه بشكلٍ محمومٍ، ورغم جهده الكبير في الحصول على إجابات إلا أنه لم يستطع الوصول إلى إجابة واحدة، دسَّ يديه في جيوب سترته لشعوره بالبرد وهو يسير مترنحًا، فوجد هاتفًا ملفوفًا في ورقة، أخرجهما ناظرًا لهما بتعجب وتساؤل، فتح الورقة بهدوء محاولًا القراءة، بعد محاولات من محاربة الصداع استطاع أن يقرأ ما كتب بها: «سيد أدهم.. لديك فرصة أخيرة، سنكون على اتصال بك، أرجوك لا تفقد هاتفك مرة أخرى، دعنا نتواصل حتى لا تخسر كل اتصال بالحياة».

مشى أدهم بخطوات هادئة وهو ينقل بصره من وقت لآخر
الهاتف بنظرات طويلة مفكرة، لم يكن يدري ما عليه فعله لكنه تمنى
أن الأرض تبتلعه، اليأس والحزن يطوّقانه من كل جانب، أدرك أنه
رغم كل شيء في الاتجاه الصحيح لأنهم لم يقتلوه، ولإدراكه أيضًا أ
لا يسعون فقط للأبناء الأربعة، بل لشيء آخر وإلا فإن الأمر سهل للغ
هناك حلقة مفقودة، لم تكن المقابلة سوى تعبير عن مدى مقدر
وقوتهم، ولكنه رغم ذلك أيقن بحقيقة أخرى هي أنهم لن يتوانوا عن
حسن بل وقتله هو أيضًا في النهاية حينما يحصلون على كل شيء.

ركب أكثر من سيارة أجرة حتى اطمأن إلى أن أحدًا لا يراقبه،
في أحد مواقف القطارات ثم فتح خزانة ما، أخذ منها كيسًا كبيرًا و
يتلفت حوله بحذر وترقب، اتجه إلى الحمام وقام بتغيير ملابسه وارتد
الباروكة، ثم ركب سيارة أجرة أخرى، في النهاية وصل إلى المنز
مترنحًا من التعب، كانت هيأته يرثى لها، شعرت ليلى القلقة بالرع
بمجرد رؤيته، هرولت تجاهه مندفعة بمجرد أن تأكدت من أنه هو،
ينسَ أدهم أن يعطيها آخر شيء قبل ذهابه في رحلته المجهولة، مسدس
إنجليزي صغير محشو بسبع رصاصات، «عليكِ أن تستخدميه إن تطلّب
الأمر ذلك، لا ترددي للحظة واحدة، فالنهايات لا تستأذن، كوني واثق
من ذلك».

جلس على الأرض وهو ينظر إليها ولم يكن يدري ماذا عليه أن يقول،
العديد من الأسئلة لم تكن تحمل إجابة، أفزعه عدم قدرته على الحصول

على إجابة واحدة مما سعى إليها، ماذا إن سلمتهم الأبناء؟! هل سينتهي
كل شيء؟! هل سيتركونني لحالي؟! هذا أمر مشكوك فيه تمامًا، بالنسبة
لهم لم أكن سوى الطريقة المثلى لتحقيق غايتهم وفي النهاية سيقتلون
من كل شيء قبل الإجهاز عليَّ، لماذا لم يخبرني عن هؤلاء الأبناء؟!
هل الأمر سري لهذه الدرجة؟! أي جماعة تلك التي يبلغ عمرها مائة
وخمسين عامًا؟! لم يعرف أدهم أن يجيب عن سؤال واحد ولكن بقي
السؤال الأهم: مَن يكون تحديدًا إسحاق إلياكيم؟! وهل سيكون له دور
في هذه الأحداث أم أنه مجرد لغز آخر أيضًا سيفتح له بابًا آخر من أبواب
الجحيم؟!

في الحقيقة لم يكن أدهم يدرك أن هناك شيئًا ينتظره سيقلب كل
شيء.

الفصل الرابع والاربعون

وقف أدهم في المكان المحدد الذي أخبرته به إليسا متبعًا التعليمات التي نبه عليها إسحاق إلياكيم بنفسه، نظر نظرة طويلة للهاتف الذي أعطاه له المُعلم، تذكر ذلك المشهد المخيف حينما اخترقت الرصاصة حسن المسكين الذي لا ذنب له سوى أنه صديقه، هزَّ رأسه باعدًا تلك الأفكار الخبيثة المؤلمة، نظر في ساعته فوجدها تشير إلى الثامنة والنصف صباحًا بالضبط، نظر حوله فلم يجد شيئًا غريبًا ولكن سرعان ما مرَّ رجل بجواره مصطدمًا به بقوة فتأسف سريعًا، «آسف لم أقصد، يبدو أنني على عجلة من أمري وهذا يعرضني دائمًا للإحراج كما ترى»، ثم تحولت ملامحه إلى الجدية، «اذهب إلى نهاية الشارع، هناك ستجد سيارة سوداء نوع بي إم دبليو، المفتاح في جيب سترتك، داخل السيارة ستجد جهاز الـGPS، سنجد النقطة التي ستقودك إلى حيث يجب أن تكون، لا تتبع الطريق المباشر».

ذُهل أدهم للحظة ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة، قبل أن ينطلق في طريقه بهدوءٍ بمظهره التنكري حتى وصل إلى نهاية الشارع ليجد السيارة في مكانها كما أخبره الرجل، دسَّ يده في جيب سترته فوجد المفتاح، دلف

إلى السيارة، كان المحرك يعمل وجهاز الـ GPS يشير إلى مكان ما في وسط لندن، انطلق في طريقه متخذًا بعض الطرق الأخرى رغم أنه كان قادرًا على الوصول بسهولة ولكنه اتبع التعليمات، لم يفكر كثيرًا في الأمر ولكنه تأكد من أنه أحد مندوبي إسحاق إلياكيم، تأكد أيضًا من أنه متورط في مؤامرة كبيرة لن تنتهي بخير، ندم لبرهة على كل خطوة تمت منذ البداية ولكنه أخذ نفسًا عميقًا، تذكر تلك الجملة التي كتبها يومًا في إحدى رواياته: «لا شيء يمكن الندم عليه طالما فعلناه، وما فعلناه يمثل جزءًا منا».

وصل إلى المكان المطلوب ووقف منتظرًا أي علامة تقوده إلى مبتغاه، حينها مر بجواره رجل ضخم وسط الزحام، «البناية التالية»، قال الرجل دون أن ينظر إليه، «الدور الثامن عشر».

دلف أدهم إلى البناية التالية، وصل إلى الدور الثامن عشر وهو يشعر بالخوف والترقب، لم يكن هناك شيء غير عادي لأنه بعد دقيقة تقريبًا تم دفعه إلى داخل شقة كبيرة تصدح بالرقي والأنتيكات التي لم ير لها مثيلًا طوال حياته الزاخرة بالأحداث، أومأ له رجل عجوز بعد أن استدار حيث كان يجلس بالقرب من مدفأة معطيًا ظهره له، «تفضل أيها الأديب الذكي»، قال العجوز بصوته الدافئ الذي يحمل الحكمة، «تعالَ إلى هنا وانعم بالدفء الذي وهبنا الله».

نظر أدهم حوله ولم يجد ما يريب، فكر للحظة أن يعود من حيث جاء، ولكن بعد ثوانٍ من التردد اقترب وهو ينظر إليه نظرة متأملة طويلة،

كان الرجل قصير القامة، حليق اللحية، ذا عينين زرقاوين غائرتين، أصلعًا تمامًا، يبدو رأسه لامعًا بشكلٍ مثيرٍ مع انعكاس ضوء النار عليه في تلك الغرفة التي شابها الظلام، مقوسًا قليلًا، له بشرة خمرية تضفي عليه نوعًا من الرهبة الغريبة، يرتدي بدلة بنية اللون، صوفية قديمة تعود إلى خمسينيات القرن، يلف رقبته بوشاحٍ له لون بني مميز، وكانت هناك موسيقى كلاسيكية تعزف، الموسيقى هادئة ودافئة كهدوء الغرفة التي تغط في الهدوء والسكينة، شعر أدهم للحظة بأنه داخل معبدٍ ما حيث كانت هناك رهبة وسكينة تغلفانه في هذا التوقيت، لم يقل شيئًا، «إنه العظيم شوبارت يا سيد أدهم»، قال العجوز بنبرة هادئة، «من العظماء الذين عزفوا على أرواحنا، لا أتصور أنهم موهوبون ولكنهم ملائكة جاءوا لمساعدتنا ولتوصيل رسالة إلهية من خلال الموسيقى»، ابتسم وهو ينظر إلى أدهم، «إنها الحقيقة ولكننا للأسف ننكر الحقيقة دائمًا».

ابتسم أدهم ابتسامة باهتة وهو ينظر إليه مترقبًا، «لا تخف يا سيد أدهم»، قال العجوز، «أنا إسحاق إلياكيم، يطلقون عليَّ الحكيم ولكنني ضد هذا التعريف تمامًا، فلا أحد يملك الحكمة، وحده الله مَنْ يملكها، ولكننا قد نصل أحيانًا إلى الظلال التي تنقذنا من حرارة غبائنا وطيشنا وهذا كل شيء، بالتأكيد تتساءل لمَ أنت هنا؟! ولمَ أحضرناك بهذه الطريقة؟! السؤال الأول سأجيبك عنه لاحقًا، وأما عن إجابة السؤال الأخير فهي بسيطة»، صمت للحظة، «لأنني في الحقيقة لم أملك طريقًا آخر».

«أعتقد أنك أحضرتني بطريقةٍ لائقةٍ تمامًا»، قال أدهم مبتسمًا ابتسامة مريرة، «هناك طرق أخرى صدقني لا تتناسب مع البشر وكن متأكدًا أنني جرَّبتها».

«أعلم»، قال الحكيم بثقة وهو ينهض من مكانه، «أعلم يا سيد أدهم كل شيء، الآن اتبعني بعد إذنك، فالأمر لن يتطلب وقتًا طويلًا».

دلفا إلى غرفة مكتب هادئة تغط في الظلام، لم يستطع أدهم أن يرى منها الكثير سوى المكتب الفاخر الذي يوجد خلفه كرسي وثير لا يليق سوى بالحكام أو رؤساء الدول، ذلك الكرسي هو نفسه الذي كان يجلس عليه العبد العظيم أو الحكيم كما ذكرنا سابقًا، بينما جلس أدهم على أحد الكرسيين المواجهين للمكتب وفي مقابل السيد إسحاق، «سيد أدهم، لن أطيل عليك»، قال الحكيم، «أنا رئيس جماعة قد تكون معروفة لك وتجلس في منزلي المعروف ببيت إيل، نحن جماعة يعود عهدها إلى مائة وخمسين عامًا، قد تكون خلال رحلتك عرفت عنها بعض المعلومات، لكنها ليست كما تدرك، لقد حدثت انشقاقات كبيرة في جماعتنا على فترات متفرقة، لكنها في النهاية تحسب انشقاقات علينا، من ضمن وظائفنا أن نحمي شيئًا مهمًّا للغاية، أتدرك ما هو سيد أدهم؟!»، هزَّ أدهم رأسه بالنفي دون أن يتفوَّه.

«هذا الشيء إن ظهر للعالم سيقلب الأمور وستقوم الحروب بسببه، أعتقد أنك قرأت هذا الجزء من اللغز الذي أوصلك إلى هنا والذي يقول: سيكون العبور من الجهل إلى النور ومن الموت إلى الحياة أمرًا سهلًا،

لكنه النور الذي سيلطخ الشوارع بالدماء، سيرمل النساء، سيتم الأبناء، سيجعل الكره والحقد شعارًا لا استغناء عنه، إنه الميثاق الوحيد على الجريمة التي جعلت من البشر آلهة»، قال الحكيم بنبرة محذرة حزينة، «الحرب التي ستقوم باسم الدين والواجب المقدس، لكننا في الحقيقة لا نؤمن بهذه الحروب ونلعنها ولا نستطيع التبرؤ منها أيضًا لأن هناك رجالًا عموا عن الحقيقة وتجرّدوا من إنسانيتهم فأفقدوا العالم توازنه كما حدث في عصور الظلام، إن العالم يغلي يا سيد أدهم، أنت تدرك ذلك، المسيحيون ضد اليهود والمسلمون ضد اليهود واليهود ضد الجميع، حلقة يقودها مجانين من أجل مصالح عالمية في النهاية يذهب ضحيتها الأبرياء والمساكين».

ابتسم الحكيم، ثم نهض من مجلسه، فتح خزانة صغيرة على جانب المكتب الأيمن وأخرج «سبرتاية»، أثار المشهد أدهم كثيرًا، أخرج فنجانين قهوة مصنوعين من الفضة ثم قام بإشعال النار ووضع «كنكة» صغيرة عليها، كانت ممتلئة بالماء مسبقًا، ووضع ملاعق من البن من علبة صغيرة بجواره على المكتب، «أعشق القهوة العربية»، قال الحكيم مبتسمًا بعذوبة، «لها مذاق مختلف، أحضرها خصيصًا من عمّان وأحيانًا من سوريا التي تدمرت باسم الواجب المقدس أيضًا، ألا ترى يا سيد أدهم أن العالم يفور كالقهوة؟!».

«لكن أنا لا أفهم شيئًا مما ...»، قال أدهم.

«ستفهم كل شيء ونحن نشرب القهوة»، قال الحكيم مشيرًا بيده، «لا تتعجَّل يا سيد أدهم، دعني أقص عليك حكاية صغيرة ونحن في انتظار قهوتنا»، أخذ نفسًا طويلًا وعاد للخلف قليلًا، «هناك رجال يدفعون الثمن على مر الحياة يا سيد أدهم حتى بعد موتهم وأنت بالتأكيد تعرف قصة اليهودي التائه، مَنْ منَّا في الحياة ليس تائهًا؟! كلنا تائهون ولكن هناك مَنْ يبحث عن الطريق وهناك مَن ضلَّ عنه، وهناك أيضًا من توقف عن البحث ولكنه لم يتوقف فقط بل يريد أن يُرغم الجميع على التوقف، اليأس الإنساني الذي جعل من البعض ناجحين ومن البعض الآخر أعداءً لذلك النجاح، هناك أيضًا الذين سقطوا من على حافة العالم فأصبحوا موتى، إن دقَّقت النظر في الأمر ستجد أننا جميعًا تائهون يا سيد أدهم، حتى الناجحون منا، أنت هنا أكبر دليل على ذلك، رجل ناجح يبحث عن المجهول الذي قاده إلى هذه النقطة، أليس هذا غريبًا؟! أليست الحياة برمتها غريبة؟! هي بالفعل كذلك، ولكن الله وحده يعلم السر، لكن هناك معرفة يكون ثمنها غاليًا جدًّا، تغلي الأحداث وتغلي حتى تفور لنحصد النتيجة»، حينها فارت القهوة فابتسم الحكيم وهو ينقل بصره ما بين القهوة وأدهم، «لكن كما ترى، يجب أن تغلي بعض الأشياء وتفور لتحصل في النهاية على كمالها وشكلها الواضح الصريح»، صبَّ فنجاني القهوة، «وأنت الآن في مرحلة الغليان يا سيد أدهم، لا تلعن قدميك اللتين قادتاك إلى ما أنت عليه؛ لأنك في النهاية ستدرك حقيقة كل ما حدث لتنام داخل الأبدية في سلام»، أخذ نفسًا عميقًا بعد رشفة من القهوة، «والآن دعني أخبرك القصة».

«لقد اتفق الجميع على جريمة بشعة، الرومان واليهود، نعم أنا يهودي وأعترف بتلك الخطيئة التي حوَّلت شكل العالم يا سيد أدهم، لقد صلبوا المسيح لأسباب تخصهم، لا يهمني ما تراه العقائد المختلفة عن حادثة الصلب فنحن أمام جريمة إنسانية اعترفت بها كل الأديان وكل كتب التاريخ واتفقوا عليها مع اختلاف المسميات»، صمت لثوانٍ، «لقد دُفع الثمن أكثر من مرة خلال كل المذابح التي أُقيمت لليهود، لكنهم للأسف لم يتعلَّموا من خطيئتهم فذبحوا ونكَّلوا هم أيضًا بطرقٍ مختلفة، والآن الجميع يدفع الثمن داخل حلقة دموية لا تنتهي ولكن دعنا نعُد لقصتنا التي تحكي عن أيام الفتك المسيحي المريع باليهود، حينما أقاموا مذبحة لهم في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي في غمرة الاحتفال بعودة الصليب المقدس: الصلبوت، إلى مكانه بإيلياء، القدس، بعدما كان الفرس انتزعوه زمنًا، ثم أعاده الإمبراطور هرقل بعد انتصاره على الفرس، ولا يُعتقد بالصليب المقدس أو الصلبوت، إلا قطعة من الخشب كان يُعتقد أنها بقيت من الصليب الذي علَّق عليه الرومان السيد المسيح، وتبدأ الحكاية بالضبط حينما عثرت عليه هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين الكبير بعدما دلَّها عليه بعض العامة في إيلياء، فأقامت عليه كنيسة القيامة في الربع الأول من القرن الرابع، ثم وضعت قطعة الخشب في صندوقٍ ظلَّ محفوظًا هناك حتى انتزعه الفرس في بداية القرن السابع الميلادي، ثم أعاده هرقل كما ذكرت لك، وبعدها اختفى الصليب المقدس تمامًا، وقد أقيمت هذه المذبحة لليهود عقابًا لهم على مساعدتهم للفرس، ويُقال إنه كان هناك أيضًا كل الوثائق التي

تحوي التأريخ الحقيقي والدقيق لكل مَن اشترك في هذه الجريمة البشعة خلال تلك الفترة، صلب المسيح».

صمت الحكيم قليلًا وهو ينظر بهدوءٍ أمامه شاردًا، «سيد أدهم، إن الصلبوت موجود في مكان ما من هذا العالم، كذلك الوثائق التي تشير إلى كل مَن شارك في هذه الجريمة التي رفضها التاريخ والتي كانت سببًا أيضًا في جعل المسيح خلاصًا للعالم، حيث أصبح المسيح فداءً للإنسانية، بل وتحوَّل لإلهٍ أيضًا كما يقول اللغز: إنه الميثاق الوحيد على الجريمة التي جعلت من البشر آلهة. لقد أصبح كما قلت لك فداءً للإنسانية كلها بعدما كان مُرسلًا لخراف بني إسرائيل، وهو الذي قال بحسب إنجيل متَّى: لم أرسل إلا لخراف بني إسرائيل. ببساطة كل البشر في هذا الوقت كانت تحتاج للخلاص، العالم آنذاك كان قاتمًا يا سيد أدهم، فساد الحكم الروماني كان مهولًا لا يتحمَّله أحد، فالفقراء يكدحون دون توقف ودون مقابل أيضًا، والصالحون يُحارَبون ويتم التنكيل بهم، لقد سقط العالم في فوهةٍ من الجحيم»، ابتسم ابتسامة مريرة وقد صمت لثوانٍ، «الآن وقد عرفت القصة كاملة، ألم تدرك بعد معنى الأبناء الأربعة؟! وإلى ماذا يرمزون يا سيد أدهم؟!»

نظر أدهم إليه طويلًا محاولًا التركيز بقدر الإمكان، مفكرًا في كل كلمة قالها الحكيم، شرب القهوة ووضع الفنجان وهو ينظر أمامه نظرة شاردة متأملة، «هل يتعلَّق الأبناء الأربعة بالصَّلبوت والوثائق المخفية؟!»

أشار الرجل بسبابته بشيء من الحماس، «نعم، نعم يا سيد أدهم، هو كذلك، لقد صنعها مَن أخفوا الصلبوت، وهي جماعة ورثت مع الوقت سرهم الذي ظل مدفونًا منذ القرن السابع الميلادي، لقد رسموا كل شيء بدقة مؤمنين بقضيتهم، لقد آمنوا بأن وجود الصلبوت وتلك الوثائق هي علامة ودليل لا يقبل الشك على جريمة لن ينساها التاريخ ولن يغفرها أحد، هدأت الأمور بعد ذلك لكن كانت تثور من وقتٍ لآخر ثم سرعان ما تهدأ حتى قامت الحرب العالمية الثانية التي ذهب ضحيتها الملايين من الضحايا وتحديدًا اليهود الذين أقام لهم هتلر مذابح لا تقبلها الأعراف الإنسانية ولا الدينية، لا اليهودية ولا المسيحية ولا الإسلامية، لا يمكن تبرير الجرائم بجرائم أخرى يا سيد أدهم، إن المجانين والمجرمين والمهووسين بالحروب والقتل دومًا على استعداد تام لتعزيز نظرية الخلاص من كل شيء يهددهم، إن القلوب المتحجرة لا تعمر بالإيمان، على الجانب الآخر هناك أناس تؤهل لهم أماكنهم استغلال كل ذلك لمصلحتهم الشخصية ولقلب العالم رأسًا على عقب كلما أرادوا أو أرادت مصالحهم»، أخذ نفسًا طويلًا وهو ينهض من مكانه واقفًا في مواجهة الشرفة المغلقة ثم فتحها بهدوء.

«وصلت هذه الأشياء لنا، أصبحنا جماعة تحمي الصلبوت والوثائق ولكن سيد أدهم هناك دائمًا شيء ناقص»، وضحك ضحكة ساخرة خافتة، «من ورَّثونا هذا الأمر كانوا على حكمة كبيرة؛ لذلك أخفوا كل شيء داخل طلاسم حتى يصعب الوصول إليها، إن القطع الأربع ترمز إلى

الأناجيل الأربعة، وإن دققت النظر سترى أنها كانت موجودة في سيناء وهي الأرض المقدسة التي كلَّم فيها موسى ربه وهرع إليها عيسى حينما هرعت إليها السيدة مريم خوفًا من فتك اليهود، وإسطنبول تعني القوة وحضارة المحاربين، وباريس تعني النور وروما تعني الحب، أرأيت يا سيد أدهم أنهم كانوا أكثر حكمة منا؟! ماذا يمكن أن يكون أجمل من ذلك؟!»، استدار لأدهم وهو يربِّت كتفه ثم وقف في مواجهته، «لقد انتقلت الأبناء تباعًا عبر الزمن من شخصٍ إلى شخصٍ، وهناك العديد من الفنانين المشهورين الذين آمنوا بهذه القضية وأخذوها على عاتقهم ونحن لسنا جماعة قديمة كتلك الجماعات التي يعود عمرها إلى أكثر من ألف عام، ولكن كنا قادرين على حماية هذا السر، نتابعه من بعيد، نحميه دون الاقتراب ولم نكن نملك سوى الابن المحارب في إسطنبول الذي كان اختبارًا منا لك، وقد وفقت فيه وحصلت على الأوراق التي تحمل اللغز أيضًا، وهذا لم يكن مهمًّا لأنك تعرفه من قبل ذلك، أما الرسالة الإلكترونية التي توجد بها خريطة فهي ليست مهمَّة كما تعتقد، ليست أكثر من أماكن نقوم فيها بعقد الاجتماعات المهمة لنا ولا تنسَ أنها أيضًا كانت مخاطرة كبيرة لأخبرك بها لأن بها أماكن لاجتماعاتنا السرية التي لا يعرف عنها أحد، ولكن لا أعتقد أن ذلك الأمر يهمك، المهم الآن أنك حينما ظهرت يا سيد أدهم وقررت القيام برحلتك كنت مُراقبًا، إن الشيخ غانم هو أحد هؤلاء الحماة وتأكد لي بعد محادثة معه أن السر لن يبقى سرًّا طويلًا طالما أن هناك مَنْ يريد استعادته ولا أعرف ماذا ينوي إن حصل عليه!»

«سيد أدهم»، قال الحكيم وهو يجلس مرة أخرى على الكرسي، «أكبر خطر علينا كان عدم معرفتنا بالمكان الحقيقي الذي يخبئ فيه الحماة بقية الأبناء، القداسة والنور والحب، والجهل سيف قاطع لا يرحم صاحبه تحت أي مبرر؛ لذلك كنا في الظلام نتابع عن كثب وطالما أن الأمور تسير بشكلٍ طبيعي فلا مشكلة، بعدها جئت أنت فاتفقنا على أن نساعدك إن كنت قادرًا بالفعل على استعادة بقية الأبناء، ثم اتفقنا على أن نحفظها في مكان واحد حتى يتسنى لنا حمايتها بالمعنى الحقيقي لكلمة الحماية، وأن تكون الأبناء تحت أعيننا، لكن حينما تطور الأمر سألت نفسي سؤالًا»، نظر أدهم إليه بعينين منتبهتين.

«لمَ الآن فقط ظهر مَن استطاع أن يفك الرموز ويحصل على الأبناء؟! مع كل خطوة كنت تقوم بها كنت أتعجب، فلقد حاولنا كثيرًا عن طريق بعض المتمردين والمنشقين الحصول عليها ولكن كلها محاولات باءت بالفشل مثل رجل الأعمال المغربي الذي تصوَّر أنه مخلِّص لنا لكنه في النهاية استحق نهايته، وأيضًا الخوف سيد أدهم الذي دفعنا أحيانًا للتصويت على الحصول عليها مهما كان الثمن ولكن في النهاية أدركنا أننا مخطئون وعلينا تقبُّل الأمر الواقع وأن نتصرف طبقًا له، في الحقيقة يا سيد أدهم المخلِّص لا يختار مكانه، ولكن القدر مَن يختاره، وهذا ما حدث معك، قد تتصور أنك أردت شيئًا ولكن في عمق الأمر وإن فكرت قليلًا ستجد أن القدر هو مَن اختارك»، صمت لثوانٍ ثم قال: «لذلك لن أتدخل في أي شيء ولكنني سأساعدك حتى النهاية، الله وحده مَن يملك

الحكمة، الحكمة من وجودك وظهورك، لن أستطيع منع ما أراده الله، إن كان مكتوبًا لكل شيء أن يظهر فليظهر ونتخلَّص من خطايانا ومن إخفاء جريمة دُفع ثمنها، ولكن تذكر إن كان هناك مَن أخطأوا قديمًا فليس علينا أن نُحمِّل العالم تبعات خطاياهم، وكما يقول اللغز: لكنه النور الذي سيلطخ الشوارع بالدماء، سيرمل النساء، سييتم الأبناء، سيجعل الكره والحقد شعارًا لا استغناء عنه. إنه نور ظالم يا سيد أدهم كما ترى، سيحول العالم إلى مذبحة كبيرة، والحقد سيكون عنوانًا لكل شيء»، صمت قليلًا بعد أن تنهَّد تنهيدة عميقة، «أنت تملك المفتاح الآن، ولكنك لا تعرف مَن هو الأب كما ذُكر في اللغز الذي قرأته»، وابتسم وظل ناظرًا إلى أدهم لثوانٍ، وحينما وجده حائرًا قال: «إنها المخطوطة»، صمت لحظة، «التي توضح مكان الصلبوت والوثائق يا سيد أدهم، أنا بنفسي لا أعرف مكانها وجُلّ ما أعرفه أنها موجودة هنا في لندن، في مكانٍ ما مختبئة في الظلام تنتظر مَن يعثر عليها، إن كنت أنت المخلِّص بالفعل بمعنى الخلاص في حالتك، فستعثر عليها».

«وكيف يمكنني العثور عليها وأنا لا أملك أية معلومات؟!»، قال أدهم بترقبٍ.

«إن مؤسس مجموعتنا هو تشارلز راسل المفكر الرائع، لقد كتب مجموعة كتب تحمل اسم فجر الألفية».

«وهذا اسم جماعتكم».

«كان ذلك اسمها قديمًا يا سيد أدهم»، قال الحكيم مبتسمًا، «تأكد لدينا أنه كتب شيئًا عن هذا الأمر وأخفاه، بمعنى أدق المخطوطة، فهو

الأب الروحي لنا في النهاية وهناك بعض الأقاويل التي تقول إنه يملكها، ولقد بحثنا عنها بالفعل ولكن بلا جدوى، بصدقٍ لا أحد يعرف الحقيقة كاملة لكن في النهاية هذا كل ما أستطيع أن أقدمه لك».

صمت أدهم للحظات مفكرًا، «لماذا تترك كل شيء في يدي رغم أنك تعرف أنني وبدرجة كبيرة سأبوح بهذا السر للعالم كله؟!»

«لأنني لا أملك الحكمة الكافية»، قال الحكيم بهدوءٍ، «إن كان مكتوبًا لها أن تظهر بإرداتك أو بدونها ستظهر، وإن كان مكتوبًا لها ألا تظهر فلن تظهر أبدًا مهما فعلنا، كما قلت لك الله وحده مَن يملك تلك الحكمة، أنا لا أتبع سوى إيماني يا سيد أدهم إيماني لا يخبرني بشيء آخر سوى أن أنتظر».

«ولكن أنتم تريدون إزالة المسجد الأقصى؟!»، قال أدهم بعد تفكير، «تريدون إقامة هيكل سليمان المزعوم من جديد، إنها إحدى الغايات التي تهدف إليها جماعتكم».

ابتسم الحكيم قبل أن يرد: «سيد أدهم، نحن نؤمن بعودة المسيح كما تؤمنون أنتم أيضًا، ألستم تقولون دائمًا إنه سينزل ليحارب المسيخ الدجال كما ذكر في تراثكم ومعتقداتكم، ونحن نعمل من أجل عودة السيد المسيح، وإن كان مشروطًا أن يعود بإزالة المسجد الأقصى فهذا سيُكلِّف العالم مزيدًا من الضحايا وأعتقد أن الله لن يسمح بذلك، وإن كان ظهور السيد المسيح ضروريًّا فالله وحده يعلم متى وأين وكيف سيظهر السيد المسيح»، ثم ابتسم، «عليك أن تدرك أنني رجل صاحب

إيمانات خاصة قد تتنافى مع بعض المفاهيم العامة للجماعة، ولكن هذا لا يمنعني من إبدائها، وفي النهاية الكلمة للجميع وليست لي، وهناك شيء آخر مهم يا سيد أدهم وأدرك تمامًا أنك على علم به، إن كنت أريد قتلك لقتلتك بالفعل وهذا أمر سهل، ما أسهل أن نرتكب الخطايا وما أصعب العودة والتوبة، كان يمكننا أن نحصل على الأبناء الأربعة بمجرد حصولك عليها، لمَ انتظرنا؟! ألم تسأل نفسك؟! لماذا تم خطف صديقك من جهة أخرى تمرَّدت وانشقت؟! ألم تعِ بعد أن الفارق كبير؟! كما أنك لو فكرت قليلًا ستجد أن ظهور تلك الحقيقة سيساعدنا حسب المفاهيم التي ينشرها عنا إعلامكم، والتي بالتأكيد تصدقها ولكن لا تعنيني الفكرة التي كوَّنتها عنا لكنني هنا أمامك دون إعلام، دون أفكار ملفقة، دون تاريخ مزيف، ودون أي شيء، رجل لرجل وفكر لفكر، والحكم في النهاية لك».

«ببساطة تامة أيها الحكيم»، قال أدهم، «أنتم لا تريدون ظهور الصلبوت للعالم لأنه ببساطة سيثبت كذب وتيه عقيدتكم التي تقول إن المسيح لم يُصلب على صليب ولكن على خشبة أو عمود، مستند رسمي كهذا مع وثائق تحكي بمصداقية ما حدث تنسف كل ما ترمي إليه عقيدتكم، أليس كذلك؟!»، أنهى كلماته بتحدٍّ.

لم يقل الحكيم شيئًا ولكنه ابتسم ابتسامة هادئة في وجه أدهم، «هل تعتقد يا سيد أدهم إن ظهر الصلبوت للعالم سيتغير شيء أو سيؤثر في عقيدة البشر؟!»

«بالطبع»، قال أدهم.

«أنت مخطئ بكل أسف»، قال الحكيم وهو يشير بيده، «نحن البشر نقف ضد كل ما يخالف إيماننا وأعرافنا حتى وإن كان صحيحًا، ولكننا نقول إنه ليس هناك ما يدعو إلى زعزعة إيمان بعض المتشككين أكثر مما هم عليه، ليس هناك ما يدعو لذلك على الإطلاق يا سيد أدهم، وكما قلت، الحكم في النهاية لك».

«وصديقي حسن؟!»، قال أدهم.

«سنفعل كل ما في وسعنا يا سيد أدهم»، أجاب بعد أن ظهر على ملامحه الضيق، «ليهدِ الله كل مَن أساءوا لك طوال مشوارك، نحن لم نقتل يا سيد أدهم ولكن كما قلت لك إنهم المنشقون والمتمردون، هؤلاء مَن يظنون أن الله أرسلهم لحماية العالم هم السبب في سقوطه».

وقف أدهم لثوانٍ وهو ينظر إلى الحكيم الذي كان مبتسمًا ابتسامة هادئة، أومأ له برأسه ثم وقف على الباب ونظر إليه نظرة أخيرة قبل أن يغادر، لم يكن أدهم قادرًا على تصديق كل شيء ولكن في جزء منه كان يؤمن بأن الرجل يقول الحقيقة ولا شيء سواها.

الفصل الخامس والاربعون

حينما عاد أدهم إلى ليلى قصَّ عليها كل ما حدث معه بالتفصيل وكل ما ذكره له إسحاق إلياكيم عن جماعته، وتأكد لليلى كل ما كانت تفكر به، فلا توجد جماعة على مرِّ التاريخ مجردة من الأفعال المخزية ولا توجد جماعة أيضًا وإلا ستجد أن الحروب التي تُلاحقها تشوهها، ولكن بعض هذه التشوهات مستحقة، فالجرائم تُبرَّر باسم المصلحة العليا، والدماء تُسفك باسم الواجب المقدس، والتاريخ أيضًا يُحرَّف باسم المصلحة العليا التي يفرضها المُضلِّلون والمغرورون، والتضليل في النهاية هو وجهة نظر المجرم، والمجرم في حالتنا هذه هو دومًا المنتصر، ولكن لا يوجد في معركة الحياة منتصر، ولا يوجد أيضًا مهزوم، فلا المكسب يعني الانتصار ولا الخسارة تعني الهزيمة، إن معركة الحياة معركة دائمة، لا تموت ولكنها تُميت وهذه هي الحقيقة الثابتة التي يُنكرها الجميع.

فكَّرت ليلى طويلًا في كل ما يفكر فيه أدهم وكيفية الحصول على تلك المخطوطة «الأب»؛ لأنهما في النهاية توصَّلا إلى أن امتلاكه إما سينقذهما أو سيجلب لهما الهلاك، ولكن ليلى وأدهم شخصان لا يقبلان الهزيمة، والهزيمة هنا تعني الموت ولا يوجد دافع في الحياة أكبر

وأعظم من مواجهة الموت، كما أن الموضوع بالنسبة لليلى أصبح مختلفًا تمامًا، فلقد أصبحت أمام حدثٍ تاريخيٍّ نادرٍ لو عاشت عمرها بأكمله لتعيشه مرة أخرى ربما لن يحدث، في الحقيقة لن يحدث بكل تأكيد، حدث لن يتكرر ثانية، الصليب المقدس والوثائق الرسمية التي قصَّت لنا حكاية صلب السيد المسيح كما حدثت، الأشخاص المتورطون، المخلِّصون، تلك الأحاسيس التى تخيَّلها صناع السينما وحفروها على شاشاتهم، الروايات التي قصَّت بالدموع والألم تلك الجريمة الدرامية التي قلبت العالم، السقوط والصعود، الآلام والمغفرة، الهرب والثبات، الندم والموت في النهاية، كيف يمكن أن تُمحى ذكرى تلك القصة التي أصبحت أسطورة يعيشها العالم منذ أكثر من ألفي عام؟! كيف يمكن الغفلة عن أخطر حقبة في تاريخ الإنسانية؟! الأمر لا يرتبط بوثائق مهمة ولا قطعة خشبية اختلف في سرد قصتها الجميع واختلفت عليها الأديان، فالمسلمون يؤمنون بأنه رُفع إلى السماء، والمسيحيون يؤمنون بأنه صُلب، واليهود يُنكرون جرائمهم، ولكن في النهاية اتفق الجميع على أنها جريمة تستحق أن نقف أمامها جميعًا، فبعض الجرائم تُخلد أصحابها، بل تمنح العالم حق الاستمرارية وأمل السير قُدمًا من أجل مواجهة الخطيئة.

عرض الاثنان كل شيء أمامهما، أدركا جيدًا مدى الخطر الذي وصلا إليه، الحياة أو الموت، معادلة سهلة ولكن التنفيذ يعني كل شيء، لم يكن لديهما أي علامات توصلهما إلى طرف خيطٍ ما، أخبرت أدهم بأن

،شارلز راسل لم يؤلِّف سوى ستة كتب تحت عنوان فجر الألفية التي حملت فكر الجماعة.

«وبدأ تشارلز راسل في كتابة سلسلة من الكتب قام بتسميتها: فجر الألفية»، قالت ليلى، «ولقد أكمل قبل وفاته عام 1916 ستة أعداد تحتوي المعتقد الديني الذي يعتنقه أتباع شهود يهوه اليوم، وبعد وفاة السيد راسل، قام صديقه القاضي جوزيف فرانكلين رثفورد الذي تولّى قيادة الجماعة من بعده بكتابة العدد السابع والمُتمِّم لسلسلة مؤلفات: فجر الألفية في عام 1917، وقد قام بتسميته: السر المتمم».

«لكنْ هناك شيء ناقص يا أدهم»، قالت ليلى وهي تعطي ظهرها له، «إن الأبناء الأربعة هم المدخل الرئيسي للوصول إلى الأب، لو قرأت جيدًا في هذا الجزء من اللغز ستجد ما نهدف إليه تحديدًا، فإن اللغز معقد كما ترى».

«أربعة أبناء، كل ابن يوجد ببلد، الأب ينتظرهم بجانب المعلم الكبير، لن يُفتح الباب إلا باتحاد الإخوة الأربعة، حينها وحينها فقط سيسمح الجد بمرور الجميع».

«إن الحكيم لم يذكر شيئًا عن الجد!»، قالت ليلى مندهشة، «ولكن أعتقد أن الأب هنا يعني مؤسس الجماعة وهو السيد تشارلز راسل نفسه كما أخبرك الحكيم، إن الخريطة تعود لتشارلز راسل بكل تأكيد، إن الخريطة رمزية للأب، الأمر لا يحتاج إلى ذكاء كبير، كلمة المُعلم الكبير هنا تعني شيئًا مهمًا للغاية، لقد ذكرت لي أن الرجل المنشق عنهم أطلق

على نفسه وصف المُعلِّم، أعتقد أن السر هنا مرتبط بالشخص الذي تولى من بعد تشارلز راسل – المؤسس والأب – رعاية الجماعة وهو الذي قادهم، وهو الذي كتب في النهاية الميثاق النهائي والشروط والقواعد لرؤيتهم وعقيدتهم».

«مَنْ كتب السر المتمم»، قال أدهم وهو يشعر بالإثارة.

صاحت ليلى: «بالضبط يا أدهم، بالضبط».

«لنُعدها مرة أخرى»، قالت ليلى بحماس، «الأب ينتظرهم بجانب المُعلم الكبير»..

«لقد ترك السيد تشارلز راسل شيئًا يخص الموضوع بالكامل مع المُعلم الكبير وهو السيد جوزيف فرانكلين رثفورد، لكن الرجل مات منذ فترة طويلة»، قالت ليلى مفكرة.

«الأمر لا يرتبط بهم يا ليلى»، قال أدهم بحماس، «إنه مرتبط بالسر المتمم، بالتأكيد استعان رثفورد بمعلومات أعطاها له صديقه تشارلز راسل قبل رحيله، أعتقد أن الأمر يتعلق بمخطوطة لكتاب: السر المتمم، فلكل كتاب مخطوطة كُتبت بخط اليد أو الآلة الكاتبة طبقًا لهذا التوقيت كما تعرفين، انتظري.. في القطار من باريس إلى روما قابلت رجلًا وقد كان خبيرًا بكل ما يخص عالم الأوراق وقد أخبرني بأنها نُقشت في الفترة الزمنية ما بين 1890 و1900، وهذا يعني أن كاتب هذه الأوراق هو تشارلز راسل نفسه»، ولاذ الاثنان بالصمت للحظات.

«إذن بالفعل فالمخطوطة التي نبحث عنها هي ما تركها تشارلز راسل»، صاح الاثنان سويًا بحماس.

نسي أدهم وليلى كل شيء عمَّا آل إليه الأمر، شعرا بأنهما طفلان في طريقهما لحل لغز، لأول مرة تشعر ليلى بأنها تعيش حياة زوجية حقيقية ولكن في الحقيقة كان أدهم يشعر شعورًا أعمق بكثيرٍ من هذا الإحساس، لقد كان يعيش الحياة بمعناها الحقيقي لأول مرة في حياته الغريبة التي أفقدته نفسه، في الحقيقة لقد كان أدهم يعيش لأول مرة وهذا الأمر الأخير أنساه كل شيء، حتى الموت.

الفصل السادس والاربعون

في اليوم التالي صباحًا كان أمامهما الكتاب الذي يُطلق عليه السر لمنمم، وقد استطاعت إليسا أن تحصل على نسخة منه، في الحقيقة بعد ست ساعات لم تجد ليلى على الإطلاق أي شيءٍ يلفت نظرها داخل الكتاب، شعرت بالإحباط الشديد وكذلك أدهم الذي كان يرسم خطته وما عليه فعله بهدوء، يُدرك جيدًا أن الأمور ستشتعل خلال الساعات القليلة القادمة، لكنه بكل أسف لا يملك أي مفتاح للخروج مما هو فيه، لم يرن هاتفه الذي أعطاه له المُعلم لمرة واحدة، لم يتصل به أيضًا إسحاق إلياكيم بأي طريقة وهذا الأمر الأخير أشعره بالقلق الشديد، كيف يصبر هؤلاء كل هذا الوقت رغم حاجتهم الشديدة للأبناء الأربعة؟! إنهم يدركون جيدًا أنهم الجانب الرابح، «يُدركون أنني لن أضحي بحسن مهما حدث».

يُدرك أدهم أنه بعيد عن أعينهم، لكنه أحيانًا كان يشك في هذا الأمر، ثم سرعان ما يعود واثقًا من أن أحدًا لا يتتبعه بعدما اتخذ كل احتياطاته لحماية ليلى ونفسه، حينها صاحت ليلى: «أدهم، نحن نبحث في المكان الخاطئ»، انتبه لها أدهم وقد لمعت عيناه.

«إن المخطوطة بالفعل تخص السيد رثفورد والذي أخذها بدوره ،
السيد راسل، إذن المخطوطة الأصلية توجد في حوزة السيد راسل نفسه،
أي مكان يخصه، مكتبه، منزله، لا يهم.. الأهم أنها معه»، صمتت قليلاً
وقد بدت عليها الحيرة، «لا أدري يا أدهم، أنا مشتتة ولكن كما أقول
لك، المخطوطة توجد في مكان يجمع الاثنين، هل سلَّم السيد راسل
المخطوطة للقاضي رثفورد قبل وفاته أم لا؟! بالطبع سلَّمها، لكن أين
احتفظ بها بعد ذلك؟!».

قام أدهم بالاتصال بإليسا في الحال بنفس الطريقة التي اتصل بها
قبل ذلك، من الشارع، ربما تمده ببعض المعلومات عن الأمر برمته،
طلبت منه أن يمهلها بعض الوقت، ثم فوجئ بعد نصف ساعة باقتحامها
للمكان، وقد كانت متحمسة هي الأخرى رغم أنها لا تعرف معلومات
كاملة عن الأمر، ولكن لأنها امرأة ذكية أدركت أن الأمر خطير، وذلك من
كم الأحداث الغريبة التي يمر بها أدهم، كما أنها - بشكلٍ ما - أصبحت
طرفًا بها، لقد تسبَّب لها ذلك بالحماس الشديد، بل إنها قامت بتعطيل
وتأجيل كل مواعيدها للاشتراك في هذه المغامرة التي ربما لن تتكرر
مرة أخرى في حياتها الروتينية بين الكتب والترجمات والمراجع، وقد
اتجهت هي الأخرى للتنكر حفاظًا على حياة أدهم وزوجته، وحياتها
أيضًا التي ربما تتعرض للخطر.

«إن حفيد القاضي رثفورد ما زال على قيد الحياة»، قالت إليسا لاهثة،
«يعمل قاضيًا أيضًا ويعيش هنا في لندن»، وصمتت للحظة مبتسمة، «لن

صدقوا إن قلت لكم إنه لا يؤمن بمعتقدات شهود يهوه، في الحقيقة إنه ،درهم، ولكنه أخبرني بأنه يملك كل ما يخص جده في القبو الخاص ،منزله».

نظر أدهم وليلى إلى بعضهما بحماس شديد والابتسامة لا تفارقهما.

الفصل السابع والاربعون

كان السيد آدم رثفورد رجلًا هادئًا للغاية، ذلك كان باديًا على ملامحه وطريقته في الحديث وترحيبه الرائع بالسادة الضيوف، لقد بدا سعيدًا للغاية بأنه سيتخلَّص من المقتنيات التي تخص جده رغم أنه لم يقل ذلك بطريقةٍ مباشرةٍ، ولكن بعض الأمور تبدو جلية وواضحة من خلال بعض التعبيرات، لم يكن أدهم يريد أي شيء من كل ذلك سوى الحصول على المخطوطة التي خرج منها كتاب «السر المتمم»، الكتاب الأخير الذي ألَّفه القاضي رثفورد ليتمم عقيدة ومبادئ جماعة شهود يهوه، كانت ليلى برفقته، ورغم أنه يدرك أن في الأمر مخاطرة كبرى، إلا أنه لم يكن يملك خيارًا آخر، إنه يحتاج إلى خبيرة في تلك الأمور التي تخص التاريخ، ولا يوجد سواها، بالإضافة إلى أنها الشخص الوحيد الذي يمكن الوثوق به، بينما تركا إليسا في المنزل بجانب الكتاب نفسه ربما احتاجا إليها وحتى يضمنا أنهما غير مراقبين، كما ترك معها المسدس المحشو بسبع رصاصات، لبست ليلى ملابس إليسا التي أتت بها إلى المنزل كنوعٍ من التمويه، ربما يكون أحدهم يراقبها.

في قبو المنزل الكبير كان هناك العديد من المقتنيات، لوحات، كراتين ممتلئة بالكتب، تماثيل مختلفة تنتمي إلى فنون مختلفة، لقد كان الرجل ذوَّاقًا فعلًا، ولكن بعد قليل أدرك أدهم أن هذه المقتنيات لا تعود للسيد رثفورد وحده، وإنما للعائلة كلها، وقد أخبرهم آدم أيضًا بأن مقتنيات جده في نهاية القبو، هي عبارة عن مجموعة أوراق ووثائق وبعض الكتب، أخبرهم أيضًا بأن هناك مَنْ جاءوا منذ فترة يبحثون عنها. سأله أدهم عن هؤلاء الأشخاص لكنه لم يتذكر أي شيء لأنهم لم يأخذوا أي شيء، حيث ذكروا له أنهم يبحثون عن بعض الكتب المهمة التي ستعينهم في بحثٍ خاصٍّ بهم عن حياة القاضي رثفورد، «لقد فهمت أنهم من جماعة شهود يهوه، الأمر برمته لا يعنيني، كل ما يهمني هو التخلص من هذه المقتنيات، ولكنني أيضًا لا أستطيع التخلُّص منها بهذه السهولة احترامًا لهذا الرجل، حتى وإن كنت ضد مبادئه فلا يمكنني التقليل منها أو بعثرتها، الأفكار يجب أن تُحترم أيًا كان منبعها وشكلها». أنهى كلماته بابتسامة هادئة وتركهم ليبحثوا عما يريدون.

وقف أدهم وليلى وهما يديران نظرهما في المكان بترقب حتى اختفى السيد آدم رثفورد عن نظريهما، وتأكد أدهم من كلمات الحكيم حينما أخبره عن عملية البحث عن الأب - «المخطوطة» - التي باءت بالفشل، كانت مقتنيات الرجل موضوعة في كرتونة كبيرة، فتح أدهم الكرتونة سريعًا وشرع في إخراج محتوياتها بحذرٍ وهدوءٍ، كانت ليلى تفحص الكتب والأوراق التي يخرجها أدهم، بعد بحثٍ لم يطل صاح

ليلى، «إنها المخطوطة يا أدهم، ها هي مكتوبة بالآلة الكاتبة، إنها قديمة للغاية»، ابتسمت وهي تشمها بعمق وقد تهلل وجهها من الفرحة التي عكست ملامحها المتلألئة في هذه اللحظة.

ابتسم أدهم وهو ينظر إليها وقد نسي كل شيء وظل سارحًا فيها وفي ذكريات قديمة جمعتهما، ولكن سرعان ما استفاق من ذكرياته، «إن الأوراق قديمة للغاية»، قالت ليلى بهدوءٍ بعدما استعادت عقل الخبيرة، «إنها المخطوطة الأصلية»، قالت ليلى بحماس، «كيف لهذه الثروة أن تدفن في قبو بهذا الشكل؟! يبدو أن أعضاء الجماعة حاولوا الوصول إلى حل اللغز وقد مرت عليهم المخطوطة مرور الكرام، دائمًا ما يبحث الجميع عن الظاهر دون النظر في بواطنه، أمر مؤسف».

فتحتها برقةٍ وهدوءٍ خوفًا لأن الأوراق كانت مصفرة ومهترئة للغاية، شعر أدهم للحظة بأن حركة بسيطة ستدمر الأوراق تمامًا، أغلقها أدهم بحذرٍ ثم خرجا من القبو وشكرا السيد آدم رثفورد على مساعدته وانطلقا في طريقهما، شرعت ليلى تقرأ فيها بهدوء خلال الطريق بعد أن أخرجتها من الحقيبة الجلدية التي تتذكر تمامًا أن أدهم كان قد جلبها من محل الأنتيكات بلندن، أمر أدهم سائق التاكسي بأن يأخذهما إلى نفس المكان الذي اشترى منه الأنتيكات، تعجبت ليلى حين طلب أدهم ذلك ولكنه ابتسم دون أن يرد وبعد قليل مال عليها، «إنها مفاجأة، مفاجأة لن تستطيعي تخيلها».

الفصل الثامن والأربعون

وصل أدهم وليلى إلى محل الأنتيكات، نظر إليه صاحب المحل، والذي اتضح فيما بعد أن اسمه ويليام، من خلف نظارته الكبيرة التي يرتديها بعد أن أسدلها قليلًا على منخاره مبتسمًا، كان ويليام يتمتع بخفة ظل تلقائية، أومأ له أدهم برأسه بطريقة يعني بها شيئًا ما بعد أن عرَّفه على زوجته، كان المحل كبيرًا على شكل مستطيل، توجد به مختلف الأنتيكات، العديد من التماثيل اليونانية والفرعونية واللوحات والأواني الخزفية المتعددة الألوان، وبعض الأنتيكات الخشبية المصنوعة باليد، وبعرض المحل توجد فاترينة طويلة تحوي العديد من الأشكال الغريبة والمختلفة لبعض الحلي التي تم اقتناؤها بعناية من مختلف البلدان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

بعد أن استأذنهما دقيقة لإنهاء بعض الأمور نقل الاثنان بصريهما بين مقتنيات المحل وبين بعضهما بعضًا في حذرٍ وترقبٍ، وابتسم أدهم إثر نظرة زوجته الحائرة والمترقبة، بعد دقيقة بالضبط كان المحل شبه خالٍ إلا من زبون واحد سرعان ما انتهى من الشراء، وحينها فتح ويليام سريعًا بابًا من الزجاج يوجد على الجانب الأيسر من الفاترينة في خلفية المحل،

لم يكتشفا وجوده إلا الآن، وأشار لهما بالمرور، كان الباب يشبه الأبواب السرية التي توجد في بعض البيوت القديمة الكبيرة، مرًّا سريعًا من الباب حتى وجدا نفسيهما داخل حجرة مظلمة ملحقة بالمحل في الخلف وقد بدت لهما كورشة، ابتسم الاثنان ابتسامة تحمل الحماس، أوصى ويليام العاملين بالمحل بأخذ مكانه وانطلق خلف أدهم وليلى من خلال الباب السري.

حينما اجتمع الثلاثة، «الآن نبدأ العمل»، قال ويليام بحماس وبطريقته التي تتلعثم في الكلمات، «لا أدري.. لا أدري كيف حصلت على هذه القطع ولكنها حتمًا تساوي كنزًا، بل ثروة لا تُقدَّر بثمن»، وأشار إلى القطع بحوزته.

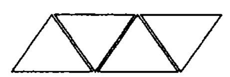
وقف للحظات وقد طوَّق رأسه بحزامٍ مصنوعٍ من الجلد في مقدمته من أعلى لمبة صغيرة، بينما أسدل فوق عين من عينيه عدسة كبيرة فبات شكله مضحكًا مع عينه التي بدت كبيرة من خلف العدسة، «انظر يا سيد أدهم»، قال بحماس، «إن الأجزاء الأربعة صُنعت بمهارة لا توصف ويعود عمرها إلى أكثر من مائة عام، لم يكن الغرض منها كما قلت لي إنها بوابة لإحدى المناطق، لكنزٍ ما»، وابتسم ببلاهة، «بل إنها رموز عادية جدًّا تم صقلها لتُركَّب بعضها ببعض لتعطي وميضًا كما سترى الآن»، ثم وضع الأجزاء بعد ترتيبها بهدوءٍ ودقةٍ، ثم أظلم الغرفة تمامًا من اللمبة في أعلى رأسه، وحينها أصدرت الأجزاء الأربعة وميضًا قويًّا انعكس فوق المنضدة الصغيرة أمامهم، ثم اختفى بعد لحظات مما أثار أدهم

وليلى كثيرًا لأن الوميض لم يكن بنفس القوة التي رأياها فيما قبل حينما قاما بتركيبها.

«بعد العمل عليها لساعات اكتشفت أن ذلك الوميض هو عبارة عن ضوء فسفوري»، قال ويليام بهدوءٍ وبهمسٍ وكأنه يقول سرًّا، «إنها لا تعمل بالكامل في الإضاءة، بمعنى أدق يجب أن يكون الظلام دامسًا حتى تقوم بعملها، قد توصلت لذلك بعد معاناة، بصراحة عن طريق المصادفة، كان الأمر مرعبًا بالنسبة لي»، ضحك الاثنان ضحكة خافتة، «أعتقد أن ذلك الوميض يُستخدم في قراءة شيء ما، لنوعية من الحبر مخصصة لذلك، كذلك الضوء الفسفوري الأسود الذي يستخدمونه في المتاحف العالمية كاللوفر ومعهد الفن بشيكاغو وغيرها لوضع علامات على المناطق التي يجب عمل صيانة لها، فلا تبدو المناطق التي تم تحديدها سوى للعمال والقائمين على الصيانة باستخدامهم بالطبع لهذه النوعية من الضوء»، استطرد ويليام بحماسه، «لذا يمكن استخدامه على لوحة أو ورقة أو ربما جدار ما، إنها تعمل كمصباحٍ لغرضٍ معين»، هدأ للحظات وهو يستعيد رباطة جأشه بعد حماسه الشديد، «هذا كل ما توصلت إليه».

نظرت ليلى إلى أدهم وهي تفكر، كان شاردًا أيضا يفكر فيما ستؤول إليه الأمور وكيف يمكن حل اللغز الذي تم حل نصفه تقريبًا، وحينها صاحت ليلى، فنظر الاثنان إليها بحماس، «إنها المخطوطة يا أدهم، لقد رأيت صفحة مرسومًا عليها الأبناء الأربعة بطريقة كروكية، بمعنى أدق مرسومًا على إحدى الصفحات أربعة مثلثات دون تفاصيل، لقد رسمها

على ما أعتقد إما السيد راسل أو السيد رثفورد رغم أنني أُرجِّح أن الأب وكاتب المخطوطة هو مَنْ فعل ذلك، إنني واثقة من أن السيد راسل كان على صلة بأحد الحماة»، وبهدوء وحذر فتحت المخطوطة، حينها أشعل ويليام مصباحه الخاص في أعلى رأسه، وصل الثلاثة بحذر إلى الصفحة المطلوبة، كانت فارغة تمامًا، وفي المنتصف رُسمت أربعة مثلثات متساوية الأضلاع، متشابكة بعضها ببعض، مثلث رأسه إلى أعلى، يليه مثلث رأسه إلى أسفل، وهكذا.



كان أدهم يشعر بحماسٍ لا يُضاهى، بل لم يشعر به طوال حياته المكتظة بالأحداث، رعشة غريبة تسري بجسده، وكذلك ليلى التي شعرت بأن العالم كله توقف حولها وأصبح الصمت الذي يسبق العاصفة هو المحرك الوحيد، حتى ويليام شعر بأن هناك شيئًا غريبًا يسري بداخله، فأصابته وخزة خفيفة في أسفل معدته، تجمَّع الثلاثة حول المنضدة وقد انحنوا جميعًا حيث شرع ويليام في تركيب الحروف بالترتيب الأبجدي فوق الرسم بالضبط، ثم أغلق المصباح في أعلى رأسه وهو يرُكِّب القطعة الأخيرة، وحينها أصدرت الحروف وميضًا قويًّا فأنار الصفحة لتتحول الورقة البيضاء إلى كتابةٍ بحبرٍ لم يكن واضحًا إلَّا الآن، في الحقيقة لم تكن كتابة فقط، بل إنها خريطة قديمة، وقد تم نقشها بحرفيةٍ عاليةٍ بلونٍ أحمرَ باهتٍ، ولكنها كانت واضحةً، وتشير إلى مكانٍ ما داخل أرض سيناء بمصر.

وقف الثلاثة مشدوهين مما حدث، وقد كان الحماس يملأهم حتى إنهم صاحوا من فرط الفرحة بعد أن قاموا بحلِّ اللغز الذي كلفهم الكثير والكثير، كلَّف أدهم تحديدًا وربما سيُكلِّفه أكثر، لم يكن للحظة يتخيل أن الأمور ستقوده إلى ما هو عليه الآن، قطع ذلك الحماس فجأة تفكيره بكل الضحايا الذين مروا بطريقه، ليس فقط مَنْ ماتوا بدايةً من سيناء وحتى الآن، ولكن ما قبل ذلك أيضًا، ليس كل الضحايا ميتين أو مقتولين، ولكن هناك مَنْ نتركهم خلفنا أحياءً، وهم أشد بؤسًا من أي ضحية أخرى، تذكر حسن الذي لا يعلم ما حدث له إلا الله، أطبق عليه الحزن وسرعان ما قام بنزع الإخوة من على الورقة في المخطوطة، «لقد انتهينا هنا»، وجَّه كلماته إلى ليلى التي نظرت إليه بتعجب بينما أشعل ويليام بعد ثوانٍ لمبة الرأس، وضع الإخوة الأربعة في الحقيبة الجلدية ومعها المخطوطة، ثم نظر إلى ويليام نظرة ذات معنى، تلعثم ويليام بعد أن ارتسمت على ملامحه علامات عدم الفهم، «نعم، لقد تذكرت، آسف»، ظل يبحث خلفه في الغرفة حتى وصل إلى شيء ما وأعطاه حقيبة أخرى جلدية تطابق نفس الحقيبة التي أخذها منه مسبقًا.

«ها هي كما طلبت بالضبط»، قال ويليام.

أخرج أدهم من جيوب سترته بعض المال ليعطيه له، رفض ويليام المال، «لا أريد مالًا، لقد عشت مغامرة تستحق، أنا مَنْ يجب أن يشكركما»، لكنَّ أدهم أصر مبتسمًا له، معبرًا عن امتنانه، وانطلقا في طريقهما، لم يكن أدهم يشعر بالخوف وهو يخرج بصحبة ليلى من المحل..

بل إنه في الحقيقة كان يشعر بالرعب.

الفصل التاسع والاربعون

وصل أدهم إلى محطة القطار، جلس في مكانه في الكرسي الخلفي لتاكسي مفكرًا قليلًا، وبعد دقيقتين أخذ الحقيبتين وخرج متجهًا إلى مؤخرة التاكسي وفتح الحقيبتين، مدَّ يده في الحقيبة التي توجد بها مخطوطة كتاب السر المتمم، ونقلها إلى الحقيبة الأخرى التي أخذها من ويليام، ثم أعطاها لليلى بعد أن ألقى عليها نظرة أخيرة، ثم أخذ الحقيبة الأولى ودخل بها إلى محطة القطار، بينما انتظرته ليلى داخل التاكسي، عاد إليها وهو يبتسم ابتسامة باهتة فربَّتت كتفه وهي تحمل في جوفها العديد من الأسئلة، ولكنَّ سؤالًا واحدًا مُلحًّا كان يدور بخلدها في هذه اللحظة: «وماذا بعد؟!»، كان أدهم في حالة من الترقب ينتظر فارغ الصبر اتصال المُعلم حتى يُنهي كل شيء ويتخلَّص مما وصل إليه من معاناة وألم وجرائم لن يستطيع التبرؤ منها، ورغم أنه كان يدرك تمامًا أنهم لن يتركوه يذهب بهذه السهولة، إلا أنه كان متمسكًا بأمل يُحلِّق في خياله.

اتصل أدهم من خلال الهاتف الذي اشتراه بإليسا لكنها لم ترد، فانتابه الفزع الشديد وأسرع إلى الشقة، وحينما وصلا إلى هناك، لم يكن ثمة

صوت على الإطلاق، صمت ثقيل يعم المكان بالكامل، يقطعه ص
رنين هاتف إليسا، شعر بالخوف الشديد يقفز إلى قلبه، اتجه وهو ب
بهدوء على إليسا، ولكنها لم ترد، في الوقت نفسه الذي سمع فيه ص
أنثوية مدوية، فهرع إلى مكانها ليجد إليسا ملقاة على الأرض، غارة
دمائها، وقد اخترقت صدرها رصاصتان، وبجوارها المسدس، جثا أ
على الأرض وعيناه قد اغرورقتا بالدموع، بينما أخذ ليلى بين ذ
محاولًا تهدئتها، نظر إلى إليسا وهي مُلقاة أمامه وقد أُنتزعت منها الـ
كان الغضب والألم يستحوذان عليه بقوة في هذه اللحظة الصعبة،
كانت ليلى تبكي بحرقة.

فكر قليلًا في كيفية وصول المُعلم إليه رغم كل احتياطاته
اتخذها، ربما استطاعوا أن يراقبوا إليسا ووصلوا إلى هنا بسهولة، أو
كانوا يلاحقونه هو منذ البداية، ولكن كيف؟! قطع أفكاره الثائرة
الهاتف الذي تركه له المُعلم، نظر إليه طويلًا بعد أن فزع في مكانه و
أن يرد، بينما كانت ليلى تنظر إليه والرعب يقفز من عينيها، «سيد أد
كان المُعلم بنفسه من يتحدَّث، «الآن برهنت لك بأنني لا ألعب معك
سخيفة، لقد ماتت زوجتك وتخيل أنني بإشارة بسيطة سأعرضك للا
بالعديد من القضايا، منها قتل زوجتك البريئة التي جاءت خصيصًا
أن عرفت بخيانتك فقتلتها هي الأخرى، أدرك أنها خسارة فادحة
تصرف طائش سيدمر ما تبقَّى لك، وأنت لست من هذه النوعية التي
خسارة كل شيء، لم يبقَ سوى صديقك الذي أوشك أيضًا على المو
عليك أن تُسلمنا الآن كل شيء توصلت إليه وتنقذ صديقك ونف

كل الجرائم التي ستلاحقك، فنحن نعرف كل شيء ونستطيع أن
صك أو نخلِّص ما تبقَّى منك فلا تضيعه أرجوك، نعرف أيضًا مكان
اء الأربعة، ولكن أنت مَنْ تحمل حل اللغز كاملًا، أمامك ساعة فقط
يمنا كل شيء، سنتصل بك».

ـفع أدهم رأسه ناظرًا إلى ليلى بذهول، فكر فيما قاله المُعلم له، إن
أمامه، لم تمت، ماذا يقصد بالتحديد؟!

عد هـدوءٍ تخلَّله إلقاء العديد من الأسئلة من ليلى المتوترة
رعوبة، علم أنهم كانوا يقصدون ليلى بهذه العملية وليست إليسا،
ى آخر أنهم يعرفون مكانه منذ أن جاء إلى هنا بصحبة زوجته، لقد
ا يراقبونه كل هذا الوقت، لقد اقتحموا المكان وقتلوا إليسا معتقدين
ليلى لأنها ارتدت ملابسها كما أنها بعد التنكر أصبحت تشبهها،
خطأ الثاني الذي يرتكبه رجال المُعلم، فكر أدهم طويلًا ونظر إلى
ـف، لا يستطيع الهاتف تحديد مكانه طالما أنه لا يرد حتى وإن كان
ا بالتعقب، فهم لن يخاطروا مرة أخرى، «متأكدون أنني لن أُبقي
، فقد جرَّبوا معي هذا الأمر قبل ذلك، هناك شيء ما يستطيعون من
ه الوصول إليَّ ومعرفة جميع خطواتي»، فكر مرة أخرى بهدوءٍ في
داث منذ البداية، لقد ضلَّلهم قبل ذلك، قبل أن يتخلَّص من هاتفه،
لقوه في الشارع بهذه البساطة بعد لقائهم به، هناك شيء ناقص،
مفقودة، نظر في ساعته طويلًا مفكرًا وأخذ نفسًا عميقًا محاولًا
ـول إلى نقطة بعينها، إنها الساعة، نعم إنها الساعة، لقد وضعوا بها

شيئًا يمكنهم من خلاله معرفة كل خطواته، خلع الساعة من يده ونظ
لها طويلًا، فتحها بهدوء، كان هناك جسم صغير غريب بداخلها، اندهش
رغم توقعه للأمر وشعر بالرعب، أخذ نفسًا طويلًا ولبسها مرة أخرى
وفجأة جحظت عيناه وكأنه اكتشف شيئًا لتوه.

انطلق سريعًا خارج المنزل، وصل إلى كابينة تليفون وقام بالاتصا
بويليام، رد ويليام عليه فحمد الله في سره، أخبره بأن يختفي عن الأنظا
تمامًا الآن حتى ينتهي كل شيء، ارتعد ويليام، لكنه لم يكمل كلماته حتى
سمع صرخة منه، صاح أدهم على الهاتف: «ويليام»، لقد اكتشفوا كل
شيء ويحصدون الآن نتيجة مراقبتهم له، حينها سمع على الطرف الآخر
أحدهم: «سيد أدهم، لا تقلق، إنه معنا، الحكيم يُرسل تحياته لك، هناك
رسالة لك أيضًا، يطلب منك الحكيم التخلص من الساعة».

هدأ أدهم قليلًا ولم يرد بينما أغلق الهاتف حيث تأكد أن ويليام
الآن في أمان، ولكنه شعر باطمئنان أكبر لأنه اكتشف أن هناك شخصًا
آخر يقف بجواره، كما أن النتيجة التي وصل إليها بشأن الساعة كانت
صحيحة، إلى حدٍّ كبيرٍ تأكد أن إسحاق إلياكيم لم يكن يكذب.

عاد أدهم إلى المنزل وهو يفكر بأمر ليلى وكيف يمكنه أن يحميها،
عاجلًا أو آجلًا سيكتشفون الحقيقة، ولن يتركوها في حالها، تمنى
الموت بشدة ولكن الموت الآن لن ينقذ أحدًا، وضع يده على مفتاح
الساعة كي يخلعها ويتخلَّص منها، لكنَّ شيئًا ما في جوفه أخبره بأن عليه
أن يُبقي عليها.

الفصل الخمسون

خرج أدهم من المنزل بصحبة ليلى ومعه الحقيبة الجلدية الأخرى فقط، لم ينطق بكلمة واحدة لها لكنه كان يفكر في كل شيء، وقف أمام أحد مراكز وكالات السفر وقام بحجز تذكرتين إلى ألمانيا على الطائرة المتجهة إلى هناك خلال ثلاث ساعات وربع الساعة تقريبًا من الآن، وقام أيضًا بحجز تذكرة إلى مصر وأعطى لليلى التذكرة الأخيرة، كانت التذكرة الأخيرة على أول رحلة والتي ستقوم خلال ساعتين ونصف الساعة من الآن، اتجه إلى فندق الموفنبيك وقام بحجز غرفة واحدة بعد أن أخبر ليلى بأن تنفصل عنه وتحجز غرفة لها وحدها حيث دخلا الفندق كأنهما لا يعرفان بعضهما، تمت الإجراءات واتجه كلٌّ منهما في طريقه إلى غرفته، طلب أدهم ورقة وقلمًا وأخرج من حقيبته الجلدية التي كانت بحوزة ليلى مخطوطة كتاب «السر المتمم» وشرع في الرسم على خلفية إحدى الصفحات، في الحقيقة كان يرسم نفس الرسم الموجود، المثلثات الأربعة، بعد أن انتهى وضعها في الحقيبة.

حينها دق جرس هاتفه، «سيد أدهم، نحن في انتظارك الآن، عليك أن نهبط من الفندق، وتصل إلى أول الشارع وحينها ستعرف كل شيء».

اتصل بليلى عبر غرفتها بسرعة، «ليلى، أرجوكِ تماسكي، سنكو
بخير، كل ما أطلبه منكِ الآن أن تذهبي إلى المطار بأسرع وقت، ولكن
قبل ذلك عليكِ أن تمري على نفس محطة القطار التي ذهبت إليها معك،
ستجدين مفتاح الخزينة في حقيبتكِ، لقد وضعته بها، وبعدها انطلقي
سريعًا إلى المطار دون توقف في أي مكان، ستأخذين من هناك الحقيـ
الجلدية التي كانت بحوزتي، يجب أن تفعلي ذلك، كان يمكنني أن أبقيها
معي ولكن هذا سيُعرِّضكِ للخطر، فلا أحد يعلم بوجودكِ حتى هذ
اللحظة، إنهم يعتقدون أنكِ ميتة وهي فرصة لن تُعوَّض للنجاة بحياتك،
ولكن جهلهم بموتك لن يطول كثيرًا وسيكتشفون ذلك، وحينها لا أعلم
ماذا يمكن أن يحدث! لن أسمع أي كلام الآن، فأنا لن أسامح نفسي إ
حدث لك أي مكروه، هذا آخر ما أطلبه منكِ، أرجوكِ لا وقت لدينا».

«لن أرحل من هنا دونك»، قالت ليلى معترضة وهي تبكي.

«ليلى أرجوكِ، أتوسَّل إليكِ أن تسمعي كلامي وسيكون كل شي
بخير، لن أترك حسن وحده هنا»، قال أدهم بنبرة صادقة موشكًا على
البكاء.

لم يسمع صوتها، ظل يصيح على الهاتف باسمها وحين قرر الخروج
من الغرفة وجدها في وجهه وارتمت بين ذراعيه، تحتضنه كأنها لم تفعل
ذلك من قبل، كأنها اشتاقت له بعد مرور سنوات طويلة لم تره فيها،
بكت بحرقة بين ذراعيه وكذلك هو، كاد يعتصرها بين يديه، أعاد رأسها
للخلف وهو يمسح دموعها بيديه، «أرجوكِ توقفي عن البكاء، افعلي ما

أطلب منك، لم يعد لديَّ وقت، اعرفي شيئًا واحدًا فقط، أنني لم أحب امرأة غيركِ، هذه هي الحقيقة الوحيدة في حياتي الآن، إن حدث لي شيء، فعليكِ الدعاء لي بالمغفرة».

وضعت يدها على شفتيه وهي تبكي، «لا تقل ذلك أرجوك، ستكون بخير».

ابتسم في وجهها دون أن يتفوَّه بكلمة، وألحَّ عليها لتغادر غرفته.

ودَّعته وهي تبكي، تبكي بشدة.

وحينها نطق أدهم بشكل مضحك:

לכ וודאה וקז - יניס

فالتفتت إليه مندهشة وهي تمسح دموعها، وكانت تلك الجملة التي ترجمتها له بما يعني: الرجل العجوز - سيناء، أمسك قلمًا وكتب شيئًا بسرعة في ورقة وأعطاها لها، وطلب منها ألا تقرأها إلا عندما تصل إلى مصر، وعليها أن تتَّبع التعليمات التي كتبها، ثم أومأ لها برأسه مبتسمًا ابتسامة رائقة، وبنظرة تعني شيئًا، حينها أدركت ما يرمي إليه، وابتسمت وأومأت له بالإيجاب.

الفصل الواحد والخمسون

وصل أدهم عند النقطة التي حددها له المُعلم، لم يكن ثمة شيء يوحي بوجودهم ولكن بعد دقائق معدودة من القلق والترقب كان المُعلم بنفسه يجلس داخل سيارة وينظر إليه من وراء الزجاج الخلفي لها وقد ارتدى نظارة شمسية، قبض أدهم على الحقيبة بيده، نظر إليه نظرة طويلة ثم اقترب من السيارة دون أن يركب، «أين حسن؟!»، قال أدهم بهدوءٍ وتحدٍّ دون أن يُبدي أي نوع من الخوف، ابتسم المُعلم، «ستستلمه بمجرد تسليمك لنا كل شيء».

«لن أسلمكم شيئًا قبل أن أراه بعيني»، قال أدهم بغضب، «هناك سؤال يحيرني، إن كنتم تعرفون مكان الإخوة الأربعة بالفعل، فلِمَ تكبد كل هذا العناء؟!».

«لأنك تحمل حل اللغز كاملًا»، قال المُعلم، «ما فائدة أربع قطع ساذجة تحت عيني بالفعل وأستطيع الحصول عليها في أي وقت شئت دون الوصول إلى كيفية حل اللغز، وأنت بالتأكيد تملك الحل يا سيد أدهم، أرجوك لا يمكننا أن نتكلم هكذا، اركب».

«لن أركب»، قال أدهم بتحدٍّ، «أرى حسن، أسلمكم كل شيء، «
هو اتفاقنا».

«لا يوجد اتفاق بيننا»، قال المُعلم بنبرة ساخرة.

«ليكن، لكنك لن تستطيع حل أي شيء دون مساعدتي»، قال أده
بابتسامة واثقة.

كان المُعلم يدرك أنه على حق فيما يقول، «إنه على بُعد نصف سا
بالضبط من هنا يا سيد أدهم»، قال المُعلم ببرود، «اركب لكي تراه، ل
أستطيع أن أفعل شيئًا الآن، فأنت مَنْ تقود ولست أنا»، أنهى كلام
بمكرٍ.

أصر أدهم على عدم الركوب، «حتى إن أخذت مني كل شيء عَنو»
قال أدهم مبتسمًا ابتسامة قاسية، «لن تستطيع حل اللغز كما قلت لك.
الآن قل لي أين حسن وسأعطيك كل شيء حالًا وحل اللغز أيضًا، ل
أذهب إلى أي مكان قبل أن أعرف مكان حسن».

شعر المُعلم بأنه أمام مأزق، فهو لن يُعرض نفسه لأي حركة غير
مدروسة هنا، كما أن ما يحدث الآن لم يكن متوقعًا أن يسير على هذا
النهج، «إنه في نهاية الشارع في إحدى الحدائق»، قال المُعلم وقد بدا
عليه الغضب، «ستجده بجانب أحد رجالي».

«الإخوة الأربعة ومعهم المخطوطة في هذه الحقيبة»، قال أدهم، «كل
ما عليك هو أن تبحث داخل المخطوطة وستجد أن الحل ليس بمثل هذه
الصعوبة التي تتخيلها».

أعطى أدهم له الحقيبة، حين حاول السير أوقفه المُعلم، «انتظر»، بلع أدهم ريقه بصعوبة وقد طوّقه الرعب بينما كان المُعلم يفتح الحقيبة وينقل بصره بين محتوياتها وأدهم، نظر إلى أدهم مبتسمًا بعد أن تأكد من وجود كل شيء، المخطوطة والإخوة الأربعة، ثم أومأ له بالانصراف، ونظر إلى الرجل في نهاية الثلاثينيات، «لن يذهب بعيدًا، اتركوه الآن، فلقد حصلنا على ما نريد»، انطلق أدهم في طريقه عدوًا، وجد حسن جالسًا وقد غادره للتوّ رجل من رجال المُعلم، وقد ابتسم لأدهم ابتسامة قاسية حين مغادرته، وصل أدهم إلى حسن ووقف أمامه، احتضنه بشدة بينما لم يبادله حسن ذلك، نظر إليه الأخير نظرة طويلة ألقت بالقلق والرعب في قلب أدهم، لقد كان حزينًا، ساكنًا بشكلٍ غريبٍ، ملامحه شاحبة تبدو عليها آثار الضرب المبرح، كتفه مربوطة بشكلٍ عشوائي والدماء تحيطها، لم يعرف ماذا يقول، «إنها النهاية»، قال حسن بصعوبةٍ وبصوتٍ خافتٍ، «أشعر بها».

«ليست النهاية يا حسن»، قال أدهم بحزنٍ محاولًا الابتسامة، «هيا انهض ليس أمامنا وقت، لنهرب من هنا».

حينها ارتعش حسن بشدة وانتفض في مكانه، شرعت تخرج من جانبي فمه مادة بيضاء كتلك التي كانت قد خرجت من فم توني الإيطالي، لقد سقوه سمًّا، «حسن، لا، أرجوك»، قال أدهم بغضبٍ حيث كاد يبكي، «لا تمت يا حسن أرجوك».

ابتسم حسن بصعوبة وهو ينظر إلى صديقه، بدت ابتسامة مؤلمة، في الحقيقة لم يقل سوى كلمات بسيطة بصعوبة، «لأول مرة أشعر بأنك بالفعل تحبني، بأن لي قيمة في هذا العالم، ليتني مت قبل ذلك»، انتفض مرتين بقوة ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

صرخ أدهم وهو يحتضنه بين يديه، نظر حوله بسرعة متفقدًا المكان ثم ألقى على صديقه نظرة أخيرة غائمة بالدموع وانطلق في طريقه، لعن نفسه آلاف المرات في هذه اللحظة، ضرب الهاتف في الأرض بقوة من فرط الغضب فانكسر تمامًا إلى قطع متناثرة، ركب «تاكسي» وانطلق في طريقه، كانت أنفاسه مسموعة، لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل، لكنه نظر إلى ساعته، فكر للحظة ومن ثم قذفها من زجاج السيارة داخل تاكسي آخر مرَّ بجواره دون أن يلاحظ السائق شيئًا فاستقرت في الكرسي الخلفي له.

الفصل الثاني والخمسون

بعد أن هبط من التاكسي ودخل إلى المطار عرف من خلال ساعة المطار أنه لم يبقَ سوى ساعة واحدة على قيام طائرة مصر، في حين تبقى ساعة ونصف الساعة على قيام رحلة ألمانيا، كان الرعب والقلق يعتصرانه، وكذلك الدعوات التي لم يدعُ بها طوال حياته، تعجب أدهم من أنه لم يتناول مُسكنًا واحدًا خلال كل الأيام الصعبة السابقة، ولكن شرع الألم والضعف يستحوذان عليه، مشى إلى إحدى الصيدليات في المطار واستطاع أن يحصل على مسكن قوي تناول منه قرصين، خلال ذلك لمح أحد رجال المُعلم وهو ذلك الرجل في نهاية الثلاثينيات، وهو ينظر حوله بنظرته الباردة، استدار أدهم وهو ينظر أمامه حتى لا يلمحه مخفيًا نفسه في وسط الزحام وقد أخذ جريدة ونظر فيها وكأنه يقرأها، ولكنه كان يرتعد من الرعب، مشى سريعًا حتى وصل إلى البوابة التي توصله إلى صالة الانتظار التي من خلالها سيلحق برحلة ألمانيا، قدم جواز سفره للضابط المسئول وهو ينظر حوله بحذر وترقب حتى جاءه فجأة من وضع يده على كتفه، لقد كان الرجل الأسود وقد اصطفت أسنانه البيضاء مبتسمًا ابتسامة باردة وقاسية أيضًا.

نظر أدهم إليه دون أن يتفوه بكلمة، حينها كان المسئول يطلب ،،
الدخول إلى ساحة الانتظار ولكنه بقي صامتًا ينظر إلى ذلك الر ،
في ذهول ورعب، «لا تقم بأي حركة، الآن عليك أن تأتي معي؛ لا،،
بالتأكيد تعرف البقية».

أخذ أدهم نفسًا بصعوبة بالغة وهو ينظر إليه، فكر قليلًا وسر
في كل شيء، كان على وشك الهروب من ذلك الجحيم الذي وص
بنفسه إليه، في الحقيقة رغم كل الأمل الذي حمله في جوفه للخرو
من أزمته إلا أنه كان يدرك وفي جزء منه بأنه سيسقط في الجحيم، فك
في ليلى وهو يسير بصحبة الرجلين، لم ينطقا بكلمة ولكن كان باديًا عل
ملامحهما نيتهما، لقد اكتشفوا كل شيء في الوقت المناسب، عرفوا
بأمر تخلُّصه من الساعة، ووصلوا في الميعاد الفاصل لكل شيء، لديهم
الوقت الكافي لاكتشاف ذلك.

لم يكن يفكر في نفسه، لم يكن يفكر في أي شيء، كان يفكر في
ليلى فقط، يدعو الله من قلبه بأن تنجو من هذا الجحيم التي بالتأكيد لا
تستحقه على الإطلاق، وصلوا إلى السيارة، كان المُعلم ينظر إليه غاضبًا
وقد أمسك بيده أحد الإخوة الأربعة ليشهرها في وجهه وهو يعني بذلك
شيئًا، لكنه لم يكن الشيء المطلوب في هذا التوقيت بالتحديد.

ركب أدهم عَنوة بين رجلين، المُعلم ورجل آخر مفتول العضلات
لم يره من قبل، بينما ركب الرجلان اللذان كان بصحبتهما في الأمام،
«لماذا تصر على جعل الأمور صعبة أيها القذر البائس؟!»، قال المُعلم

بنبرة غليظة غاضبة، وضربه بكف يده على رأسه من الخلف كأنه يُعنِّف ولدًا صغيرًا، لم يتفوه أدهم بكلمة، «هل تعتقد أنه بباروكتك المقرفة ولباسك المزري هذا ستستطيع الهرب منا؟! كن متأكدًا من أنها نهايتك إن لم أحصل على حل اللغز كاملًا، أنت غبي وقدت كل مَنْ أحبوك إلى الهلاك، في الحقيقة أنت لعنة، يجب أن تدرك ذلك قبل موتك، لكنني وبكل صدق لن أجعله سهلًا، لقد غيرت الإخوة الأربعة بقطع أخرى مزيفة؛ لذلك لا شيء يعمل، ستندم كما لم تندم من قبل»، أنهى كلماته ثم نظر أمامه ولم يضف أي شيء.

«لعنة»..

ترددت تلك الكلمة في جوف أدهم طويلًا، ماذا في الحياة يمكن أن يتحول إلى لعنة؟! «الحب الصافي بعد أن يلوثه التجاهل والكِبر والألم؟! الحرية التي نعتقد أن الإيمان يطوقها ويخنقها ثم يدفنها فتتجرَّد من كل المسلمات وندَّعي العلم المزيف بعقولنا المريضة؟! إنني الآن في طريقي إلى الهلاك، النهاية ولكن أبدًا النهاية لا تعني الانتهاء، هذه هي الحقيقة التي كان يجب إدراكها منذ البداية دون الدخول في تفاصيل أزهقت أرواحًا كل ذنبها أنها عرفتني يومًا، ماذا يمكن أن يكون قاسيًا أكثر من ذلك؟! أنا أستحق الموت، والموت هو السيد الوحيد الذي لا يخطئ مسعاه ولم يخسر معركة أبدًا في حياته».

ابتسم أدهم في نفسه وهو يفكر عبر الطريق الطويل في كل شيء، في كلمات الشيخ غانم التي عادت إليه بشكلٍ آخر الآن.

«إن الموت يعيش داخلنا كما الحياة، لكنه رهن الانتظار حتى يأتي موعده ليمنح أجسادنا النوم الأخير، إنه يتغذَّى على كرهك لنفسك، على كل خطيئة ترتكبها، على كل غضب يخرج منك، الموتى كثيرون في هذا العالم، وربما أكثر من الأحياء».

لقد كان الشيخ على حق، فلقد كان ميتًا حتى هذا اليوم الذي اختار فيه لنفسه الخلاص، فلم يختر أن يكون اليهودي التائه، ولكنه اختار أن يجوب نفسه أولًا ويتخلَّص من قاذوراتها وسوادها مع محطته الأخيرة، حتى يسقط جسده السقطة الأخيرة بهدوءٍ، مبتسمًا، قانعًا بأنه الرجل الذي عاش إلى الأبد؛ لأنه ببساطة علم الحقيقة، علم أنه لم يكن من ضمن هؤلاء الذين ماتوا وهم أحياء، ولكنه من ضمن الذين سيتركون خلفهم حبًّا حقيقيًّا، لقد انفطر قلبه على آسيل، وتلك الحقيقة المفزعة أنكرها طوال مشواره المخيف؛ لأنها منحته شيئًا تمنحه لحاجتها وليس لرغبة شيطانية تأسرها، ولقد بكى في أعماقه على فاطيم القوَّاد لأنه لفترة في حياته لم يكن يختلف عنه في شيء، قوَّاد آخر بقناع آخر يجوب هذا العالم اللعين، لقد غضب من موت جيلان ونُحر قلبه لخطيئته معها ودعا الله في أعماقه أن يسامحها ويسامحه، وجاء توني ليُخلِّصه من بقايا قذارة عالقة في وجدانه، فأثبت له أن الحياة مغامرة قد تنتهي بالموت الوشيك دون أن ندري، وانتهت رحلته بفقدان إليسا التي دفعت ثمنًا لا تعرف سرَّه، وحسن الذي اعتقد أن الموت جلب له الحب الخالي من أي ضغينة، لقد عاش معظمهم وهم يبحثون عن الحياة، والآخرون عاشوا ليبحثوا عن

الأمل، ولكن الحياة دومًا قاسية، تمنح الخزي للبعض، والتيه للبعض الآخر، فنعيش في دائرة مفرغة.

ذهب حسن وذهب معه ما تبقّى منه فجاءه الخلاص الحقيقي لكل شيء قذر في جوفه، فأصبحت الحياة بالنسبة له مجرد صدمة قوية أعادت له التوازن، آمن بأنه الآن مجرد ورقة في مهب عاصفة داخلية، في الحقيقة لقد انتهت العاصفة والورقة يداعبها النسيم الرقيق الأخير.

لقد حاول الهرب ليصلي، ليتضرّع إلى الله كي يمنحه السكينة في أيامه الأخيرة، ليحب كما لم يحب من قبل، دون رغبة، دون تلك المفاهيم التي تعطي للحب شكلًا مزيفًا، دون تلك الخناجر الرجولية التي يستخدمها ضد النساء متباهيًا بقدرته على أسرهن وهن في الحقيقة لا يرغبن سوى في ابتسامة صادقة من رجل صادق.

لقد أضاع الكثير وهو يملك الكثير وتلك هي الكارثة التي أوصلته إلى تلك النهاية، فكر في نهايته الآن، هل يستحقها؟! ابتسم وهو ينظر إلى الطريق أمامه، بالطبع يستحقها، لقد كان هادئًا وقانعًا بتلك النهاية لتكون هي المُخلّص الحقيقي لكل خطاياه؛ لتكون النهاية المطلوبة، لقد عرف تمامًا ماذا تعني كلمة المُخلّص الآن، والآن فقط، إنه هو الذي صُلِب على خشبة الحياة فتجرّد من الخطيئة، لم يكن يتخيل أن الشيخ غانم سيكون على حق إلى هذه الدرجة وهذا المدى البعيد، تذكر كلماته:

«إن كل شيء في هذا العالم مرتبط ببعضه ارتباطًا لا يستطيع عقل إدراكه، كل شيء حدث لك في حياتك ستجده مرتبطًا بخيطٍ خفيٍّ، هذا

الخيط هو القدر الذي يرسم ملامح حياتك، أنت تختار الألوان التي ترسم بها لتُكوّن في النهاية الثوب، الثوب الذي ترتديه ليمثل لك في النهاية شكلك الداخلي، طبيعتك الإنسانية».

نعم، لقد اختار أدهم في النهاية ما يجب فعله، لقد استخدم الألوان التي يجب أن يستخدمها، لقد استطاع أن ينقذ شيئًا واحدًا وهذا كل شيء بالنسبة له، لن يمنح هؤلاء سوى ابتسامة باردة قذرة جرَّاء ما فعلوه، الله لم يمنحهم وعدًا ولا توكيلًا ليعبثوا بالأرض وليريقوا الدماء باسمه وهو بريء من كل ذلك، لقد سقط العالم بسبب أمثال هؤلاء وأمثاله أيضًا في وقت سابق، الصالحون يُحاربون وهو أحدهم في هذه اللحظة، لقد عرف ذلك من النور الذي شعر به في جوفه الآن، من تلك السكينة التي تستقر بقلبه وأفكاره.

«لكن قل لي ماذا ستفعل بعد أن تعرف الحقيقة؟! ماذا إن كانت الحقيقة مؤلمة وموجعة؟! ماذا ستختار؟! ستختار ما جئت من أجله أم ستختار ما يجب فعله؟! هذا السؤال الأخير لا تُجب عليه الآن؛ لأن الوقت كافٍ بأن يعلمك»، ترددت الكلمات الأخيرة للشيخ غانم في أعماقه بصوتٍ مهيبٍ، ابتسم وقد علم بأنه اختار ما يجب فعله، ولم يختر أبدًا ما بدأ الطريق من أجله، لقد انتهى كل شيء بالنسبة له في هذا العالم، انتهى تمامًا..

نظر أدهم أمامه على ساعة السيارة فوجد أن ساعةً كاملةً قد مرّت، فابتسم ابتسامة عذبة لم يبتسمها طوال حياته، فجأة اعترضت سيارتان

السيارة التي يوجد فيها أدهم والمُعلم مما جعل سائق السيارة يتوقف فجأة وبصعوبة مائلًا بالسيارة التي أحدثت صريرًا قويًا ومفزعًا، نظر أدهم أمامه فوجد رجالًا يرتدون الأسود يخرجون منها، واندلعت فجأة النيران حول السيارة، لم يرتعد، لم يخف، فقط كان مبتسمًا وقد أطبق جفنيه بارتياحٍ، في الحقيقة تحوَّل المشهد كاملًا إلى دخانٍ أسودَ كثيفٍ.

كثيفٍ للغاية.. منع الرؤية تمامًا.

الفصل الاخير

كانت تنظر إلى قرص الشمس وهو يغوص في رمال الصحراء عند المغيب، فرسمت أشعتها الدافئة لونًا برتقاليًا حزينًا لكنه يُضفي السكينة والهدوء على النفس، كانت ترتدي ثوبًا بدويًا زادها جمالًا رغم الحزن الذي يعتصر قلبها، كانت تقف أمام الخيمة وبجوارها الشيخ غانم الذي كان يتابع المنظر بقلبه وإحساسه الذي لا مثيل لهما، لم يبقَ على وجودها هنا سوى عشرين يومًا، هدأت فيها واستقر حالها، لقد نفذت الجملة الأخيرة كما أشار لها أدهم:

الرجل العجوز - سيناء

استعادت كل شيء في حياتها وهي تتابع هذا المشهد المهيب، علمت في جوفها بأنها أحبت رجلًا ضميره لم يمت، احتاج لهزة قوية كي يعود إلى نفسه التائهة، ابتسمت ابتسامة حزينة وهي تواجه أصالة وقدسية سيناء، سيناء التي اهتز العالم والتاريخ معًا لأجلها، عروس العالم، قدس الأقداس، الأرض التي تكلم بها الله، طريق الأنبياء والمرسلين، جمال الطبيعة المُعلِّم وهدوء النفس العميق.

بعد أن جلست على الأرض أمام الخيمة واحتضنت نفسها ضامة رجليها إلى صدرها لتحتمي من البرد، برد الوحدة والألم والذكريات، تساءلت: «لِمَ تعود الذكريات قاسية دون مَن نحب؟!»، نظرت إلى السماء وقد رفعت دعوة إلى الله، ابتسمت ابتسامة هادئة بعد أن تذكرت شيئًا، دخلت إلى خيمة الشيخ غانم بينما كان الأخير جالسًا في الظلام مطأطئ الرأس وكأنه يصلي، لقد كان أدهم محقًّا، فالجد هو الشيخ غانم، كانت تلك جملته الوحيدة التي كتبها لها في الورقة، «اذهبي إلى الشيخ غانم.. إنه الجد»، مَنْ سيكون أكثر حكمة سواه؟! فلقد كانت جملته الأخيرة له رسالة عندما قال: «حينما تُدرك الحقيقة ستأتي إلى هنا، تذكر ذلك جيدًا!»، فكرت أيضًا في أنَّ كل شيءٍ كان مُرتبًا بشكلٍ غريبٍ، وواضحًا كالشمس في نهار صيفي حارق، إن كل شيء يرقد هنا شاهدًا على حماقات وافتراءات التاريخ، فأي مكان أكثر قدسية من سيناء يمكن أن يكون فيه الكنز الذي نضح بالأحداث والتغيرات والضحايا أيضًا؟!

كانت هناك منضدة صغيرة «طبلية» تقترب من الأرض، كان هناك أيضًا حقيبة جلدية وبجوارها مجموعة ضخمة من الأوراق البيضاء الفارغة تمامًا من أي حرف وفوقها قلم، فتحت الحقيبة وقد لمعت في عينيها لمحة من الذكريات فابتسمت ابتسامة رائقة لا تخلو من الحزن، أخرجت محتويات الحقيبة، لم يكن هناك شيء سوى أربع قطع مألوفة مثلثة الشكل وورقة واحدة فقط قديمة ومهترئة منزوعة من مخطوطة لكتاب مألوف، مرسوم عليها رسم كروكي قديم لهذه القطع، ابتسمت وهي تُركِّبها مع بعضها كطفلة صغيرة تلهو.

حينها، وحينها فقط، ظهر وميض مألوف كشف عن خريطة مألوفة أيضًا على الورقة.

«أربعة إخوة، كلُّ أخٍ يوجد ببلدٍ، الأب ينتظرهم بجانب المعلم الكبير، لن يُفتح الباب إلا باتحاد الإخوة الأربعة، حينها، وحينها فقط، سيسمح الجد بمرور الجميع».

لقد اتحد الإخوة الأربعة أخيرًا في موطنهم بعد أن اجتمعوا مع الأب «المخطوطة»، حيث كان مرشدهم المُعلم الكبير «السر المتمم»، وكان في انتظارهم الجد «الشيخ غانم»، الذي أيقن في هذه اللحظة، وبعد كل هذا العمر من التأمل والمعرفة، أن الله وحده مَن يملك الحكمة ليجعل في النهاية المُخلِّص شخصًا لم يكن لأحد أن يتخيَّله طوال هذه الرحلة المرهقة، شخصًا لم تقُده الأحداث، لم يبحث عنها، لم تدهشه أو تقلبه مجرد نزعة مجنونة ظهرت تحت دافع الموت العنيد، إنه شخص منزه عن كل ذلك.. في الحقيقة كان المُخلِّص مختلفًا تمامًا، إنه ليلى.

كانت تبتسم ببراءة في هذه اللحظة، شعرت بأن هناك مَن يهمس لها فشرعت تكتب في وسط صفحة من الصفحات الفارغة، كتبت بهدوءٍ وبخطٍّ أنثويٍّ جميلٍ:

«الرجل الذي عاش إلى الأبد».

(تمت بحمد الله)

شكر

أولًا أود أن أتقدم بالشكر لصديقي الرائع وأخي الجميل خالد يونس الذي لولا نصائحه في أوقات كثيرة لما كنت هنا اليوم أخط هذه الكلمات، عن كل تلك الأوقات الشقية التي وصلت فيها الضحكات إلى سماوات هذا العالم، وعن كل تلك الأوقات الصعبة التي مررنا بها، عن حرصك وإخلاصك وتفاؤلك وعن كل شيء قدمته لي لأنك آمنت بي وهذا يعني لي كل شيء، أشكرك بكل آيات الحب وأقدم لك كل الاحترام والتقدير لأنك تستحق كل ذلك وأكثر، دمنا أطفالًا كما نحن .

أود أيضًا أن أتقدم بالشكر والاحترام والتقدير لكل من آمن بهذا العمل، وأبدأ من تركيا بصديقي آسيل تاشكران، وإبراهيم أيرجاز، أشكرهما بصدق على معلوماتهما وصدقهما وإيمانهما بهذا العمل كما أنني لن أنسى أصدقائي المحررين بفرنسا كنزا ديمتري، ولولا كاروفوتا، وأيضًا ماثيو دي بنجورن الذي كان عونا قويا لي، كما أود أن أقدم جزيل الشكر إلى كل أصدقائي بإيطاليا وقبل ذكر أسمائهم عليّ أن أقر بمدى قدرتهم المهنية ورؤيتهم الرائعة وجنونهم الذي لا ينتهي وهم: روبرت تشيلي، ولوسي ستيف، ونورا بكراملين، كما أتقدم بوافر الشكر والتقدير

والمحبة لأصدقائي بإنجلترا: مايك ماير، ولويزا ماير، وأماندا أندرسون، وجون بينديكت، وبيتر هارسون، والمحرر والباحث التاريخي الرائع شون بيترسون.

كما أتقدم بالشكر لإدارة الدار المصرية اللبنانية بداية من أستاذنا الكبير محمد رشاد الذي كان سببا في ظهوري بالشكل اللائق واحتوائه لي كأب قبل أي شيء، كما أشكر المدير التنفيذي الموهوب والرائع الذي يعشق عمله الأستاذ أحمد رشاد، وأود أن أتقدم بكل آيات الاحترام والشكر لمديرة النشر التي طالما عملت لأجل أن تصدر أعمالي بالشكل اللائق الأستاذة نرمين رشاد، وكذلك الأستاذة نورهان رشاد التي أفادتني كثيرًا بآرائها والتي سعت كثيرًا لأن تمد لي يد العون في كل ما يخص أعمالي، ولن أنسى جميع العاملين الموهوبين المحترمين في الدار المصرية اللبنانية.

وتقديري العظيم لصديقي عبد الرازق الذي طالما آمن بي بلا توقف، كما أتقدم بالشكر والعرفان لأصدقائي الرائعين: ألبرت يعقوب، وتيتو، وأنس مراد، وعبد الرحمن عوض الله، وعبد الرحمن محمد، ومادو أيمن، وكريم محسن، ومحمد عودة، وميزو، ومحمد محسن، وحازم، ويوسف المهدي، ومصطفى الجبيلي، وأحمد السيد، وسلمى شمس الدين، ونهى العايق، وريم طارق، وهبة الله، وياسمين، كما أتقدم بالشكر والتقدير لكل إدارة جروب التولتمية الموهوبين في كل من القاهرة، والإسكندرية، والمنصورة، والشرقية.

أقدم شكري واحترامي أيضًا لكل القراء والمحبين في كل محافظات مصر بداية من دمياط، مرورًا بالقاهرة وحتى الصعيد، وكل حبي وتقديري للقراء في الدول العربية الشقيقة على كل الدعم والحب الذي ألاقيه في كل مكان تطأه قدمي.

كما أقدم امتناني واحترامي الكبير للكاتب الرائع د. يوسف زيدان على ما قدمه لي من خلال أعماله التي أفادتني كثيرًا في هذا العمل، كما أتقدم بالشكر لكل من أصدقائي الكُتاب: السيد المستشار أشرف العشماوي على آرائه الرائعة، كما أشكر صديقي الرائع الأستاذ مصطفى الفرماوي على ثقته ونبله، كما أتقدم بالشكر لكل المكتبات والعاملين بها على توفيرهم أعمالي بالشكل اللائق.

في النهاية وبعد أن يصل القارئ إلى عمق الرواية فلا بد لي أن أقبّل يد أمي التي عانت كثيرًا معي في أثناء كتابة هذه الرواية، وكذلك «ابتسام» التي لولاها ما خرج هذا العمل بهذا الشكل.

لكم جميعًا مرة أخرى وليست أخيرة.. شكرًا.

مراجع الرواية

• اليهودي التائه - «كارتا فيلوس»
• Legends of the world book - Richard Cavendish
• For 13c.expulsion of Jews see History of the Jews in England and Edict of Expulsion.
• For Jews in Spain in and after middle ages see History of the Jews in Spain.

• أيا صوفيا - وصف معاصر
http://gbgm-umc.org/umw/bible/procopius.stm

• شهود يهوه - الموقع الرسمي لجمعية برج المراقبة
http://www.jw.org/ar

• مواقع معارضة لشهود يهوه
http://www.arabicbible.com

• مقالات متفرقة عن جماعة شهود يهوه
http://www.gotquestions.org/Arabic/Arabic-Jehovahs-witnesses.html
http://ar.arabicbible.com/christians/jehova-witnesses/jehovah-03.html

• الرد على معتقدات شهود يهوه - انظر كتاب سلسلة محاضرات تبسيط الإيمان - الأنبا بيشوي مطران. وللتعرف على بعض اعتقاد المخلِّص يمكنك أيضا قراءة أعمال د. يوسف زيدان .

• بنك تيكستايل التركي

http://www.tekstilbank.com.tr/portal/index.htm

• خريطة للأماكن المستخدمة في تركيا

https://maps.google.com/maps/ms?msa=0&msid=218276501633361230923.0004975ceee9a005b870a&dg=feature

• فندق الموفنبيك - باريس

http://www.moevenpick-hotels.com/ar/europe/france/paris/hotel-paris-neuilly/overview/

• الموقع الرسمي لمتحف اللوفر

http://www.louvre.fr/en

• أعمال الفنان يوجين ديلاكروا

• انظر كتب:

Noon, Patrick, et al., Crossing the Channel: British and French Painting in the Age of Romanticism, p. 58, Tate Publishing, 2003. ISBN 1-85437-513-XGombrich, E.H., The Story of Art, pages 504–6. Phaidon Press Limited, 1995. ISBN 0-7148-3355-XPaul Williamson (10 April 1995). Gothic Sculpture, 1140–1300. Yale University Press.ISBN 978-030006-338-7.

• الأمريكي كريستوفر شولز - الآلة الكاتبة

http://www.findagrave.com/cgi-bin/fg.cgi?page=gr&GRid=7656870

• حركة القطارات في أوربا

http://www.raildude.com/en

• الكولوسيوم

http://www.tribunesandtriumphs.org/colosseum/index.htm

- Roth, Leland M. (1993). Understanding Architecture: Its Elements, History and Meaning (First ed.). Boulder, CO: Westview Press. ISBN 0-06-430158-3.
- J. C. Edmondson; Steve Mason; J. B. Rives (2005). Flavius Josephus and Flavian Rome.Oxford University Press.p. 114.ISBN 0-19-926212-8.

- البانثيون – روما

http://www.italyguides.it/us/roma/pantheon.htm
- Claridge, Amanda (1998). Rome. Oxford Archaeological Guides. Oxford Oxfordshire: Oxford University Press. ISBN 0-19-288003-9.

- سيتيموس سيفيروس

- Grant, Michael (1985). The Roman Emperors.ISBN 0760700915.
- Grant, Michael (1996). The Severans: The Changed Roman Empire. ISBN 0415127726.

- جميع الأماكن المذكورة في الرواية قد تم وصفها بشكل تفصيلي حقيقي طبقا للمراجع المذكورة سابقا.